في رحاب القرآن

مختصر تفسير العلامة الشيخ بيوض

(من سورة الجاثية إلى آخر سورة المجادلة)

برواية ورش عن نافع

اختصره ورتبه

الشيخ الناصر بن محمد المرموري

الإخراج والفهرسة

إسماعيل بن عمر كاسي وصالح

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

ص.ب: ٦٦٨ الرمز البريدي: ١١٣ مسقط

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٢٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجاثية مكية وآياتها ٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ
لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ
مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ
اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُومِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ
تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
(٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُؤًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
مُّهِينٌ (٩) مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا
وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَٰذَا
هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١)

السورة من الحواميم السبعة، وهي مكية، فيها ما في أخواتها من الخصائص التي جعلت في السورة المكية، من معالجة مواضيع الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومقاومة إعراض المشركين وتكذيبهم بآيات الله وأنبيائه ورسله، وتمتاز آياتها

بقصر الفواصل وجزالة الألفاظ، وشدة الإيقاعات، بما تحمل من البراهين القاطعة، والوعد والوعيد، وأخبار الأمم السالفة.

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾

السورة بدئت بحرفي الحاء والميم، والذي نقوله في تأويلهما هو ما قلناه في سالفاتها، والله أعلم بمراده، ويأتي الخبر أنه تنزيل الكتاب وهو القرآن من الله العزيز القوي الغالب الحكيم، العليم بما يصلح أمور هذه الخليقة وما يسعدهم، ولا يكون كتاب الحكيم إلا حكيما، يحمل الهدى والحكمة، وفي الآية بيان أن هذا الكتاب ليس هو من وضع البشر إنما هو تنزيل من عند الله، أنزله بعلمه وإرادته وحكمته، فمن آمن به واتّبعه اهتدى ورشد، ومن أعرض عنه ضلَّ وغوَى.

﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُومِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُومِنُونَ﴾.

يلفتنا ربنا في هذه الآيات المتلوّة إلى آياته المجلوّة في السموات والأرض، وما فيهما وما بينهما من المخلوقات، وفي أنفسنا آيات، وفي إنزال الماء من السماء وإحيائه به الأرض بعد موتها، وفي تصريف الرياح آيات تزيد المؤمن إيمانا، ويزيده التدبر فيها في عقله ويقينه، ولا ينتفع بآيات الله إلا المؤمنون العقلاء، والموقنون الأكياس، فالمؤمن حين يتدبر في خلق السموات والأرض يزداد إيمانا، وينطلق لسانه بذكر الله فيقول: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩١)، ذلك لأنه يعلم أن أفعال الله تبارك وتعالى تجل عن العبث واللهو، ويعلم أن السماء ومجرّاتها وأبراجها ونجومها، وأن الأرض وبحارها وجبالها وأشجارها، وأنهارها وعيونها، ودوابها

وحيتانها وطيورها، تدل على الخالق القادر، المدبر الحكيم العليم، فيزداد له حبا وهيبة وتعظيما، ويقبل عليه بالعبادة الخالصة، والتوكل والاستسلام والتفويض.

﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُومِنِينَ﴾.

هذه السموات التي فوقنا والتي ترجع أبصارنا حسرى، وتكل عقولنا وأفكارنا دون بلوغ مدى آفاقها، وإحصاء نجومها المتناثرة التي تظهر صغيرة وهي كبيرة، فيها ما يكبر الشمس بملايين المرات، وهي تسير وتسبح في الفلك في نظام محكم دقيق، ولها أبراج ومطالع ومغارب، ففي السموات آيات وآيات للمؤمنين الذين آمنوا بخالق السموات السبع ورب العرش العظيم، وفي الأرض وطبقاتها وأقاليمها وأوتادها وبحارها وأجوائها آيات للمؤمنين، الذين آمنوا بخالق الأرض وسبحوا له وتفكروا في آياته، فزادتهم إيمانا.

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

يقول الله تبارك وتعالى: وفي خلقكم يا معشر الجن والإنس آيات، فتفكروا في أنفسكم وما أودع الله فيكم من أجهزة وقوى وأسرار، وتفكروا في أصل خلقتكم الأولى، ثم في مصيركم إلى الفنا، وتفكروا في الدواب التي بثها الله في الأرض، في برها وبحرها، مشارقها ومغاربها، وفي مختلف أقاليمها وما أكثر أنواع هذه الدواب، ففي دقيقها وجليلها آيات وآيات لقوم يوقنون، واليقين درجة فوق الإيمان، والإيمان القوي يؤدي إلى اليقين، ولا يعتبر بآيات الله المجلوة في الكون إلا الموقنون.

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

ثم إن الله تبارك وتعالى يلفت عقولنا إلى النظر والتدبر في اختلاف الليل والنهار ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾ (الأعراف: ٥٤)، ففي التأمل في اختلاف الليل والنهار وأخذ أحدهما من الآخر بتقدير العزيز العليم، في نظام بديع لا يتبدل ولا يتغير ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ وفي هذا الاختلاف منافع للأرض

ونباتها، وساكنيها، فمنه يتكون الليل والنهار، والفصول الأربعة، وفي التأمل فيما أنزل الله من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها، والرزقُ الماء النّازل من السماء، وكذلك أشعة الشمس والقمر والنجوم، ففيها حياة للأرض وطاقة تستمد منها النباتات والأشجار، وحتى الحيتان في البحار.

وفي تصريف الرياح التي تهب من الجهات المختلفة، وتتفاوت قوة وضعفا، وحرارة وبرودة، ورطوبة ويبوسة، وفي أنواعها منافع للناس والحيوان وزروع الأرض وأشجارها ونخيلها، فمنها لواقح، ومنها ما يسوق السحب، ومنها ما ينظف الزروع والثمار وينعشها، ويقتل جراثيمها، وهي مبشرات بين يدي رحمة الله، وقد تكون أحيانا أعاصير في زوابع نكباء، وفي كلٍّ موعظة وذكرى للمؤمنين، وفي ذكر ما تقدم آيات لقوم يعقلون.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُومِنُونَ﴾.

تلك آيات الله من القرآن نتلوها عليك ببيان آيات الله في الأكوان، فبأي حديث بعد الله، أي دون الله وآياته يؤمنون، تعجب لهؤلاء القوم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث ولم يعتبروا بهذا الحديث، ولم يعتبروا بآيات الله ولم تفدهم، فما الذي يفيدهم غيرها، وهذا تعجيب من حالهم، وإنذار لهم من بسوء مآلهم.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ اَثِيمٍ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ اَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنَ ـ ايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُؤًا اُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ مِنْ وَّرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلاَ مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

المناسبة شديدة بين هذه الآيات والتي قبلها، فهي تحمل الوعيد لهؤلاء الذين لا ينتفعون بآيات الله حين تتلى عليهم، وما يمنعهم من الاستماع إلا الاستكبار، وما طبعوا عليه من الإفك والإثم، .ويل لكل أفاك أثيم، والأفاك هو الكذاب الذي يأتي بالكذب

الشنيع، يكذب على الله ويكذّب بالصدق إذا جاءه، والأثيم العظيم الإثم، الكثير الآثام، والويل هو العذاب الأليم الذي يعظم شرّه وأذاه، وهو دعاء على الآثمين الأفاكين أو تهديد لهم، الذين يسمعون آيات الله تتلى عليهم ثم يصرون على الشرك وعلى الحنث العظيم؛ والمصر هو المعاند الذي يرتكبُ الإثم، ويتمادى عليه ولا يتوب، وكلما نصح أو نهي ازداد لجاجا في عتوه ونفوره، وما ذاك لطبع الكبر المتمكن في نفسه الخبيثة، ويمضي في غيه وإثمه كأن لم يسمع آيات الله فهي لا تؤثر فيه لشدة انطماس بصيرته، وإظلام نفسه، ولرين الذنوب والآثم على قلبه، والعياذ بالله.

قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

وأصل البشارة هو الإخبار بخير مقبل، وهم يظنون أنهم على خير، وأن عاقبتهم حميدة، ولذلك خاطبهم الله بالبشارة تبكيتا لهم، وتهكما بهم.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

يقول الله تعالى: وإذا تليت عليه آياتنا وفهمها وعرفها أعرض عنها واتخذها هزؤاً لشدة توغلهم في الكفر وتكبرهم وعتوهم على الله ورسله، فالآية تكشف عن طبع خبيث يوجد في صنف من الناس في كل عصر، فما أشبه أهل الجاهلية اليوم بالجاهلية الأولى، فلم يكتف أحدهم بالإعراض عن آيات الله وترك العمل بها حتى يتعدى هذا الطور إلى طور الاستهزاء والسخرية بالمؤمنين، فهم اليوم يصفونهم بالجمود والرجعية والانغلاق، والسفاهة وقصور الفهم؛ ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَآءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٣).

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

توعدهم الله بالعذاب المهين الذي يذوقون فيه أنواع الذلة والهوان، ذلك لأنهم كانوا في الدنيا متكبرين يدّعون العزة والعلو، فعاقبهم الله يوم القيامة بالمهانة والذلة، وقد ورد أن الجبابرة في الدنيا يحشرون يوم القيامة كأمثال الذر يطؤهم الناس بأقدامهم.

ثم قال تعالى: ﴿مِنْ وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلاَ مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

من ورائهم، أي من قدامهم، فهي مستقبلتهم وهم ذاهبون إليها، ولا يغني عنهم ما كسبوا من الأموال والجاه والسلطان شيئا، ولا تنفعهم آلهتهم التي يدعونها من دون الله شيئا، فلا تشفع لهم ولا تدفع عنهم العذاب ولهم عذاب عظيم لا يستطيعون دفعه ولا محيص لهم منه.

﴿هَذَا هُدًى وَالذِينَ كَفَرُوا بِئَايَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

الإشارة إلى القرآن الكريم كلام الله، هذا الحديث الذي أنزله الله إليكم هدى، فهو عين الهدى، والوصف بالمصدر كما هو معروف أبلغ من الوصف بالنعت، وقد جاء هذا الوصف في مستهل سورة البقرة حيث قال تعالى: ﴿أَلَمٌ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والذين أعرضوا عن الهدى بعد إذ جاءهم، واتخذوا آيات ربهم هزؤا ويل لهم، لهم عذاب من رجز أليم، والرجز هو أشد أنواع العذاب، وقد وصف هنا بالأليم، فيا لها من أوصاف فظيعة متتابعة!

أربعة أوصاف جاءت متتالية كلها وعيد لهذا الصنف من الكفار الذي هو أعتى الكافرين على الله، ولذا توعدهم أولا بالعذاب الأليم، ثم بالعذاب المهين، ثم بجهنم وبالعذاب العظيم، ثم بعذاب من رجز أليم؛ وإن جلد العاقل ليقشعر لهذه الأنواع من الوعيد التي لو نزلت على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله، فما لهم لا يؤمنون، وما لهم عن التذكرة معرضين، وما لهم عن الصراط ناكبين!.

ٱللَّهُ
ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ
جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾
قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ
قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ
أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

في الكلام استئناف في تعدد آيات الله التي كان الحديث جاريا فيها من قبل، وكان الكلام في الآيات السابقة في موضوع إظهار بعض الآيات الكونية، الدالة على وحدانية الله، وقدرته وعظمته، ما لو تفكرنا فيه وعقلناه لأفردناه بالعبادة، أما في هذه الآيات ففيها الإلفات إلى آيات الله في مخلوقات الله العظيمة، المسخرة لنا، وهي من النعم العظمى التي تستدعي منا شكر المنعم، وهي أيضا من الدلائل على وحدانية الله وقدرته ورحمته بخلقه، فهي آيات لقوم يتفكرون.

﴿اللَّهُ الذي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الله وحده سخر لكم البحر، هذا المخلوق العظيم، وهذا السائل اللطيف لتجري فيه السفن العظيمة كالأعلام، ولولا تسخير الله لما طفت على ثبجه، وهي تحمل آلاف آلاف الأطنان، ولولا تسخير الله إياه لكم لأغرقتها أمواجه المتلاطمة المرتفعة كالجبال، وقديما قيل في وصف البحر: خلق عظيم، الناس فيه دود على عود، الداخل فيه مفقود، والخارج منه مولود، فمن أجلِّ نعم الله تسخير هذا المخلوق العظيم لكم لتجري فيه الفلك المثقلات بالأطنان من الأرزاق والأمتعة والعباد، تحملها من وطن إلى وطن لينتفع

الناس بعضهم من بعض، وليس هنالك من وسائل النقل أعم نفعا وأعظم بركة من النقل البحري، وما تجري هذه السفن في البحار إلا بأمر الله، وتيسيره وفضله العظيم، وقد سخرها لكم بأمره لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون، فهلا قمتم بحق الشكر لربكم المنعم المتفضل، ولا يتحقق شكركم له إلا بإخلاص الدين له وتوحيده بالعبادة، وذلك بأن يذكر ولا ينسى، ويطاع ولا يعصى، ويشكر ولا يكفر.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: وسخر لكم ما في السموات، وذلك كالشمس والقمر والنجوم، وطبقات الجو التي تحمي الأرض من الأشعة المضرة، وتيارات الرجوم، وسخر لكم السحب التي تمطر الغيث رزقا لكم، وسخر لكم ما في الأرض من الأنهار والأشجار والثمار والزروع والمعادن، وجعل الأرض فراشا لكم، وألقى فيها رواسي أن تميد بكم، وأجرى العيون من منابعها، وسخر لكم ما فيها من الحيوانات، جميعا منه، إن في ذلك التسخير لآيات، وهي الدلائل لقوم يتفكرون، ينظرون بأفكارهم نظر اعتبار فيزدادون إيمانا بربهم، وشكرا له على نعمه العظمى، التي لا تحصى، نسأل الله العلي العظيم أن يجعلنا من عباده الشاكرين.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

السورة مكية، والآية نزلت في حق المؤمنين الذين تضيق أنفسهم بتجاوزات هؤلاء المتمردين الكفرة، وربما يهم أحدهم بالانتقام، ويكون له انعكاس سيء على المؤمنين المستضعفين، فأمرهم الله أن يغفروا ويصفحوا عن هؤلاء الكفرة الذين لا يرجون أيام الله، أي لا يتوقعون عقاب الله في الدنيا فيحل بهم مثل ما حل بالذين من قبلهم ممن انتقم

الله منهم، مثل عاد وثمود، ولا يرجون يوم البعث والنشور، وقد يستعمل الرجاء في معنى الخوف والتوقع لأمر مكروه، وأكثر ما يستعمل في تمني أمر محبوب.

قل للذين آمنوا يغفروا، أي مرهم أن يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون، أي ليجزي المحسنين على صفحهم وإحسانهم ويجزي المسيئين على بغيهم وإساءتهم جزاء وفاقا، وإذا علم المؤمنون أن جزاء الله العادل وراء كل عامل فإن ذلك يسليهم، ويربط على قلوبهم، وقد قيل: إن الآية نزلت في عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- شتمه أحد من المشركين من بني غفار، فهمّ أن يبطش به، فنزلت، وروي عن ابن عباس أنها نزلت في غزوة بني المصطلق، نزلوا على بئر يقال لها المريسيع فأرسل عبد الله بن أبي غلامه ليستقي من البئر فأبطأ، فلما أتاه قال ما حبسك؟ قال: غلام عمر قعد على فم البئر فما ترك أحدا يسقي حتى ملأ قرب النبي ﷺ وقرب أبي بكر، وملأ لمولاه، فقال عبد الله ابن أبي: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قال القائل: "سمّن كلبك يأكلك" فهم عمر بن الخطاب بقتله فنزلت.

وعلى هذا تكون الآية مدنية، وعلى كل فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهذا الصفح المطلوب يكون في الحالات الخاصة، أما حكم معاملة المشركين في الجهاد، والأمر بالغلظة عليهم وقتالهم، وقتلهم فأمر مطلوب، ولكل حالة حكمها، وتختلف المعاملة بين حالة عزة المسلمين وقوتهم، وبين حالة قلتهم في كثرة الكفار.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

من عمل صالحا مثلكم أيها المؤمنون الذين تؤذوْن وتغفرون، وتصبرون فلكم أجركم عند ربكم، ومن أساء مثل هؤلاء الكفار الذين تسمعون منهم الأذى فعليهم وزرهم ثم إلى ربكم يوم الفصل ترجعون، فيُجازي كلا بما يستحق، فمن أفلت من عقوبة الله في الدنيا لم يفلت من عذاب الله في الآخرة، ففي الآية تفصيل نوعي الجزاء المجمل في الآية قبلها، وفيها وعد للمؤمنين الصابرين، ووعيد للكافرين.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ
عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟
إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى
بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾
ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ
ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ
يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ
كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ
سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ
وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

يضرب الله المثل بأدنى الأمم السالفة إلى هذه الأمة ، وهم بنو إسرائيل ، وقد بعث الله أنبياءهم ورسلهم بالدعوة والسيف لحماية الدعوة ، وضرب الله بهم المثل ليعلم الناس أن مبعث محمد ﷺ ليس بدعاً من الرسل ، وقد جاء ذكر بني إسرائيل تمهيدا لذكر رسالة محمد ﷺ وشريعته الغراء التي نسخت ما قبلها من الشرائع ، وأمر الناس باتباعها جميعا ، قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوءَةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

جاء الخبر مؤكدا باللام وقد، التي هي للتحقيق حتى يدفع في صدور الذين يقولون: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٩١)، وجاء مسندا بنون العظمة لأن هذا شأن من شؤون الله، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَّشَآءُ﴾ (آل عمران: ٧٤).

يقول الله تعالى: ولقد آتينا، أي أعطينا بني إسرائيل الكتاب، أي جنس الكتاب، ويراد به التوراة والإنجيل، والصحف والحكم، أي العلم والفقه في أسرار الشريعة، وقد يراد بالحكم الرئاسة والملك، وأنهم يتمكنون في الأرض ويحكمون أنفسهم ولا يحكمهم غيرهم، والنبوءة أي الوحي إلى أنبيائهم ورسلهم، وهذه نعم ثلاث عظيمة يمتن الله تعالى بها عليهم ليعرفوا قدرها، ثم قال:

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾.

ورزقناهم من الطيبات، أي المنّ والسلوى، وهو طعام طيب حلال، يتوفر لديهم كل يوم، والمنُّ رزق مثل العسل يصبح كالطل على أوراق الأشجار، والسلوى طائر السماني، يأتيهم أسرابا فيأخذون منه ما شاءوا، ولحمه طيب لذيذ، كل هذا لما كانوا في فترة التيه، ثم قال:

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

أي فضلهم الله على أهل زمانهم بالكتاب والحكم والنبوءة، والرزق من الطيبات، ثم قال تعالى:

﴿وَءَاتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الاَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وآتيناهم بينات من أمر دينهم ودنياهم، دلائل واضحات لا تدع مجالا للارتياب، وليس بعد البينات مطلب، فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم، فاختلافهم عن بغي

لا عن جهل ولا عن غفلة، بل بغى بعضهم على بعض حسدا وحبا للعلو، وميلا مع الأهواء، إن ربك يقضي بينهم، أي يفصل بينهم بالحق يوم القيامة في جميع المسائل التي اختلفوا فيها، وفي ذكر هذا الاختلاف تسلية لقلب النبي ﷺ والمؤمنين معه، بأن اختلاف قومه عليه أمر واقع في أقوام الرسل من قبلك، فقد وقع مثله وأشد منه في قوم موسى، ثم في قوم عيسى عليهما السلام، وإن لاختلافهم أجلا ينتهون إليه فيحكم الله بينهم وهو خير الحاكمين.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: ثم جعلناك يا محمد على ملة من الدين متبعة قويمة، وضعناك على بداية طريقها، ومكناك منها فاتبعها، ولا تتبع أهواء الذين ليس لهم علم إن هم إلا يخرصون، يتبعون ما تملي عليهم أهواؤهم.

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

إنَّ هؤلاء الذين لا يعلمون لن يغنوا عنك من الله شيئا ولو قليلا؛ فإنهم لن يدفعوا عنك غضب الله ولا شيئا من عذابه لو اتبعت أهواءهم، وفي الكلام موعظة للمؤمنين، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض، وليسوا من ولاية الله في شيء، والله ولي المتقين، أي ناصرهم وكالئهم وكافيهم، فمن اتقى الله تولاه الله، ومن كان الله وليه فلن يضيع ولن يخيب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، ومن اتبع شريعة الله فهو المتقي الفائز بولاية الله.

﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

الإشارة إلى ما تقدم، وهو القرآن الذي هو شريعة الله المتبعة، وصفه الله أنه بصائر للناس، والبصائر جمع بصيرة، والبصيرة نور يبصر به القلب رشده، وكتاب الله نور القلوب، وهدى للمؤمنين الذين بلغ إيمانهم درجة اليقين، وهو أيضا رحمة لهم؛ لأن

نجاتهم وفلاحهم وفوزهم في اتباعه والعمل بما فيه، نسأل الله أن يجعلنا من الموقنين ذوي البصائر.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾.

الاستفهام إنكاري، وأم للإضراب الانتقالي، ينكر الله تعالى على المشركين والمنافقين المستخفين بيوم القيامة، المستهزئين بالوعيد، الزاعمين أنهم يكونون يوم القيامة على حالهم من العز والغنى والجاه في الدنيا، يكون كذلك يوم القيامة مثل المؤمنين أو خيرا منهم، فأنكر الله عليهم هذا الزعم وقال: أيحسب الذين اجترحوا السيئات أي اكتسبوا الظلم والذنوب الكبائر، الشرك فما دونه، هل يظن هؤلاء أن نسوي بينهم وبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات في الدنيا والآخرة، وهو معنى قوله: سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون، أي ما أسوأ حكمهم وأقبحه وأبعده عن الصواب، ونظير هذا المعنى وارد كثيرا في كتاب الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُومِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ﴾ (السجدة: ١٨).

والآية وأمثالها عامة في الفاسقين في أهل الشرك والنفاق، مرتكبي الكبائر المصرين عليها، وليست مقصورة على أهل الشرك وحدهم، ولذا كانت الآية مبكاة للعباد يقفون عندها ويرددونها، ويكثر بكاؤهم فيها، لأنهم يعلمون أنها وعيد لجميع المعاصي، فقد روي عن تميم الداري الصحابي المشهور؛ أنه كان يردد هذه الآية طول الليل يركع ويسجد ويردد الآية، وهو يبكي حتى أصبح أو كاد، وكذلك روي مثله عن الربيع بن خيثم يرددها ويصلي طول الليل وهو يبكي ببكاء شديد، ولم يعدها إلى غيرها، أولئك أرباب القلوب والبصائر، أما الذين يقولون إنها مقصورة على المشركين فهم مغرورون.

ويعجبني في هذا المقام قول الألوسي - المفسر المشهور- قال: رأينا كثيرين من المغرورين المستغرقين ليلهم ونهارهم في الفسق والفجور، ويزعمون ويقولون نحن يوم القيامة أحسن حالا من كثير من العابدين، فيطعنون في المؤمنين ويبررون أعمالهم، يقول أحدهم: أنا ولو لم أذهب إلى المسجد ولم أصلّ فأنا خير من هؤلاء المصلين المرسلين لِحَاهُمْ، ويلك أترتكب الكبائر وتصر عليها ثم تزعم أنك مثل المؤمنين الذين يعملون الصالحات أو خيرا منهم!

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

إنهم يتمسكون بالأماني الفارغة، ويخدعون أنفسهم، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَّعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا وَمَنْ يَّعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ اَوُ انثَىٰ وَهُوَ مُومِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (النساء: ١٢٣- ١٢٤)، ومن غريب ما نسمع قولهم: المراد بالسيئات هنا هو الكفر الذي هو الشرك، وقد جاء ذكر السيئات في القرآن في المعاصي دون الشرك، فهذا خطاب الله تبارك وتعالى للمؤمنين في سورة النساء، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ (النساء: ٣١)، وما فسر القرآن مثل القرآن.

وفي تفسير التحرير والتنوير؛ يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: واعلم أن هذه الآية وإن كان موردها في حالي المشركين والمؤمنين؛ فإن نوْط الحكم فيها بصلة ﴿الذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ يجعل منها إيماء إلى تفاوت حالي المسيئين والمحسنين من أهل الإيمان، وإن لم يحسب أحد من المؤمنين ذلك وعن تميمم الداري... إلخ.

ثم قال تعالى:

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾.

إن الله تبارك وتعالى حكيم لم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا، بل ما خلقهما ولا خلق الخلق إلا بالحق ولحكمة بالغة، وجعل دارين: دار يدوم نعيمها وهي الجنة، ودار يدوم جحيمها وهي النار، أعاذنا الله منها وجعل من الإنس والجن فريقا في الجنة وفريقا في السعير، ولا يظلم ربك أحدا، بل ابتلاهم في هذه الدنيا لتجزى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون، هذا قانون الله وميزانه الذي لا يتبدل ولا يتغير ولا يميل، بل هو جزاؤه العادل، ثم إن الله جل جلاله يمنُّ بالرحمة ويضاعف للمحسنين ﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ، عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (الأنعام: ١٦٠)، فويل بعد هذا لمن غلبت آحاده عشراته، وخاب ظن من يطمع أن يدخل الجنة بغير عمل، فهو يطمع في غير مطمع.

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ
وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
(٢٣) وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ
إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) * وَإِذَا تُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٥) قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ (٢٧)
وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ
مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ
رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾
وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم
مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾
وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾
وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم
مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾
فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ
ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

بعدما قرر الله تعالى حكمه العادل، وأنه يجزي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون، وفند ظنون الذين يجترحون السيئات ويحسبون أنهم يكونون كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم، وقال: ساء ما يحكمون، ألفتنا إلفات تعجب إلى هؤلاء المتبعين لأهوائهم المتشبثين بالأماني الفارغة، وعرض بعض شبههم ورد عليها بما هو الحق المبين، وتوعدهم بعذاب النار يوم القيامة، يوم يلقى كل من الفريقين جزاءه العادل، فقال جل من قائل:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

أفرأيت ؛ كلمة تدعو المخاطب إلى التعجب ، وقد يقدر فعل محذوف قبل الفاء ، أي أنظرت فرأيت من اتخذ إلهه هواه ، فهو يعبد هواه من دون الله ، أي يطيع هواه ويميل إلى اتباعه ويعرض عن عبادة الله ، والذين اتخذوا لله أندادا يعبدونهم من دون الله إنما هم في الحقيقة يعبدون أهواءهم فأضلتهم عن سبيل الله وأصمتهم وأعمت أبصارهم ، وأوحت إليهم أهواءهم أن يتبعوا ما ألفوا عليه آباءهم ، وزين لهم الشيطان أعمالهم وأضلهم الله على علم، أي خالفوا الحق وهم يعلمون أنه حق ، واتبعوا الباطل وهم يعلمون أنه جوْر عن الحق ، ولكن الله ختم أي طبع على قلوبهم وأسماعهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة تغشيها وتحجب عنها النور ، فمن يهدي هؤلاء من بعد الله ، أي من بعد أن أضلهم الله أفلا تذكرون ، وإضلال الله إياهم بتخليته بينهم وبين أهوائهم ، وتوليتهم ما تولوا مكرا بهم حين آثروا الضلال على الهدى.

﴿أَفَلاَ تَذَّكَّرُونَ﴾.

أي أفلا تنتبهون وتتعظون ، أفلا تتخلصون من ربقة الهوى ، أفلا تجعلون هواكم تبعا لما جاءكم به رسول الله إليكم ، فهي كلمة تنبيه وتحريض لأولي الألباب ليتذكروا ولا تجذبهم أمراس الهوى.

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ اِنْ هُمُ، إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾.

الجملة معطوفة على جملة سبقت وهي قوله تعالى: **﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ...﴾** الآية، هؤلاء الذين ضل حسابهم ، وساء حكمهم ، قالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا ، وأنكروا الحياة الثانية ، أنكروا البعث والحساب والجزاء ، وقالوا : ما هي إلا هذه الحياة الدنيا نموت ونحيا فيها ، أي يموت بعضنا ويحيا آخرون ، يخلف بعضنا بعضا ، كلّما هلك هالك جاء مولود يستقبل الحياة ، وهكذا ، الأرحام تدفع والأرض تبلع ،

وقالوا: ما يهلكنا إلا الدهر، هو الذي يبلينا بطول البقاء فتفنى أجسادنا وتتلاشى، وأنكروا البعث بعد الموت.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ اِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾.

أي وليس لهم علم بزعمهم هذا إن هم إلا يظنون، ما لهم علم بحقيقة حياتهم، ومن يحييهم، ولا بحقيقة موتهم، ولا علم لهم بمن يميتهم ثم يعيدهم، إن هم إلا يخرصون، أي يحكمون بالظن، والظن لا يغني من الحق شيئا، فكلامهم سخيف ومناقض لحكمة الله من خلق الإنسان، وجعله خليفة في الأرض، وتسخير سائر المخلوقات له، وتفضيله على كثير ممن خلقه تفضيلا، بل الحكمة تقتضي أن يكون له موعد يجزى فيه المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وقد جعل الله لهذا الموعد ميقات يوم معلوم، يجمع له الأولين والآخرين، ويجازى كل عامل بما يستحق بعد الانتصاف للمظلومين من الظالمين، وهذا الذي أنكره الكافرون.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ايتُوا بِئَابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وإذا تتلى على هؤلاء الكفار آيات الله القرآنية الدالة على البعث والجزاء، دلالة بينة صريحة لم يقووا على معارضتها بحجة، إلا قولهم: ايتوا بآبائنا، أي ارجعوهم إلى الحياة، وهذا الكلام ليس بشيء في معارضة آيات الله البينات، بل هو كلام سخيف لا ينطق به إلا بليد مكابر، كيف وهم يشاهدون كل يوم وفي كل حين قضايا الموت والحياة تتجدد، وهي كافية في التعبير عن قدرة الله على الإحياء بعد الإماتة، ولكنهم لا يعقلون.

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

رد عليهم الحق جل جلاله بقوله الحق وهو أكبر شهادة، الله يحييكم، أي يهب لكم الحياة بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا، ثم يميتكم ويفنيكم، ثم يجمعكم ليوم الجمع بعد

رد الحياة إليكم، يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب في وقوعه وإتيانه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون الحق فهم عنه معرضون، ولو صدّقوا بكلام الله لعلِمُوا، ولو تأمَّلوا آيات الله لعلموا، ومن أراد الله به خيرا فإنه يسمع ويعقل ويعلم، ولا يماري في آيات الله البينات، والواقع أن هنالك مرحلتين، المرحلة الأولى وهي هذه الحياة الدنيا، إنما هي للابتلاء والامتحان، والمرحلة الثانية وهي الدار الآخرة، إنما هي للحساب والجزاء، وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ فيه رد على الدهرية الذين يقولون: وما يهلكنا إلا الدهر.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ولله، لا لغيره ملك السموات والأرض، فهو وحده يتصرف فيها كما يشاء ويريد، تصرف المالك في مملوكاته خلقا وإبداعا، وإفناء وإعادة، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ إبراهيم: ٤٨)، وصيغة الكلام تفيد الحصر، وذلك بتقديم ما حقه التأخير، فالله وحده هو المالك المتصرف.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾.

يختم الله السورة بهذه الآية وتالياتها، ليبين فيها الجزاء الذي ينتظر الفريقين يوم القيامة، ولينذر الذين أنكروا البعث والجزاء بظهور خسارتهم، وتتابع حسراتهم، يوم تحق عليهم كلمة العذاب، ويحيق بهم ما كانوا يستهزؤون؛ قال تعالى: ويوم تقوم الساعة، أي حين موعد قيام الساعة يومئذ يخسر المبطلون، أي تظهر خسارتهم لأنهم كانوا تمسكوا بباطلهم وأنكروا الحق الذي جاءتهم به رسل الله، أنكروا الحق جهارا أو أنكروه ضمنا؛ لأن أعمالهم وأقوالهم كانت سيئة وباطلة، فلا يغنيهم الاعتراف باللسان إذا كانت أحوالهم تخالف الحق فهم مبطلون.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الخطاب لكل من يصلح للخطاب، وقد يكون لرسول الله ﷺ؛ لأنه المخاطب الأول الموحى إليه، والمشهد عظيم وفظيع، له في نفوس أولي الألباب أثر عميق، وترى كل أمة جاثية، الأمة مجموعة من الناس يجمعهم دين واحد وشريعة واحدة، والجثو القعود على الركب وأطراف أصابع الرجلين، في هيئة ذل وخضوع، جلسة المتلقي للتوبيخ والعتاب، المنتظر للعقاب، والموقف رهيب وعظيم، كل أمة تدعى إلى كتابها، وهذا الكتاب إما كتاب الله المنزل على تلك الأمة، تدعى إليه لتحاسب هل اتبعته وتحاكمت إليه، أو خالفته ونبذته، وإما الكتاب الذي يقدم لكل شخص مكلف يدوّن فيه ما كسبت يداه، ونطق به لسانه، تعرض عليه أعماله ليحاسب عليها فيكون المقصود حينئذ بالكتاب جنس الكتاب لا كتاب واحد، ويقال لهم: اليوم تجزون ما كنتم تعملون، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، ذلك يوم الفصل ويوم العدل، ﴿لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (غافر: ١٧).

﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الإشارة هنا إلى الكتاب الخاص لكل مكلف، يقال لهم: هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق، لا ظلم فيه ولا زور، إنا كنا، أي كانت ملائكتنا المكلفون بأمرنا يستنسخون ما كنتم تعملون في حياتكم الدنيا، لا زيادة ولا نقص، وقد أرانا الله من هذه المسجلات اليوم ما تطمئن به القلوب إلى معنى الاستنساخ الدقيق الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وهو يحصيها، ونطق الكتاب قد يكون نطقا حقيقيا كالشريط الذي يمر على المسجلة، وقد يكون عرضا في الكتاب الذي يجد فيه الإنسان ما عمله حاضرا، وكثيرا ما يمر الإنسان بعينيه على الكتاب فيطلع على ما فيه من دون أن يحرك لسانه، فالكتاب حينئذ ينطق بما فيه، فالملائكة الأبرار الكاتبون رقباء على العبد، أمناء لا يكتبون عليه إلا الحق، قال

تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (الانفطار: ١١٠-١١٢).

﴿فَأَمَّا الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ وَأَمَّا الذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ـ ايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

في أثناء الكلام على مشاهد يوم العرض الهائلة تأتي لمحة موجزة عن مصير المؤمنين ليُطمئن الله قلوبهم، ويؤمنهم من الفزع الأكبر، فهم يحشرون آمنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ويبدأ الله بذكر حالهم تنويها بشأنهم، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أدوا الفرائض واجتنبوا المناهي، واستقاموا على إيمانهم حتى لقوا ربهم، فأولئك يدخلهم ربهم في رحمته، ربهم الذي هداهم وأنعم عليهم يدخلهم في رحمته وجنته، فهم مزحزحون عن النار وداخلون الجنة، دار القرار، ذلك هو الفوز العظيم، الإشارة بذلك لعلوِّ مرتبتهم، ذلك هو الفلاح والفوز والنجاح العظيم، وليس ملك الدنيا ولا متاعها ولا أموالها، ولا استقامة أحوالها، فهي متاع الغرور، وليس الفوز إلا فوز الآخرة، لمثله فليعمل العاملون.

﴿وَأَمَّا الذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ـ ايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

وأما الذين كفروا فيوجه إليهم هذا الخطاب القاسي الذي فيه التوبيخ من قبل الحق جل جلاله ﴿أَفَلَمْ تَكُنَ ـ ايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقرير، ألم تكن آياتي تتلى عليكم، وهي كتب الله والصحف التي أنزلها على أنبيائه ورسله، كانت تتلى عليكم فمنعكم كبر نفوسكم عن سماعها وقبولها فأعرضتم عنها وكفرتم بها، وكنتم قوما مجرمين ترتكبون الإجرام من الظلم والكبائر والموبقات من

الذنوب، وقد تمكن فيهم الإجرام حتى كان من مقوماتهم، فوصفهم بأنهم كانوا قوما مجرمين.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

بني فعل القول للمفعول لأن العبرة بالقول لا بالقائل، فمتى كان القول حقا يقبل من أي قائل كان، وإذا قيل لهؤلاء الكفار إن وعد الله بالبعث حق والساعة آتية لا ريب فيها قالوا ما ندري ما الساعة، تجاهلوها استهزاء بها وتكذيبا لرسل الله والنذر من بعدهم، وقالوا: إن نظن إلا ظنا، أي نشك ولا نستيقن، فهم ينفون عنهم العلم واليقين، وهذه العبارة من كلام الكفار تفيد أن الذين يشكون في وعد الله ولا يوقنون به هم عند الله كالمنكرين، يحكم عليهم يوم القيامة بحكم واحد؛ لأنه لا عذر لعاقل أن يشك في الأمر بعد قيام الحجج في آيات الله البينات.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾.

وبدا لهم يومئذ سيئات ما علموا، فقد رأوا كل أعمالهم محصاة، وحاق بهم، أي أحاط بهم ما كانوا به يستهزئون، لقد كانوا يستهزئون بعذاب الله ويكذبون به، فها هم اليوم محيط بهم لا مناص لهم منه، وفي هذا الكلام بيان لحال هؤلاء المكذبين المتبعين لأهوائهم، وفيه إنذار لهم وموعظة وذكرى للذين يخافون وعيد الله.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا، والقول موجه من قبل الله تعالى، فهو ينساهم أي: يذرهم في العذاب ماكثين فيه أبدا، ولا يقبل منهم كلاما كالمنسيين، جزاء وفاقا لأنهم كانوا في الدنيا نسوا الله ونسوا لقاء الله، واستخفوا بوعيده، فاليوم

ينساهم من رحمته ومأواهم الأخير الذي يأوون إليه هو الخلود في نار جهنم، وما لهم من ناصر ينصرهم ولا شفيع يطاع، وقد انقطعت بهم الأسباب وخابت أمانيهم الباطلة، قال تعالى:

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

ذلكم جزاؤكم الحق بأنكم كفرتم بآيات الله واتخذتموها هزؤا وغرتكم الحياة الدنيا، يقال هذا الكلام لمن أنكر البعث والحساب، ولمن أقر به ولكنه اتبع هواه وكان أمره فرطا، ولو كان إيمانه صادقا لاستقام في طريق الهدى، ونهى النفس عن الهوى، ولم يتركها تطغى وتؤثر الحياة الدنيا.

﴿فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

يقول الله تعالى: فاليوم لا يخرجون من النار ولا يُقبل اعتذارهم، وليست أعذار ولو اعتذروا؛ لأنهم كانوا يستهزئون بالنذر، ويعرضون عن الحق، ولا يحبون الناصحين.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبْرِيَآءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

فلله الحمد لا لغيره، فهو المتصف بالكمالات، المحسن إلى عباده بإرسال الرسل وإنزال الكتب، يهديهم ويبين لهم ويعظهم، والفاء هنا للسببية، أي بسبب ما تقدم من السورة من تعداد الآيات البينات في الأكوان، والآيات البينات في القرآن، فاعلموا أن الحمد كله لله رب السماوات ومن فيهن، ورب الأرض ومن فيها وما فيها، وما هذه الأرض إلا ذرة في الفضاء بالنسبة للسماوات ولكنها مستقر الإنس والجن الذين كلفهما الله بعبادته وجعل لهم هذه الدنيا دار امتحان وبلاء، وأرسل فيهم أنبياءه ورسله مبشرين ومنذرين، فكانت هذه الأرض ذات أهمية لأنها منزل ابتلائهم، وموضع حياتهم ومماتهم، ثم بعثهم و حشرهم وحسابهم.

فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين، وهم كل مخلوقات الله في السموات والأرض وما بينهما ربهم جميعا، ومعبودهم جميعا، له يسجدون وإياه يعبدون، إلا من تولى وكفر من الإنس والجن، فإليه يرجعون فيحاسبهم، وما هم بمعجزين، ولا من عذابه بمفلتين.

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَآءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

بهذه الآية الحكيمة العظيمة يختم الله السورة، وفيها الكبرياء لله بطريقة الحصر، حقا له الكبرياء وحده لا لغيره، والكبرياء أبلغ من الكبر، فلله وحده العظمة والكبرياء في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم، كلفنا بعبادته لا لينتفع بها ولكن لنسعد بها، فهو العزيز المتكبر الحكيم الذي اقتضت حكمته أن ينزل علينا كتابا حكيما، فيه هدانا ورشادنا وسعادتنا إن اتبعناه ورضينا بشريعته، وحكمناها ولم نبغ بها بدلا ولا عنها حولا، جعلنا الله من أتباع شريعته، الحاملين لكتابه، العاملين بما فيه، الفائزين برضاه، آمين والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأحقاف مكية وآياتها ٣٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقۡنَا
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن
كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن
لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾
وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾
وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ
هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

السورة من آل حميم، وهي الأخيرة منهن، وآياتها خمس وثلاثون، وهي كأخواتها المكيات، تعنى بتمكين العقيدة في القلوب، وتعميق الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، وتعظ الناس، وتنذرهم بلقاء الله، وتذكرهم بالوعد والوعيد، وضرب الأمثال، وقد سميت السورة "سورة الأحقاف" لذكر الأحقاف فيها ولم يذكر في غيرها، أما القول في الحرفين الحاء والميم التي افتتحت بهما فقد سبق في سوالفها والله أعلم بمراده من ذلك.

﴿حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

يخبرنا ربنا تبارك وتعالى في أول السورة أن هذا الكتاب الذي يتلوه عليكم رسولنا منزل من الله العزيز الحكيم، الله الذي تفرد بالعزة الغالبة، والحكمة البالغة، نزل عليكم القرآن تنزيلا، فيه هدى لكم، وإذا كان مصدر الكلام من العزيز الحكيم فلا يكون إلا عزيزا قويا، وحكيما عليا، ليس فيه ضعف ولا مهانة، ولا التجاء ولا استكراه، إنما نزلته محض الإرادة العليا بما اقتضته الحكمة والرحمة، ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وأنزله الله لمصلحة العباد وإسعادهم، وليس له فيه منفعة، فهو الغني الحميد، وهو اللطيف بعباده، يرشدهم بحكمته ويهديهم بفضله إلى صراط مستقيم.

وما أشبه مستهل هذه السورة بمقطع سابقتها، فقد فتحت هذه بالعزيز الحكيم، وصفا لله، وختمت تلك بالعزيز الحكيم، بعد إسناد الكبرياء لله رب العالمين، والكبرياء أبلغ في مدلول الكبر والعظمة، وقد أسندت بطريق الحصر، فهي لله وحده لا لغيره، وما كان لغيره من أحد أن ينازعه في الكبرياء والعظمة، وهو العزيز الحكيم أيضا بطريق القصر؛ لأن تعريف الخبر والإتيان قبله بضمير الفصل يؤذن بالحصر، فلا يكون الكلام المنزل من لدن ربنا العزيز الحكيم إلا عزيزا حكيما، مستعليا على سائر الكلام.

﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾.

ترد هذه العبارة المحكمة في غير موضع من كتاب الله تعالى، وهو أن الله ينفي أن يكون خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا، ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق، أي خلقا ملابسا للحق ولغاية عظيمة، وليس خلقها عبثا بل خلقن بالحق وأجل مسمى، ليوم تفنى فيه السموات والأرض وما بينهما وما فيهما، ثم تبدل الأرض غير الأرض والسموات، ويوم يقوم الناس لرب العالمين ليروا أعمالهم، ويجزوا عليها الجزاء الأوفى.

﴿وَالذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾.

بعد ذكر الحق من أمر هذا الكون علويه وسفليه، تأتي الجملة في معرض التعجب من هؤلاء الكفار الذين اعترفوا بأن الله خالقهم وخالق السموات والأرض ولكنهم يكفرون بالبعث والجزاء ويقولون: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا...﴾ الآية، وهم عما أنذروا من أمر البعث والحساب معرضون، يتمارون بالنذر، ولا يؤمنون بيوم الحساب.

﴿قُلَ اَرَآيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الاَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ايتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَآ أَوَ اَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ اِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

يُعلّم الله تبارك وتعالى نبيه كيف يحاج هؤلاء المشركين الذين أبوا إلا أن يتخذوا من دون الله أنداداً ليضلوا عن سبيله، يقول الله تعالى: قل لهؤلاء: أرأيتم هؤلاء الأنداد الذين تدعونهم من دون الله، وتعكفون عندها، أروني ماذا خلقوا من الأرض، أي هل شاركوا في خلق هذه الأرض حتى يستحقوا بذلك أن يشركوا به في العبادة، أم لهم شرك في السموات، الاستفهام إنكاري أريد به التبكيت، والأمر تعجيزي، وذلك لأن هؤلاء الأنداد لم يخلقوا شيئا من الأرض وليس لهم شرك في السموات فبطلت دعوى اتخاذهم آلهة من دون الله.

أما قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ فهو إضراب استفهامي أريد به المبالغة في التهكم والتبكيت بهؤلاء المشركين وأصنامهم التي عجزت وهانت وتضاءلت عن خلق جزء من الأرض التي هي فيها، فكيف يمكن أن يكون لها شرك في جزء من السموات العالية المتينة الواسعة الأطراف، العظيمة الأجرام.

﴿ايتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَآ أَوَ اَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ اِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

بعد إعجازهم بالحجاج العقلي أن يثبتوا لأوليائهم شركة في خلق الأرض أو في السموات، طالبهم أن يثبتوا لهم وجودا بطريقة النقل، وهم في الحالتين عاجزون، قال

تعالى لنبيه ولمن بعده من المؤمنين: قل لهؤلاء: ايتوني بكتاب من قبل هذا الكتاب تجدون فيه أنكم تدعون من دون الله أندادا، أو ايتوني بأثارة من علم تثبت لهؤلاء الأنداد شركة إن كنتم صادقين في دعواكم أنها تنفع أو تضر، فثبت بعد هذا أنهم عاجزون مفلسون من الحجج، إنما هم مقلدون لآبائهم لا غير وليس لهم بها من علم مطلقا، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، معرضين عن الحق إذ جاءهم، مؤثرين الضلالة على الهدى، والغي على الرشد، وساء لهم ما آثروه سبيلا.

﴿وَمَنَ اَضَلُّ مِمَّنْ يَّدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ، إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمُ، أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

حكم الله بالضلال البعيد على هؤلاء الكفرة من قريش وغيرهم في عصر النبي ﷺ ومن بعدهم من الكافرين المشركين إلى يوم القيامة، قال تعالى: ومن أضل، أي: لا أضل ضلالا من الذين يدعون من دون الله أندادا لا يسمعونهم ولا يستجيبون لدعائهم ولو استمروا يدعونهم إلى يوم القيامة، وكيف يستجيبون وهم جمادات أو أموات في قبورهم، قد بلوا ورمت عظامهم، وهم عن دعائهم غافلون، وكم من أضرحة يعكف عندها زائروها وينذرون لهم النذر ويتقربون لهم بالقرابين، ويرفعون أصواتهم عندها بالدعوات، وما سمعنا أن دفينا منها أجابهم، وما كان ليجيبهم أو يملك لهم ضرا ولا نفعا، إن أصحاب تلك الأضرحة في شأن آخر، وهم عن داعيهم غافلون، ثم قال تعالى:

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمُ، أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

إن الله تبارك وتعالى يعرض عرضا موجزا مؤثرا مشهدا من مشاهد هؤلاء الكفار يوم القيامة، يعبر عن خيبة رجائهم في أندادهم الذين يطمعون في شفاعتهم عند الله، وإذا حشر الناس يوم الحساب كان هؤلاء الأموات، وهؤلاء الأنداد أعداء لعابديهم وكانوا

بعبادتهم إياهم كافرين بما أشركوهم من دون الله، وهذا يذكرنا بقول إمامهم اللعين إبليس حين يعلن براءته من أوليائه يوم القيامة، ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا بِمُصْرِخِكُم وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (إبراهيم: ٢٢)، تلك هي عاقبة الظالمين الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، ويا خيبة رجائهم!.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

إن من ضلالات هؤلاء الكفار إمعانهم في باطلهم، وإعراضهم عن الحق كلما جاءتهم به النذر، فهم عن آيات الله البينات الواضحات متصاممون إذا تتلى عليهم قال هؤلاء الذين كفروا بعضهم لبعض في الحق الذي هو كتاب الله لما جاءهم، هذا سحر مبين، فهم لم يكتفوا أن قالوا سحر حتى وصفوه بالإبانة، أي هو سحر واضح يؤثر في عقول الناس، ويفرق بين الولد ووالده، وبين الأخ وأخيه، ذلك لأنهم اعتادوا في جاهليتهم أن السحر وحده هو الذي يؤثر هذا التأثير على العقول، وما عرفوا أن للحق سلطانا على القلوب الواعية، وأن بشاشة الإيمان إذا خالطت شغاف القلوب السليمة فإنها تتمكن فيها ويهون عليها عداوة الأحباب والأقارب في سبيل الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ
لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي
وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا
مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى
إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ
وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا
بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى
إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ
ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ
اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

ثم بعد عرض أقاويلهم الباطلة يتغير الأسلوب من الخبر إلى الإنشاء الذي فيه حيوية الاستفهام، الإنكاري على الخصوص، ذلك لأن حالهم تدعو إلى التعجب والإنكار والتشنيع عليهم، قال تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ انِ افْتَرَيْتُهُ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

أم هنا للإضراب الانتقالي، وهي بمعنى بل، ولا يفارقها معنى الاستفهام، أي بل يقولون افتراه، أينسبون الصادق الأمين إلى الافتراء وهو اختلاق الكذب! كيف يصدق في

معاملة العباد ولا يكذب عليهم ولا يخونهم ثم يفتري الكذب على رب العباد! هذا أمر منكر وغريب، وما الذي يدعوه إلى الافتراء؟ أهو طمع في المال أو في الجاه والسلطان؟ لقنه الله أن يجيبهم بالجواب المفحم القامع لهم.

﴿قُلِ انِ افْتَرَيْتُهُ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

قل لهم يا محمد: أرأيتم إن افتريت هذا الكلام فماذا تملكون لي من الله؟ أي نفع تجلبونه لي وأي ضر تدفعونه عني، أمن أجلكم أفتري الكذب على الله؟ أرأيتم إن افتريته فهل تملكون لي من الله شيئا، جلب نفع ودفع ضر؟ لا شيء من ذلك بل الأمر كله بيد الله، ربي وربكم.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾.

ربي وربكم أعلم بما تفيضون فيه، أي تخوضون فيه من الكلام الكثير، وسيجازيكم عليه.

﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

كفى بالله ربي وربكم شهيدا عالما بأمري وأمركم، حاكما بالعدل بيني وبينكم، ومجازيا كلا بما يستحقه، وهو الغفور الرحيم، وهو مع علمه بكفركم وافتراءاتكم وظلمكم غفور لما سلف من كفركم، رحيم بكم إن رجعتم إليه وآمنتم فإنه يغفر لكم ما قد سلف ولا يؤاخذكم عليه، وفي هذا التعقيب إلانة للقول لهم وفتح باب التوبة والرجاء، ودعوة إلى الإيمان، فمن كان في قلبه ذرة من إنصاف وتعقل فإنه يتدبر هذا الكلام ويلين له قلبه، وتلك هي رحمة الله بعباده ولطفه بهم، وفيها إرشاد للدعاة إلى سبيله أن يكونوا على جانب عظيم من الأخلاق الكريمة في دعوة الناس إلى صراط الله المستقيم.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ، إِنَ اَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

يترقى أسلوب الخطاب لهؤلاء الجاحدين لرسالة محمد ﷺ ويأمر الله نبيه أن يقول مخاطبا لهم: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ البدع هو الشيء المبتدع الذي لم يسبق له حدوث، وهنا ينفي أن تكون رسالة محمد ﷺ مبتدعة فما هي إلا امتداد للرسالات السابقة من قبله، فقد أرسل الله نوحا والنبيين من بعده كما أوحى إلى آدم، والعرب من قريش وغيرهم يعرفون من أمر الرسالات وأخبار الأمم الذين أرسل إليهم وأيام الله فيهم، فكيف ينكرون رسالة محمد ﷺ، فقد حاججهم بما يعرفون، ثم قال:

﴿وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقل لهم يا محمد: وما أدري وليس لي علم بما يفعل بي ولا بكم، وهذا القول فيه تواضع الرسول وبيان أنه بشر لا يعلم الغيب وما هو إلا مبلغ لما يوحى إليه، متبع هدى الله، وهي اللهجة التي تؤثر في السامعين، وتجتذب النفوس، وكذلك ينبغي أن تكون لهجة الدعاة، لهجة تواضع وهضم نفس، لا لهجة سيطرة واستعلاء ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (آل عمران: ١٤٤)، ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ (الإسراء: ٩٣)، في أمثالها من الآيات التي تبين مقام الرسول وتحدد مهمة الرسل، ما هي إلا الاتباع والتبليغ ليس إلا؛ **﴿وَمَآ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾** ولست مفتريا على الله.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ، إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَآءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَئَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

يتطور أسلوب خطاب هؤلاء المنكرين إلى إلزامهم الحجة بضرب من محاججة منطقية ملزمة، قل أرأيتم إن كان هذا الكلام حقا من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله، أي على الكتب المنزلة من قبله عليهم أنها من عند الله، وهو التوراة والإنجيل والزبور، وقد يراد بمثله القرآن، أي شهد شاهد من علماء بني إسرائيل أن

القرآن منزل من عند الله، وتكون حينئذ لفظة مثله مقحمة، وهي كناية عما أضيفت إليه، وهذا على غرار قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١)، والله تعالى ليس له مثل.

والعرب تستعمل هذه الطريقة في كلامها، وهذا كقولهم: "مثلك يجود ولا يبخل" والمراد به الشخص المخاطب، فشهادة بني إسرائيل على صدق القرآن والكتب المنزلة قبله شهادة حق وملزمة للحجة على هؤلاء المنكرين، وهم يعترفون لبني إسرائيل بالعلم، وأنهم أهل كتاب، وقيل: إن الآية نزلت في حق عبد الله بن سلام - رضي الله عنه- ويعترض عليه أن السورة مكية وعبد الله بن سلام أسلم في المدينة مؤخرا، وقد تكون الآية مدنية وهذا واقع، وقد روي أن ابن سلام قال: إن الآية نزلت فيّ والله أعلم، وعلى تقدير نزول الآية في المدينة يكون الخطاب لبني إسرائيل، والذي عليه الجمهور أن الخطاب لكفار مكة، قوم النبي ﷺ الذين منعهم الكبر أن يعترفوا برسالة محمد الأمين ﷺ، وجواب الشرط في هذه الآية غير مصرح به، ويدل عليه ما بعده، وهو قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالمِينَ﴾.

أي إن كان هذا الكلام حقا من عند الله، وقامت عليه البينات، ونطقت على مثله الشهود فاستكبرتم فقد ظلمتم أنفسكم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين، لقد منعهم ظلمهم أن تنالهم هداية الله، وكذلك المتكبرون يحجبهم كبر النفوس عن رؤية نور الحق، فهم لا يهتدون، وما أبعدهم عن الهدى!

﴿وَقَالَ الذينَ كَفَرُوا لِلَّذينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

يكشف الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة عن طبيعة من طبائع الكفر والطغيان، وهو طبع خبيث متأصل في نفوس المتكبرين المعرضين عن الحق، تصدهم عنه أهواؤهم، فهم وإن فهموا أنه حق واستيقنته أنفسهم ولكنهم يبررون إعراضهم عنه بالتمويه على

أتباعهم من عامة الناس ليصدوهم عنه، فيختلقون الشبه ولو كانت أوهى من بيوت العنكبوت، وهنا يموّهون بشبهتين:

الأولى هي قولهم: لو كان خيرا ما سبقنا إليه ضعفاؤنا وهم الفقراء والأحداث والموالي والعبيد والإماء، وليمعنوا في السخرية والتهكم فإنهم قالوا لو كان أمر محمد خيرا ما سبقتنا زنيرة، وزنيرة أمة رومية هداها الله للإسلام، فآمنت بالله ورسوله وكتابه، كما آمن بلال الحبشي وصهيب الرومي، وعمار بن ياسر ووالداه، وأمثالهم من ضعفاء الناس وفقرائهم، وبعض شباب قريب، فعاب عليهم كبراء قريش وقالوا: لو كان هذا الأمر خيرا لكنا نحن السابقين إليه، وما علموا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده، وليست الهداية وقفا على كبراء القوم ولا على أغنياء الناس وذوي الجاه والسلطان، بل ربما صدت هؤلاء أهواؤهم وكبرياؤهم وتشبثهم بمناصبهم خشية أن يسويهم الدين الجديد بسواد الناس من أتباعهم، أما ضعفاء الناس وفقراؤهم وشبابهم فيستقبلون دعوة الرسل بفطرتهم السليمة وتخالط بشاشة قلوبهم فيعتنقون دعوة الحق، ولا يمنعهم من التصريح بالاعتراف بأنه حق فيؤمنون به.

والشبهة الثانية التي يتشبث بها هؤلاء الكفرة الجاحدون للحق هي قولهم له: ﴿هَذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ فهم يصفون الحق المبين بأنه إفك قديم، والإفك هو الكذب الصراح، وذلك نحو قولهم: ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ يعنون إن هذا الكلام الذي يأتي به محمد ما هو إلا أساطير الأولين اكتتبها وصاغها في أسلوب آخر وزعم أنها وحي الله، كل ذلك لتصويب كفرهم به وإعراضهم عنه، وللتمويه على ضعفاء الناس ليصدوهم عنه فلا يقبلون عليه، قال الله تعالى:

﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ الذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾.

رد على قولهم: ﴿هَذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ فإن الله تبارك وتعالى يقرر فيها أن هنالك كتابا قديما أنزله الله على عبده موسى إماما ورحمة، فيه هدى ونور، فهو إمام أي قدوة يقتدى به، ورحمة منزلة من الله لعباده ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ووصف الكتاب أنه رحمة، والوصف بالمصدر أبلغ في المعنى كما هو معروف، ثم قال تعالى مشيرا إلى القرآن المنزل على محمد ﷺ:

﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾.

وهذا الذي أنزل عليك كتاب من عند الله مصدق لما قبله من كتب الله، أنزلناه إليك لسانا عربيا، واللسان العربي أفصح الألسنة وأبينها، وهو شرف لك ولقومك، أنزلناه إليك لتنذر الذين ظلموا بالكفر به أو بمخالفته عذابا أليما ينتظرهم، وبشرى للمحسنين وهم الذين آمنوا به وعملوا بما فيه، وجعلوه إماما لهم، أولئك يبشرهم برحمة من الله ورضوان، وجنات لهم فيها نعيم مقيم.

﴿إِنَّ الذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

الآية تجمل قضية الإيمان كله في كلمتين واضحتين، وذلك بعض عرض أحوال الكفار وما يرجفون به من الشبه، وبعد بيان بُعدِهم عن الهدى بسبب ظلمهم وكبريائهم، وبعد بيان أن هذا القرآن ما هو إلا من جنس الكتب التي نزلت من قبله، وأنه مصدق لها، وأنه منذر للذين ظلموا وبشرى للمحسنين، فكأن قائلا يقول متسائلا: من هم هؤلاء المحسنون الذين تزف إليهم البشرى، وما هو نوع هذه البشرى؟ فجاء الجواب الشافي:

﴿إِنَّ الذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، أي اعتقدوا بوجود الله تعالى ووحدانية، وقالوا بألسنتهم ربنا الله لا غيره فأخلصوا له الدين وحققوا إيمانهم بالاستقامة على صراط الله المستقيم، وعملوا بمقتضى إيمانهم العمل الصالح، فلا خوف عليهم يوم يخاف الناس، ولا هم يحزنون، لا يحزنهم الفزع الأكبر لأنهم قد تلقتهم الملائكة بالبشارات فهم يوم الفزع آمنون.

والآية واضحة في دلالتها على الجمع بين الاعتقاد والقول والعمل، وأن الإيمان لا يتم إلا بهذه الأركان الثلاثة، وأنه لا ينفع أحدها بدون الآخر، وقد جاءت إضافة الاستقامة بثم التي هي للمهلة لتفيد أن هذه الاستقامة ستستمر طول الحياة، فلا يزال المسلم يجاهد في هذه الاستقامة إلى الممات، ولهذه المناسبة نروي الحديث الذي رواه النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال:

«ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تعوجوا، وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله من قلب كل مسلم»، فإذا كانوا في إيمانهم واستقامتهم محسنين فقد فازوا بوعد الله لهم، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

الإشارة بأولئك لعلو مرتبتهم وشأنهم عند الله، وصفوا بأنهم أصحاب الجنة، فهي مخلوقة لهم وهم لها أهل جزاء بما كانوا يعملون، وفي هذا تنبيه لأولي الألباب أن السعادة إنما تنال بالأعمال الصالحات لا بمجرد الأقوال، فلينتبه الذين يزعمون أن كلمة التوحيد وحدها توجب الجنة لقائلها، وهذا من الأماني التي لا تغني عن أصحابها شيئا، فلابد

بالأعمال، ولابد في الأعمال بالإخلاص فيها، والإحسان في الإتيان بها إحسانا يستحق أصحابه عليه الجزاء، هذا ما يوحي به قوله تعالى: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

* وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ
كَرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ
أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ
عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي
ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
يُتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيُتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ
الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ
أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا
يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ
قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾
وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِنُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي
حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ
بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

ثم بعد بيان مصير أهل الاستقامة وجزاء العاملين، تأتي وصية الله بالوالدين، وحقهما مقرون بحق الله تعالى، والشكر لهما يأتي مباشرة بعد الشكر لله ﴿أَنُ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ (لقمان: ١٤)، فقد تأكدت وصية الله للوالدين، وللوالدين المسلمين في سياق هذه الآية، قال تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا الانسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾.

الوصية هي الأمر المؤكد تصدر من المحب المشفق، وتكون عادة من الأعلى إلى الأدنى، وأعلى وصية وأغلاها وصية الله البر الرحيم لعباده، وقد وصى الأولين منهم والآخرين أن يتقوا الله، ووصانا هنا بالإحسان إلى الوالدين، وبيّن لنا عظيم حقهما على الولد، لا سيما الأم، فقد قال في حقها:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾.

حملته أمه في بطنها مشقة وثقلا، وذلك ما تجده الأم حال الحمل من الوحم والغثيان، ثم من ثقل الجنين الواحد والاثنين أو أكثر، وما تجده عند الوضع من الأتعاب والتعرض للأخطار، وأحيانا لخطر الموت، ثم ما تجده في إرضاعه وتربيته من المشقات والسهر، لا سيما في حالة مرض رضيعها، والأب كذلك يتعب لتعب زوجه ويتعرض لخسارة ماله في علاج الأم وولدها جنينا أو رضيعا وطفلا ناشئا، ويتحمل الأتعاب والهموم، أليس الوالدان بعد تحمل هذه الأتعاب زمنا طويلا يستحقان الإحسان والبر جزاء لهما على إحسانهما وبرهما! لذا وصى الله الإنسان بوالديه حسنا وصاية خاصة مؤكدة.

وقد استخرج العلماء من قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾.

أحكاما فقهية مثل درء الحدود وثبوت النسب للمولود، واستحقاق الإرث وغير ذلك من الأحكام، ذلك لأنهم وجدوا بعد طرح مدة الفصال التي هي عامان وجدوا أن

أدنى مدة للحمل ستة أشهر، وكلام الله حق، وأول من تنبه لذلك الصحابي الجليل علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه- فإنه بعد الغوص في بحار آيات الله استخرج الحكم الصواب بنجاة المرأة التي ولدت بعد زواجها بستة أشهر، وقد اتهمت بالزنا، فقال: نجت ورب الكعبة، فكان نظره الصائب فتحا لاستخراج عدة أحكام من هذه المسألة.

ثم قال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنَ اَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنَ اَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

حتى إذا بلغ أشده، وبلوغ الأشد هو بلوغ أربعين سنة، وهي السن التي تكمل فيها قوى الإنسان البدنية، وقواه العقلية الموهوبة، أما المكتسبة فلا تزال تنمو وتكتمل بالتجارب والتعلم ما دام في إمكانه الاستزادة، وحينئذ حين يبلغ الإنسان المؤمن أشده يشعر بوفور نعم الله عليه فينطلق لسانه بهذا الذكر: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنَ اَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾، رب ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وهي نعمة الإسلام والهداية وما يصاحبها من نعم كثيرة تستوجب من المؤمن الشكر للمنعم، وذكر الوالدين هنا لأنهما اللذان ربيا ولدهما على الإسلام، ولولا ذلك لهوداه أو نصراه أو مجساه، فينشأ على ما ربياه عليه، فإنعام الله على الوالدين إنعام على ولدهما، ثم قال:

﴿وَأَنَ اَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾.

وألهمني أن أعمل العمل الصالح الذي يرضيك وترضى به عليّ، ولا يستقيم الإنسان إلا بوازع من الله كما قال نبي الله شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيَ إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨).

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾.

دعا ربه بإصلاح ذريته، لأن تمام السعادة يكون بصلاح الأولاد، وصلاحهما قرة عين للآباء والأمهات، ثم يأتي تمام الدعاء:

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

في الآية إرشادان ينبغي للعاقل الذي يجتاز مرحلة الشباب أن يجدد التوبة والاستغفار على ما مضى، ولا يخلو المرء في هذه الفترة من النزوات والشهوات، ولذا ينبغي أن يقول متوجها إلى ربه: إني تبت إليك وإني من المسلمين، سبحانك يا رب أنبت إليك وتبت من جميع ذنوبي، وأسلمت نفسي إليك فاكتبني من عبادك المسلمين، اجعلني منهم وتقبل إسلامي وتوبتي وإنابتي يا رب العالمين.

ثم إن الله تبارك وتعالى ينظر إلى عبده المسلم التائب المنيب بعين رحمته فيبشره فيقول:

﴿أُوْلَئِكَ الذينَ يُتَقَبَّلُ عَنْهُمُ، أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيُتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِـي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الذي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

نظر الله إلى الشاكرين بعين رحمته فتقبل منهم أحسن ما عملوا، وتجاوز عن ذنوبهم، فغفر لهم سيئاتهم وأدخلهم في عباده الصالحين، أصحاب الجنة السعداء، وعدهم وعد الصدق وصدقهم وعده، فالفضل منه أولا وآخر، والحمد له من قبل ومن بعد، هو الذي أوزعهم أن يشكروا نعمته التي أنعمها عليهم، وهو الذي أثابهم على ذلك، وهو الذي تجاوز عن سيئاتهم، وهو الذي أدخلهم في عباده الصالحين أصحاب الجنة التي أعدها لهم، وأكرمهم بمجاورته فيها، والله ذو الفضل العظيم، وهذا جزاء الإيمان والعمل الصالح ونعم أجر العاملين، وثواب الشاكرين، جعلنا الله بفضله منهم آمين.

﴿وَالذي قَالَ لِوَالدَيْه أُفٍّ لَّكُمَآ أَتعدَانني أَنْ اخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ من قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنِ انَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَـا هَـذَآ إِلاَّ

أَسَاطِيرُ الاَوَّلِينَ أُوْلَئِكَ الذينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالاِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِنُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾.

أما الفريق المقابل وهم الضالون السالكون سبيل الشيطان المعاكس لسبيل الله فهم الكافرون، الجاحدون المنكرون، المكذبون بالحسنى، وهو الخاسرون الذين يقفو بعضهم بعضا في الضلال، فهم أمم خلت من الجن والإنس، وأمم تلحقهم حتى إذا اداركوا جميعا في النار لعن بعضهم بعضا، ودعا بعضهم بمضاعفة العذاب على بعض، فضاعف الله العذاب على أولاهم وأخراهم، ونعوذ بالله من حال أهل النار.

﴿وَالذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيَ أَنُ اخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾.

الصنف الثاني من الأولاد، ويذكره الله تعالى للتحذير والإنذار، وللاعتبار، وهو الصنف الكافر الشقي الذي يجابه والديه بالتمرد والعتو والعقوق ويقول لهما: أفٍّ لكما، وأف هذا تعبير يوجد في جميع اللغات، وهو اسم فعل للسخرية والاستهزاء والامتعاض، ولا يخاطب بها والديه إلا شقي، والكلام الذي يأتي بعدها تفسير لها وتصريح لما تكنه من سخرية واستنكار، فهو يقول لهما:

﴿أَتَعِدَانِنِيَ أَنُ اخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِ﴾ أي أتزعمان أن هناك موعد لخروج الموتى من القبور وقد خلت من قبلها قرون، أمم مضت إثرها أمم! لا يخلو هذا الجواب من سخافة وبلادة، وهل زعم أحد أن الناس الذين هلكوا يرجعون في هذه الدنيا، لا أحد يقول بذلك حتى يطالبوا برجوع القرون الغابرة، إنما يخبر الأنبياء والرسل أن البعث سيكون بعد فناء هذا العالم، بعد أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات، يخرج الموتى من أجداثهم ليوم الحساب، يعيد الله الحياة إلى الأجساد التي أنشأها من العدم ثم يميتها ثم يحييها مرة ثانية، وقد قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ (الأنبياء: ١٠٤)،

وهذه الحقيقة لا ينكرها إلا شقي مكابر، وقد رأوا قدرة الله على البدء والإعادة تتجلى في كل ساعة في كل مكان ثم لا يعتبرون، ثم إن الوالدين المؤمنين بعد إنكار ولدهما وكفره بالحق يتضرعان إلى الله ويلحان في دعوته إلى الإيمان لعل الإلحاح ينفع، ولكن لا يزيده إلحاحهما إلا عتوا ونفورا.

﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾.

وهما الوالدان المسلمان يستغيثان الله من كفر ولدهما وعقوقه، يبرآن إلى الله من كفره وجحوده ويسألان الله له الهداية، ويستغيثان بالله أن يقيهما شر كفره وجحوده خشية أن تنزل عليه من الله صاعقة أو قارعة فتصيبهما معه، ويوجهان إليه الخطاب مرة أخرى.

﴿وَيْلَكَ ءَامِنِ انَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

ويلك، كلمة إشفاق وتحذير، آمن بالله يا ولد ولا تكفر، وآمن باليوم الآخر إنه حق لعلك تنجو من شره، ولا تشك في وعد الله بالبعث فهو يوم آت لا ريب فيه، ووعد الله حق وصدق، ولكن الولد يستمر في طغيانه ويلج في عتوه ونفوره.

﴿فَيَقُولُ مَا هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الاَوَّلِينَ﴾.

فيقول الولد الكافر ما هذا الكلام الذي تردادنه إلا أساطير، أي خرافات الأوائل، والأساطير جمع أسطورة وهي القصص المختلقة لتسلية الناس وتزجية أوقات الفراغ، يتقاصها الناس في مسامراتهم وليس فيها حقائق ولا هي من الواقع في شيء بل هي حكايات وحسبها أنها يتلهى الناس بها في مجالسهم وكفى، وتعالى الله أن يكون وحيه الحق من هذا النوع ولكن الكافرين يقولون ما لا يعلمون.

﴿أُوْلَئِكَ الذينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالانسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾.

أولئك المجرمون الكافرون هم الذين حق عليهم قول الله أنهم من أصحاب النار في أمم أمثالهم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس، سبقوهم إلى العذاب إنهم كانوا خاسرين، خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، والآية وإن قيل إن نزولها في أشخاص معينين ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهي تتناول بمدلولها كل من كان فيه هذه الصفات.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِنُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾.

ولكل من هؤلاء وهؤلاء مراتب ومنازل مما قدموا من أعمال، فالمؤمنون لهم درجاتهم في الجنة، والكافرون في دركاتهم في النار، قال تعالى: **﴿وَلِنُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾** أي ولنوفي كلا من هؤلاء وهؤلاء أعمالهم، أي جزاء أعمالهم الحسنة منها والسيئة جزاء وفاقا وهم لا يظلمون بزيادة سيئة واحدة ولا بنقص حسنة واحدة مما عملوا، فليثق المخلوقون بعدالة الخالق، إنه لا يظلمهم ولا يبخسهم شيئا من أعمالهم، إنما هي أعمالهم يحصيها لهم ويوفيهم جزاءها يوم الحساب.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: اذكر يا محمد وذكّر أمتك بيوم العرض، يوم يعرض الذين كفروا على نار جهنم عرض عذاب، ويقال لهم قول توبيخ: أذهبتهم طيباتكم في حياتكم الدنيا يوم كنتم فيها مترفين، واستمتعتم بها، وتمتعتم بملذاتكم وشهواتكم، فاليوم تجزون على كفركم وإجرامكم وإسرافكم في اتباع شهواتكم عذاب الهون، تهانون في العذاب جزاء على استكباركم على الحق في الدنيا وعلوكم في الأرض بغير الحق جزاء وفاقا، وبما كنتم تفسقون في الدنيا.

يا له من مشهد فظيع من مشاهد يوم القيامة، يعرض فيه المتكبرون معرض الذل والهوان، وهم يعاينون جهنم عين اليقين، ولا مفر لهم منها، ويقرعون بأفظع أنواع التقريع والتوبيخ وهم أذلاء مبلسون، لا ناصر لهم ولا شفيع، وفي المشهد عبرة للمعتبرين، وذكرى للذاكرين، وفي الآية إنذار للكافرين، وموعظة للمؤمنين.

وليس في الآية دلالة على تحريم الطيبات بل هي حلال لمن يتمتع بها ويشكر نعمة الله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٢)، وقال: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾ (المؤمنون: ٥١)، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾ (الأعراف: ٣٢)، فهي من نعم الله المباحة نتمتع بها ونشكر المنعم ونعمل صالحا، لكن المحذور هو نسيان شكر المنعم، والإقبال على متع الدنيا ونسيان الآخرة، والإسراف في الملذات، وعدم الوقوف عند حدود الحرام، ذلك صنيع المترفين الذين همهم التمتع في هذه الدنيا ولا يرجون لله وقارا، أولئك الذين يقال لهم:

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا...﴾ أما المؤمنون الشاكرون لربهم العاملون للآخرة فالطيبات حل لهم، وهي لهم يوم القيامة خالصة وسيجزي الله الشاكرين.

۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ
مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا
فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ
عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ
﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ
مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾
تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا تَرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ
نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ
وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ
وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ
أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ
بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

يذكر الله تبارك وتعالى في القرآن أخبار الأمم الماضية للاعتبار، فيذكر أمة من الأمم جاءها رسولها ينذرها ويعظها، ويدعوها إلى توحيد الله وعبادته، فمنهم من يؤمن وهم قليلون، وأكثرهم يكفرون، وينفرون ويكذبون برسل الله، ويؤذونهم فيصبر الرسول ويصابرهم حتى يأتي أمر الله، فينتصر الله لرسوله ولمن آمن به ويهلك الكافرين، فيقص الله خبرهم في القرآن ليتسلى المؤمنون وليحذر الكافرون، ومن أراد الله به خيرا فإنه يعتبر

ويزدجر ويقبل على الحق، ومن سبقت عليه كلمة الشقاء فإنه يتمادى في غيه حتى يأتيه العذاب، وهو ظالم فيندم ولا ينفعه الندم، وهنا يعرض خبر عاد قوم هود:

﴿وَاذْكُرَ اَخَا عَادٍ اذَ اَنذَرَ قَوْمَهُ بِالاَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

واذكر يا محمد، وذكّر قومك بخبر أخي عاد أنذر قومه بالأحقاف، وأخو عاد هو هود عليه السلام، وذُكرت عاد وهم قومه لإنذار قريش قوم النبي ﷺ وهم المقصودون بالإنذار؛ لأن حالهم في التكذيب برسل الله يشبه حال عاد قوم هود حين أنذرهم أخوهم هود، وجاء التعبير بالأخوة كما جاء في آي كثيرة لرسل عديدين؛ لأن الرسل لا ترسل في قوم إلا وهم من نسبهم وفي وسطهم، ويتكلمون بلسانهم، فهم إخوانهم بهذا الاعتبار، فإذا كانوا بهذه المرتبة وهم يعرفون أحوالهم وأخلاقهم وصدقهم وأمانتهم، فإنهم حينئذ يكونون حجة عليهم، كذلك كان سيدنا هود عليه السلام في قومه عاد.

والأحقاف هي الرمال العالية كالجبال المستطيلة، والاسم علم لبلاد عاد جنوب الجزيرة العربية، بين اليمن وعمان، وقد أصبحت منازلهم خرابا تنسج فيها الرياح كثبانا عظيمة من الرمال عبر القرون تلو القرون، هناك كان هود ينذر قومه عادا ويخوفهم بالله واليوم الآخر، وكانوا يكفرون برسالته وينفرون من وعظه.

﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾.

جاءت هذه الجملة المعترضة في الوسط لتفيد أن هناك رسلا سبقوا هودا عليه السلام، والقرون يراد بها الأمم خلت بين يدي هود، أي سبقته قريبا منه، ومن خلفه أي بعيدا عنه مثل نوح وإدريس عليهما السلام ومن بعده أيضا، وفي ذكر القرون الخالية إنذار للقرون اللاحقة أن يستقيموا وإلا فسيلقون مثل مصيرهم.

﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

أنْ هذه التي قبل لا والتي أدغمت فيها تفسيريه، أي أنذر هود قومه عاقبة الكفر، فقال لهم: لا تعبدوا الأصنام والطواغيت، ولا تتخذوها آلهة، لا تعبدوا إلا الله ربكم وخالقكم، إني أخاف عليكم إن تماديتم في هذا الشرك عذاب يوم عظيم، وصف اليوم بأنه عظيم لما يقع فيه من عذاب الله انتقاما منهم في الدنيا، ثم يتبعه عذاب عظيم في الآخرة، ويا ليت عادا اتعظوا بإنذار رسولهم واستمعوا له، ولكنهم كذبوه إلا قليلا منهم.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

قال قوم هود لأخيهم هود الذي أنذرهم: أجئتنا بهذا الأمر لتصرفنا عن آلهتنا وآلهة آبائنا! كلا لن نترك عبادتها فأتنا بهذا العذاب التي تخوفنا به وتنذر بوقوعه، ائت به إن كنت من الصادقين، فقد كذبوه وتحدوه بإتيان العذاب الموعود، فكان جوابه لهم:

﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

قال هود عليه السلام لقومه: إنما العلم بموعد إتيان العذاب ونوعه وكيفيته عند الله ربي وربكم، ولست ادعى علم العذاب، وإنما رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم ولكنني أراكم قوما تجهلون، أي تجهلون الحد بين الرسول والمرسل، وتجهلون حكمة إرسال الرسل، وليست مهمة الرسل إلا التبليغ فليس أمر العذاب ولا موعد الإتيان به بأيديهم، فاتقوا الله واحذروا سخطه وانتقامه.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ تَرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

ولسنا ندري كم هذه المدة التي طال فيها إنذار هود لقومه وتكرر حتى جاء وعد الله إياهم بالعذاب، وقد طويت هنا ورسمت الآية مشهد العذاب الفظيع آتيا، فلما رأوه

عارضا، أي رأوا عذاب الله على هيئة سحاب عارضا في الجو مستقبل أوديتهم فرحوا واستبشروا وظنوه رحمة ولكنه عذاب، قالوا هذا عارض ممطرنا، وكانوا قبل أصابهم قحط شديد ففرحوا برؤية السحاب العارض وظنوه مطرا مقبلا تسيل به أوديتهم فتسقي نخيلهم وأشجارهم وتخضر به مرابعهم ومراعيهم، قال تعالى:

﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ تَرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾.

ليس العارض سحاب مطر كما تظنون أيها المكذبون الضالون بل هو العذاب الذي استعجلتموه، ريح صرصر عاتية فيها عذاب أليم، تدمر كل شيء، تقتلع الأشجار والنخيل وتهدم البيوت، وتدعها أنقاضا، أما بنو آدم فكما قال الله تعالى: ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ (القمر: ٢٠)، أرسلها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما، فأصبحوا بعد أيام العذاب لا ترى إلا مساكنهم وقد تحولت إلى أنقاض وخراب، قال تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

أي كذلك الجزاء الفظيع نجزي القوم الكافرين المجرمين، وفي هذا إنذار لقريش الذين كذبوا بنبيهم وسلكوا في الكفر والإجرام سبيل عاد قوم هود، في هذا إنذار لهم أن يصيبهم مثل ما أصاب عادا قوم هود إن لم يرعووا عن غيهم ويثوبوا إلى الرشد، ثم توجه إليهم الخطاب فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِئَايَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

ولقد مكنا عادا فيما لم نمكن لكم، مكناهم في الأرض وقويناهم على عمارتها واستخراج كنوزها بما أعطيناهم من قوة الأجسام وطول الأعمار، وسلامة الحواس،

وأرسلنا السماء عليهم مدرارا، فكانوا بهذه النعم أشد تمكنا في الأرض منكم، وأكثر قوة وأغنى وأوفر عددا منكم، وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة، فكانوا يتمتعون بالقوى الظاهرة والباطنة وما نفعهم ذلك شيئا إذ كانوا يجحدون بآيات الله ويكذبون برسل الله، فلم ينتفعوا بأسماعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم، لم يستدلوا بها على وجود الخالق المنعم، بل جحدوا بآياته واستهزؤوا برسله.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

ونزل بهم وأحاط بهم ما كانوا يستهزئون به من عذاب الله، ولم تغن عنهم قواهم شيئا لما جاءهم أمر الله، وكذلك عاقبة كل جبار عنيد، فليعتبر قومك بهؤلاء القوم الذين كانوا أقوى منهم وأشد تمكنا، فما أغنت قوتهم ولا بأسهم لما جاءهم عذاب الله، فهو إنذار بليغ لقريش ومن بعدهم ممن كذب بآيات الله واستهزأ بوعيد الله، وفي القرآن يرد كثيرا مثل هذا الإنذار.

﴿وَلَقَدَ اَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

لا يزال الإنذار مستمرا في الكلام على الأمم الذين كذبوا برسل الله وجحدوا بآيات الله فأهلكهم الله ولم يغن عنهم ملكهم ولا تمكنهم في الأرض، ولقد كان حول قريش قرى في جنوب الجزيرة وشمالها، وفي مشارف الشام، كانت مدن يسكنها أقوام أهلكهم الله بأنواع من العذاب، وقريش تعرف أخبارها يتناقلونها أبا عن جد، وذكرها الله تبارك وتعالى في القرآن وصرف لهم الآيات تصريفا لعلهم يرجعون إلى أنفسهم، ويراجعوا الحق ولكن أكثرهم معرضون، وكانوا يستهزؤون بوعيد الله ويعبدون الطواغيت من دون الله، ولما جاءهم عذاب الله لم تغن عنهم آلهتهم التي يدعونها من دون الله.

﴿فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ــ الِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

جاءت هذه الآية لتقريع الكفار وتوبيخهم على اتخاذهم من دون الله آلهة يزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ــ الِهَةً﴾

فلولا أي فهلا نصرهم هؤلاء الذين عبدوهم من دون الله، ولولا هي للتحضيض ولكنها حين تسند للغائب تكون للتوبيخ والتقريع والتهكم، إنهم لم ينصروهم حين نزول العذاب في الدنيا، ولن ينصروهم حين يرون العذاب يوم القيامة بل يزيدونهم عذابا حين يلقون معهم في النار كما أخبرنا الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (الأنبياء:٩٨)، زعموا أنهم ينصرونهم ويشفعون لهم، ولكنهم عند نزول العذاب ضلوا عنهم ولم يدفعوا عنهم شيئا، قال تعالى:

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾.

ضلوا عنهم، أي ضل عنهم نفعهم وتلاشت مزاعمهم ولم يعد لوجودهم أثر البتة، فصار أمرهم في ضلال وتباب، فيالها من عبارة بليغة تدل على حالهم! تلك عاقبة أهل الشرك، قال تعالى:

﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾.

إنها فذلكة لما تقدم، أي فاتخاذهم الأصنام والطواغيت آلهة من دون الله ذلك إفكهم الذي ورثوه عن آبائهم، والإفك هو الكذب الكبير الذي لا حقيقة له، ذلك لأنهم اخترعوا عبادتها ولم ينزل الله بذلك سلطانا وليس لهم به علم، وزعموا أنها تقربهم إلى الله وذلك افتراء منهم، قال تعالى:

﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

أي وذلك ما كانوا يفترون، يخترعون من الكذب، فالإفك توارثوه عن أجدادهم، والافتراء طبعهم المتمكن فيهم، فكان دأبهم كلما سئلوا عن هذه الأصنام هل تنفع أو تضر؟ يقولون: وجدنا آباءنا لها عابدين، ويقولون إنهم شفعاؤنا عند الله، فأظهر الله

بطلان إفكهم وافترائهم حين لم تنصرهم ولم تشفع لهم عند نزول العذاب، فعبادتهم إذن باطلة والتعلق بها ضلال وخسران مبين.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

يذكر الله تبارك وتعالى في هذه الآيات الكريمة قصة استماع الجن للنبي ﷺ وهو يتلو القرآن، يذكرها باختصار ليشد أزر نبيه ويربط على قلبه بإيمان إخوانه الجن، فإذا كفر به بعض الإنس وهم قريش قومه فقد آمنت به الجن، والعجب أن يكفر قومه الذين يعرفونه ويعرفون نسبه وينذرهم بلسانهم ويؤمن به الجن الذين لا يمتون إليه بنسب، ولكنهم أدركوا الحق وعرفوه فآمنوا به، فأخبر الله نبيه بخبرهم فقال:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾.

واذكر يا محمد إذ صرفنا، أي حين صرفنا إليك نفرا من الجن، والنفر ما بين الثلاثة إلى عشرين، وقد يطلق على أكثر من ذلك، والجن طائفة من خلق الله، خلقوا من نار،

وهم مكلفون مثل الإنس، والإيمان بهم واجب، وقد سبق ذكرهم في هذه السورة حيث قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالانسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ فمن أنكر وجود الجن فقد كفر كُفر شرك؛ لأنه أنكر شيئا جاء به التصريح في القرآن الكريم، فريق من الجن ألهمهم الله فصرفهم إلى النبي ﷺ فاستمعوا إليه وهو يتلو كتاب الله القرآن، فلما حضروه قالوا أنصتوا، أي أمر بعضهم بعضا بالإنصات، وحسن الاستماع حتى لا يفوتهم منهم شيء، فلما قضى رسول الله التلاوة ولوا إلى قومهم منذرين، فقد آمنوا ثم رجعوا إلى قومهم دعاة مبشرين منذرين.

﴿قَالُوا يَاقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ يَاقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَآءُ اوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

قال المنذرون لإخوانهم الجن: يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى، أي كتابا أنزل من عند الله من بعد ما أنزل كتاب موسى، وهو التوراة، وهذا الكتاب جاء مصدقا لما سبقه من الكتب؛ لأن الكل من عند الله، هو يهدي من اتبعه إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

﴿يَاقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

قال المؤمنون من الجن لقومهم: يا قومنا أجيبوا داعي الله الذي هو رسول الله، وكتاب الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم، ويجركم، أي: ويحفظكم من عذاب أليم، من عذاب يوم القيامة.

﴿وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الاَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِــهِ أَولِيَآءُ اوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾.

قال بعض المفسرين: هذه الجملة من تمام كلام الجن، يقصه الله عليهم، وقال آخرون: هو من كلام الله، أي قول الله عز وجل، والظاهر أنه قول الجن المؤمنين، قالوا: ومن لا يجب داعي الله لكم فلا يُعجز الله، ولا يفلت من عذابه، لن يعجز الله هربا في الأرض، ولن يجد له من دون الله أولياء ينصرونه ويدفعون عنه أمر الله، أولئك في ضلال مبين، أي بعيد عن الرشاد، أو ضلال مبين، أي واضح لا لبس فيه، علم الجن بما علمهم الله أن الهدى والرشاد في اتباع كتاب الله، وأن الضلال البعيد في النفور عن الحق الذي دعت إليه رسل الله، فأنذروا قومهم ودعوهم إلى صراط الله المستقيم، وفي قصتهم إرشاد للمؤمنين من الجن والإنس أن ينتهجوا نهجهم في الدعوة إلى الله، فالخير كل الخير في الإيمان بالله وكتبه ورسله ودعوة الناس إلى الله، والويل للمكذبين الذين لا يجيبون داعي الله ولا يؤمنون به، أولئك في ضلال مبين.

وقد روي عن بعض المفسرين أن ثواب المحسنين من الجن هو النجاة من النار لا غير، وأن عقاب المسيئين منهم هو الخلود في النار مثل العصاة من بني آدم، والذي عليه الجمهور من أهل العلم أنهم مثل بني آدم، محسنهم في الجنة ومسيئهم في النار، وهذا هو الذي أرجحه، وهو مناسب لعدالة الله، فكيف يستقيم في عدالة الله وحكمته أن يسوي المحسنين من الجن بالبهائم فينقلبون ترابا، والخطاب في القرآن يعمهم جميعا، أي الإنس والجن ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالانسِ﴾ وهذا في غير موضع من كتاب الله، فالمحسنون منهم إخواننا نتولاهم وندعو لهم بالجنة.

﴿٣٢﴾ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى
النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ
بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ
الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا
إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾

هكذا تختتم السورة بمثل ما افتتحت به وهو تقرير البعث بعد الموت، وأن الله خالق السموات والأرض، ما خلقهما إلا بالحق وأجل مسمى، ففي بداية السورة تقرير ذكر يوم القيامة وموعد الحشر، وهنا يقرر عقيدة إحياء الله الموتى وعرض الكفار على النار، واعترافهم بالحق، وقد كانوا عما أنذروا معرضين، قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا انَّ اللَّهَ الذي خَلَقَ السَّمَاوَات وَالاَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾.

أولم ير هؤلاء الكفار المنكرون للبعث، أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن ولم يعجز ولم يمسه تعب ولا لغوب، أليس خالقهن بقادر على أن يحيي الموتى، بلى إنه قادر على إحيائهم بعد الفناء، وهو على كل شيء قدير.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

ثم إن الله تبارك وتعالى يعرض علينا مشهدا فظيعا من مشاهد يوم القيامة، وذلك يوم يعرض الذين كفروا على النار، ويقال لهم: أليس هذا بالحق! وقد كانوا ينكرون الوعيد وهاهم اليوم يشهدونها وهم على وشك التردي فيها، فيقولون: بلى وربنا،

فيعترفون ويحلفون، فيقال لهم: ذوقوا العذاب الذي كنتم تنكرونه، أصلوا فيه جزاء على ما كنتم تكفرون، وكذلك يكون جزاء كل من كذب بالنذر، فالوعيد موجه لقريش ومن معهم من الكفار، ومن بعدهم من المكذبين إلى يوم القيامة.

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: فإذا كان الأمر كما عرفت، وكان إنكارهم مكابرة واستخفافا بالوعيد فاصبر لأمر ربك كما صبر أولوا العزم من الرسل، قال بعض المفسرين: "مِن" هذه تبعيضية فيكون أولوا العزم بعض الرسل لا كلهم كما جاء في شرح عقيدة العزابة:

أولوا العزم نوح والخليل كلاهما　　　وموسى وعيسى والنبي محمد

وقال آخرون: "من" بيانية فيكون أولوا العزم كل الرسل، ولعل هذا الوجه يكون أرجح؛ لأن كل رسل الله صبروا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله، وقد أمر النبي ﷺ بالاقتداء بهم، وقد كانوا في صبرهم على مراتب، والعزم هو القوة والشدة في تحمل المصائب والنكبات.

﴿وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي ولا تطلب تعجيل العذاب لهم، فإن لهم أجلا مسمى، وأنهم لن يعجزا الله.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾.

العذاب آت قريب كأنهم يوم يرونه لم يلبثوا في نعيمهم إلا ساعة، أي جزءا صغيرا من نهار، وقد ذهب كل شيء وتلاشى، وتضاءلت أوقات النعيم المدبر في جنب العذاب المقبل الدائم.

﴿بَلاَغٌ﴾ كلمة موجزة تفيد معنى قويا، والبلاغ إعلام يصدر من السلطان الذي بيده الحكم عادة، والتقدير هنا: هذا بلاغ من الله فما عليك إلا أن تبلغهم وليس عليك هداهم بل إلى الله إيابهم ثم إن عليه وحده حسابهم.

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

استفهام أريد به النفي، أي فلا يهلك إلا القوم الفاسقون، إن الله يقيم العذر لنفسه ويبرئ أحكامه من الظلم، بل يعامل عباده بالعدل المطلق، فلا يعذب إلا بعدله، ولا يرحم من يرحم إلا بفضله، فهل يهلك إلا القوم الذين كفروا وفسقوا عن أمر الله فاستحقوا بفسقهم الهلاك، فليحذر الفاسقون سوء العواقب، وليعتبر المعتبرون، وهذه الآية عظيمة يختم الله بها هذه السورة الكريمة، وفيها خلاصة ما سبق من النذارة، وهي آية تؤمّن العباد من الظلم وتخيفهم عاقبة الفسق، وتقرر في نفوسهم الإيمان باليوم الحق، وتقطع أطماع ذوي الفسق، وهي موعظة بليغة لذوي الألباب، جعلنا الله من الذين ينتفعون بالذكرى، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة محمد مدنية وآياتها ٣٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ
عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟
ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ
لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ
أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ
أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ
وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ
بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾

السورة مدنية سميت سورة "محمد" لذكر محمد ﷺ في مقدمتها، في الآية الثانية منها، وتسمى أيضا سورة القتال لتحريض المؤمنين فيها على قتال الكفار، وتسمى سورة الذين كفروا لافتتاحها بذكرهم، ومعظم ما في هذه السورة التحريض على قتال الكفار المشركين الصادين عن سبيل الله، وترغيب المسلمين في الثواب على قتالهم ووعدهم

بالجنة، وفيها ذكر أوصاف الجنة التي وعد بها المؤمنون، وذكر أوصاف النار التي وعد بها الكافرون، وفيها ذكر المنافقين وتهديدهم بأن الله سيفضحهم ويطلع رسوله على أوصافهم، وفيها تحذير المسلمين من فتنتهم، ووعد المؤمنين بالنَّصْر والتّمكين، وتحذيرهم إذا مكّنوا في الأرض من الفسادِ والظلم والقطيعة، وفيها الدعوة إلى طاعة الله ورسوله واتباع كل ما أنزل على رسوله.

﴿الذينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَالذينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الذينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الذينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾.

الآية شديدة المناسبة بالتي قبلها، في خاتمة سورة الأحقاف، ففي الأولى وعيد وإنذار للكفار المكذبين، وفي هذه بيان عقوبة الكفار ومثوبة المؤمنين، وبيان الفرق الفارق بينهم، يقول الله تبارك وتعالى: الذين كفروا، أي بما نزل على محمد، وصدوا عن سبيل الله، أعرضوا عن سبيل الله ومنعوا الناس من الإيمان، كانوا يصدونهم عن سبيل الله بكل وسيلة فظلموا بذلك مرتين فأضل الله أعمالهم، أي جعل أعمالهم في ضلال في الدنيا وفي الآخرة، فهم ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون، وكذلك يقومون بأعمال هي من البر كصلة الأرحام وإكرام الضيف والنجدة ونصرة المظلوم، وحماية الجار، والإحسان إلى الفقراء، ولكنها لا تقبل منهم لإشراكهم بالله وتكذيبهم الرسل، فيجعلها الله هباء منثورا، ولا ينفع مع الشرك عمل خير، فالإيمان شرط في قبول الأعمال، قال الله تعالى:

﴿وَالذينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

قرن الله الإيمان بالعمل الصالح، لأن أحدهما وحده لا ينفع دون الآخر، فلابد باقترانهما، والحق أن إيمان المؤمن لا يكتمل إلا بالعمل الصالح، والعمل الصالح هو إتيان الفرائض واجتناب النواهي ثم التقرب إلى الله بالسنن والنوافل، وفعل الخير، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم، وهذا تعريض بالكفار لأنهم كفروا بما نزل على محمد ﷺ.

وقد مدح الله المؤمنين بأنهم آمنوا بما نزل على محمد، ووعدهم بتكفير السيئات وإصلاح البال، فقال: كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم، أي تجاوز عن خطاياهم ولم يحاسبهم بها، غفر لهم الصغائر، ووفقهم إلى التوبة فتابوا من ذنوبهم فغفرها لهم وأصلح بالهم، والبال هو العقل والضمير، أصلح الله ضمائرهم ونوّر بصائرهم وأصلح عقولهم فهم لا يفكرون إلا في خير وهم بقلوبهم المؤمنة يعقلون وينظرون فيما يرضي الله عليهم ويصلح به عواقبهم، ومن إصلاح البال أن يجعل قلوبهم مطمئنة بذكر الله، خالية من الهواجس والوساوس.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الذينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الذينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾.

ذلك، الإشارة إلى ما تقدم من الجزاءين المتباينين، جزاء الكفار الذي هو إضلال الأعمال، وجزاء المؤمنين الذي هو تكفير السيئات وإصلاح البال، ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل فاستحقوا العقاب، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم فاستحقوا الجزاء الحسن، فالحق هو الأمر الثابت والأمر العادل، أما الباطل فهو الأمر الزاهق المتلاشي، والأمر الزور والظلم وهو ضد الحق، والآية تفيد أن الناس فريقان متباينان، فريق قبل الحق واتبعه وهو المؤمنون، وفريق أنكر الحق ومال إلى الباطل واتبعه وهم الكافرون فنال كل منهما جزاءه باستحقاق.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾.

الأمثال جمع مثل، والمثل كلمة حكيمة وجيزة لها مدلول واسع، وضرب الأمثال وضعها في مواضعها من الكلام، كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ليعتبر بها المعتبرون، وما يعقلها إلا العاملون، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾.

في الآية تحريض على قتال الكفار المشركين وإرشادهم كيف يعاملون أسرى الحرب، وبيان حكمة ابتلاء المؤمنين بالقتال، وتبشير الله المؤمنين بعظيم منزلتهم عند ربهم، وبما أعد لهم من ثواب عظيم، ورزق كريم في جنات النعيم، يقول الله تعالى:

﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾.

فإذا لقيتم الذين كفروا بالله ورسوله واليوم الآخر، أي لقيتموهم لقاء حرب في ميدان القتال فاضربوا رقابهم بسيوفكم ضربا أو اطعنوهم برماحكم وارشقوهم بنبالكم حتى إذا اثختنموهم، أي أكثرتم فيهم القتل وتغلبتم عليهم فشدوا الوثاق، وذلك بإحكام رباطهم بالحبال وتوثيقهم بالأسار، ولا يكون الأسر إلا بعد الإثخان، لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ (الأنفال: ٦٧)، ثم قال تعالى:

﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾.

أي بعد الإثخان وشد الوثاق على الأسرى فأنتم حينئذ بالخيار، فإمّا منا بعد أي تمنون عليهم بإطلاق سراحهم حتى تمكنتم من رقابهم والعفو عند المقدرة، وإما فداء،

أي تفادونهم على مبالغ من المال أو بإطلاق أسرى المسلمين من أيديهم وذلك بتبادل الأسرى.

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾.

ما أبلغه من تعبير صالح لكل زمان، وهو كناية عن انتهاء المعركة، والأوزار هي الأثقال، ولابد للحرب في كل عصر ومصر من أوزار، منها العتاد والأسلحة والدروع، وأوزار اليوم أعظم وهي المدافع والقنابل والطائرات والصواريخ، والمؤن وسائر الأجهزة التي لا غنى للمحاربين عنها، فإذا انتهت الحرب وضعت هذه الأوزار في مواضعها ووضع الجند أسلحتهم ودروعهم وأي شيء أثقل من الحديد! نعم حتى تضع الحرب أوزارها، يا لها من عبارة موجزة دالة على المقصود أوضح دلالة وأبلغها، ثم قال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾.

ذلك أمر الله وحكمه، ولو يشاء الله لنصركم عليهم بدون حرب، وانتقم منهم وهو القدير على ذلك، ولكن حكمته اقتضت أن يبلو بعضكم ببعض، يبتليكم بهم حتى تنالوا الدرجات في الجنة بالصبر على قتالهم والمصابرة لهم، ويتخذ الله منكم شهداء ويبتليهم بكم فيعذبهم في الدنيا بأيديكم وينصركم عليهم ويعذبهم يوم القيامة في النار جزاء على إيذائهم لكم، وقتالهم إياكم، وكفرهم بالله ورسوله، وكتابه واليوم الآخر، تلك حكمة الله يبينها لعباده المؤمنين حتى لا يضيقوا ذرعا بأذى الكفار وليصبروا على قتالهم فينالوا الحسنيين، النصر والغنائم في الدنيا، والتمكين في الأرض والشهادة في الآخرة، والأجر العظيم لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

﴿وَالذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾.

والذين قاتلوا في سبيل إعلاء كلمة الله ونصر دينه لا غرض لهم إلا ذلك فلن يضل الله أعمالهم بل سيلقون ثوابها، سيهديهم في الدنيا الصراط المستقيم، ويصلح قلوبهم

يعمرها بالإيمان ويملؤها بالطمأنينة والثقة في الله وينير بصائرهم ويدخلهم الجنة يوم القيامة عرفها لهم في كتابه الكريم بأوصافها تعريفا فاشتاقوا إليها فبذلوا أرواحهم الغالية في سبيلها، وسيعرفها لهم يوم القيامة إذا دخلوها فيعرف كل منهم منزله كما يعرف داره في الدنيا، وقد جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى لداره في الجنة منه لداره في الدنيا»، ويقال: إن الله عز وجل يقرن بهم الملائكة البررة الكاتبين لأعمالهم، يرافقونهم إلى منازلهم في الجنة، ولا مانع أن يكون ذلك مع معرفتهم بها إكراما لهم، وقد ورد عن بعض المفسرين معنى آخر للتعريف، وهو التطييب، أي يدخلهم الجنة، وقد عرّفها بأنواع من الطيوب، وهو معنى طريف، والوجوه لا تتزاحم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا
لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ
أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ
عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ
وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ
ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ
مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾

بعدما تقدم من بيان حكمة مشروعية القتال، وأن الله تعالى لو شاء لانتصر من أعدائه بدون قتال، أمر الله المؤمنين وحرضهم على نصر الله ووعدهم على ذلك أن ينصرهم ويثبت أقدامهم، وجعل شرط نصره لهم نصرَهم إياه، ولكل شرط جزاء، ولن يخلف الله وعده فقال تعالى:

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتَ أَقْدَامَكُمْ﴾.

نداء من الله تبارك وتعالى للمؤمنين باسم الإيمان إشعارا لهم بأن إيمانهم لا يتم إلا بنصر الله، "إن تنصروا الله"، وذلك بنصر دينه ورسوله وكتابه، إن تنصروا الله ينصركم، إن تبذلوا في سبيل نصر دين الله أنفسكم وأموالكم وتجاهدوا في سبيله لإعلاء كلمة الله ينصركم ولو كنتم أذلة كيوم بدر، ويثبت أقدامكم على صراطه السوي، وليس تثبيت الأقدام هنا مقصورا على حالة القتال إذ لو كان كذلك لقدّم التثبيت على النصر في التعبير، ولكنه لما أخّر على النصر دل على العموم، وتثبيت الأقدام هو التثبيت على دين الله، والتمكين في الأرض؛ لأن تثبيت الأقدام رمز القوة في الحق، ومن ثبّت الله قدميه مشى سويا على صراط مستقيم بعيدا عن كل المزالق والمهالك، ومن نصره الله لا يضل ولا يشقى، ومن كان الله ناصره لا يخيب.

﴿وَالذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

وفي مقابل وصف منزلة المؤمنين عند ربهم يأتي حالة الكافرين، وهي على العكس والعياذ بالله، يقول الله تبارك وتعالى: والذين كفروا، أي بالله ورسوله واليوم الآخر فتعسا لهم، دعاء عليهم بالشقاء والهلاك والسقوط، والدعاء إذا كان من الله فهو لابد واقع ولا راد لأمر الله، وما أروع المقابلة بين الحالتين، حالة المؤمنين الذين ينصرهم الله ويثبت أقدامهم، وحالة الكافين التّعسين الأشقياء الهالكين.

﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

ذلك لأن الكفار يقومون ببعض الأعمال الخيرية، ويرجون نفعها في الدنيا؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، ولكن الله تبارك وتعالى يبطلها ويجعلها في ضلال، فلا ينالهم نفعها لا في الدنيا ولا في الآخرة، ثم إن الله عز وجل يبين سبب ذلك فيقول:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

ذلك المصير المشؤوم بأنهم، أي بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله من الهدى ودين الحق، وأحبوا الباطل واتبعوه فأحبط الله أعمالهم، أي أبطلها وجعلها هباء منثورا، ويا لتعاسة من يعمل ثم لا يجد ثواب عمله، وما هذا إلا لكفرهم وإنكارهم الحق، وكراهيتهم له، فلنحذر كراهية الحق فإنها محبطة للأعمال، مبطلة لثوابها، وما أنزل الله على أنبيائه ورسله وفي كتبه كله حق، نؤمن به ونحبه ونتبع شريعة نبينا محمد ﷺ وعليهم أجمعين.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّـرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

الكلام موجه أولا إلى الذين كفروا وهو إنذار لهم وتخويف، ثم هو تحريض عام للناس على السير في الأرض والنظر والاعتبار، أفلم يسيروا في مناكب الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم من الأمم، كفروا بأنبياء الله ورسله وعصوا رسل

الله فانتقم الله منهم، فدمر عليهم بيوتهم، وخرت عليهم سقوفها من فوقهم، والتدمير هو الهلاك المبيد الذي لا يُبقي ولا يذر، كذلك كانت عاقبة قوم نوح وثمود، وقوم إبراهيم وقوم لوط، وأصحاب مدين والموتفكات، وكذلك فعل الله بأصحاب الفيل قريبا، وقد رأوا تدميرهم بأعينهم، أفلم يعتبروا بإهلاكهم ويخافوا مثل عاقبتهم!

﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: وللكافرين في كل زمان ومكان أمثالها، أي أمثال تلك القوارع، وهذا إنذار للكفار قوم النبي ﷺ.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

المولى هنا هو الناصر والمعين والحافظ، وقد يرد بمعنى المالك الذي بيده الأمر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (الأنعام: ٦٢)، وهنا يقول الله تعالى: ذلك، أي ما قصصنا عليك من تدمير الكافرين، وإنجاء المؤمنين ونصرهم، ذلك لأن الله مولى الذين آمنوا، والباء هنا سببية، أي بسبب أن الله مولى الذين آمنوا وناصرهم، وأن الكافرين لا مولى لهم؛ لأنهم حاربوا الله ورسله فلا مطمع لهم في ولاية الله، فتعسا لهم وسحقا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ وَالذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَاكُلُونَ كَمَا تَاكُلُ الاَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

يذكرنا الله تبارك وتعالى في هاتين الآيتين بمصير كل من الفريقين: المؤمنين والكافرين، وذلك لكي نتعظ ونعتبر، وليختار أولوا الألباب سلوك الطريق الذي يؤدي إلى أسلم العواقب، يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ﴾.

بدأ بفريق المؤمنين لشرفهم ولأنهم في ولاية الله، وذكرهم بوصفين لازمين لهم وهما الإيمان والعمل الصالح، الإيمان بالله ورسوله وكتابه واليوم الآخر إيمانا راسخا في قلوبهم، والعمل الصالح بجوارحهم، وذلك باتباع الرسول والعمل بما في كتاب ربهم، وأسند الإدخال إلى هذين الوصفين لأنهما اللذان استحقا بهما هذه الكرامة، إن الله يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، إنها لمتعة عظيمة أن يكون مسكن الواحد منا قصر في وسط جنات ذوات أفنان، وزهور وثمار تجري من تحتها أنهار لا تنقطع، فهي دائمة الغضارة والنضارة، متنوعة الثمرات، هذا ما يحرص عليه الملوك والأغنياء في الدنيا الفانية، جعله الله لعباده المؤمنين في دار البقاء والخلود، إنها لمتعة عظيمة يرغب فيها العقلاء ويستعذبون في سبيلها العذاب، ولا يبالون بالبلاء فهم صابرون، والتعبير بالجنات والأنهار يغني عن ذكر ما فيها من السرور والرفاهية والنعيم، كما أن التعبير بالنار في مصير الكفار يغني عن ذكر ما هنالك من الحسرات والعذاب الأليم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

بينما المؤمنون في الدنيا همهم الله ورسوله، وأمر آخرتهم وما يتزودون من هذه الدار الفانية لتلك الدار الباقية ترى الكافرين بالله واليوم الآخر همهم بطونهم وفروجهم وأمر دنياهم، فهم يتمتعون بلذائذها المحرمة ويأكلون أطايبها بِنَهَمٍ كما تأكل الأنعام، لا يشكرون المنعم ولا يتقيدون بالحلال فالنار مثوى لهم، هي مستقرهم الدائم الذي ينتظرهم، فإذا صاروا إليها وذاقوا عذابها لم ينفعهم ما كانوا يتمتعون به في الدنيا كما أن المؤمنين إذا صاروا إلى الجنات والأنهار لم يضرهم ما كان مسهم في الدنيا من البلاء، فما أروعها من مقابلة بين المصرين، تدعو العقلاء للاتعاظ والاعتبار، وما يذّكر إلا أولوا الألباب، ثم إن الأخذ من طيبات الرزق في هذه الحياة ليس محرما على المؤمنين بل مُباح لهم، وإنما أمروا بشكر المنعم والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن

طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٢)، ونعمت مطية المؤمن إلى الجنة الصبر والشكر!

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

لا يزال الله تبارك وتعالى يصرف الكلام ويضرب الأمثال في هذه السورة لإنذار الكفار بسوء العواقب لعلهم يعتبرون فينزجرون عن غيهم، وكأن هذه للتكثير بمعنى كم، أي ما أكثر القرى التي أهلكناهم بما ظلموا، والمقصود بالقرى أهلها بدليل قوله: ﴿فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ﴾

يقول الله تعالى: وكأين، أي وكم من قرية أهلها أشد قوة وأطول أعمارا وأكثر عددا من قريتك التي أخرجك أهلها، أهلكهم الله ولم تغن عنهم كثرتهم ولا قوتهم، فليس لهم من دون الله ولي ولا نصير، أفلا يخاف قومك الذين يؤذونك ويمكرون بك أن يصيروا إلى مثل ما صار إليه من سبقهم من الظالمين، إنه لا فضل لكافر على كافر، والكفر ملة واحدة، وإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم، وإنهم لن يفلتوا من عذاب الله، ولن يعجزوه في الأرض ولن يعجزوه هربا، ويوم يأتيهم العذاب لا أحد ينصرهم ويرد عنهم أمر الله أو يؤخره، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، أفلا يعتبرون! وقد رأت قريش بأعينها، وسمعت بآذانها أخبار وآثار الهلاك في الأمم التي حولهم دمرها الله فلا تزال خاوية بما ظلموا وهم يمرون على منازل عاد وثمود ومدين وقوم لوط، ويسمعون الأخبار، والعجب أنهم سادرون في غيهم ولا يعتبرون.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾.

في هذه الآية الكريمة يضرب الله لنا مثلا آخر فيه مناظرة بين فريقين متضادين، وتأتي المناظرة في صيغة الاستفهام الإنكاري، وذلك لتحريك مشاعر العقلاء لينظروا ويناظروا

بين الفريقين فيحكمون بأنفسهم بالحق حكما صادقا ليس فيه حيف ولا ظلم ولا ميل إلى هوى، أتبلغ الغفلة والجهالة بالعاقل إلى حد يسوي فيه بين أهل الهدى وأهل الضلال! أفيكون السائر في النور على بصيرة من ربه كالسائر في الضلال، المتبع لهواه وهو يراه حسنا! عجبا بمن يصل إلى هذا الحد من العمى والخطأ في الحكم! أفمن كان على بينة من ربه، أي على هدى وبرهان من الله فهو مهتد في سيره، يجتهد في الأعمال الصالحات ويبتعد عن المعاصي المهلكات، ويخالف هواه، أفيكون هذا كمن زين له الشيطان سوء عمله فرآه حسنا واتبع هواه بغير هدى من الله!

إن كثيرا من الناس يرتكبون الفواحش والموبقات، ويضيعون الفرائض، ويبغون في الأرض بغير الحق، وإن نهيتهم أو نصحتهم سخروا من الناصحين، وسفهوا عقولهم ونسبوهم إلى الضلال، ونسبوا أفعالهم القبيحة إلى الرشاد، كما قال تعالى في مثل هؤلاء: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الارْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١١- ١٢)، وقال في حق فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الارْضِ الْفَسَادَ﴾ (غافر: ٢٦).

وفي الآية نكتة من نكت البلاغة الرائعة وهي طريقة اللف والنشر المحبوكين، فقد دل قوله في الفريق الأول على بينة من ربه، وعلى كون الفريق الثاني في ضلال وأنه مذموم، ودل قوله: كمن زين له سوء عمله على أن الفريق الأول أعمالهم صالحة، وأنهم محمودون على ذلك كما جاء التعبير بعلى لتمكن الفريق الأول من الهداية؛ لأن الاستعلاء يفيد التمكن فهم على هدى من ربهم، سائرون على نور جاءهم من خالقهم وهاديهم وهم له عابدون، لا يضرهم سخرية سفهاء الناس بهم ولا استهزاؤهم ما دام لهم عليهم من الله ظهير.

مَّثَلُ الْجَنَّةِ
الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ
يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى
وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ
وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ
حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ
اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ
إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ
ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾

يعرض علينا في محكم أمثاله المضروبة مشهدين من مشاهد الحياة الآخرة فيهما موعظة وذكرى لأولي الألباب، مشهد المؤمنين في نعيم الجنة، وقد أنعم الله عليهم ربهم ما وعدهم، وغفر لهم ورضي عنهم، ومشهد الكافرين الخالدين في النار يذوقون فيها أنواع العذاب جزاء إعراضهم عن النذر، يقول الله تعالى:

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ التِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾.

المثل هو الوصف العجيب البالغ القمة من وضوح المعنى وصدق التعبير، وهنا يصف الله الجنة التي وعد المتقون من عباده، وهو لا ريب موفيهم وعده يوم القيامة، ويجعلها مثواهم، يصفها في أبهى مناظرها ولذاتها وهم فيها منعمون، مغفور لهم غير مؤاخذين ولا معاتبين على ذنوبهم التي ارتكبوها في الدنيا وقد تابوا منها وأحسنوا والله لا يضيع أجر المحسنين، يقول تعالى:

فيها أنهار من ماء غير آسن، والنهر هو البحر الجاري في أخدود عظيم، وفي الجنة أنهار كثيرة لا نهر واحد، ماؤها عذب طيب نظيف غير آسن، والماء الآسن هو الذي يتغير ريحه بطول المكث والركود، وقد ينقلب ماء الدنيا أذى للشارب إذا طال مكثه وأسن، أما ماء الجنة فهو غير آسن.

وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وفي الجنة أنها من لبن لا يتغير طعمه كما يتغير لبن الدنيا إذا وضع من وقت لآخر، أما لبن الجنة فهو طري دائما لا يتغير ولا يختمر ولا تعروه حموضة.

وأنهار من خمر لذة للشاربين، وفي الجنة أنهار من خمر لذيذ شرابها لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون، وليست كخمر الدنيا لا تلذ للشارب، ولولا ما يرجو من نشوتها ما شربها، أما خمر الجنة فهي لذة للشاربين.

وفي الجنة أنهار من عسل مصفى، ليس كعسل الدنيا الذي ربما يختلط به بقايا الشمع أو ربما بعض أجسام النحل الذي يسقط فيه؛ لأن عسل الدنيا من قيء ذباب النحل، أما عسل الجنة فهو مصفى خلقه الله هكذا عسلا وأجراه فيها أنهارا، ثم قال تعالى:

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

بعد أن ذكر أنواع الأشربة المبرأة من عيوب أشربة الدنيا فهي لا تشبهها إلا في الأسماء أضاف إلى ذلك ذكر أنواع المطعومات من الفواكه اللذيذة الكثيرة المتنوعة، فقال: ولهم فيها، أي للمتقين في الجنة من كل الثمرات رزقا لهم متوفرا لا ينقطع، ولهم مغفرة من

ربهم، فهو راض عنهم متجاوز عن ذنوبهم لا يذكرها لهم، ورضوان الله أكبر، وذلك هو تمام النعمة والنعيم، إذ لو كانت ذنوبهم تذكر لهم لنغصت لهم من نعيمها، فهو امتنان عظيم من ربهم الذي هداهم وغفر لهم سيئاتهم، وتقبل منهم أحسن ما عملوا واستجاب لهم، وتلك هي عاقبة المتقين عند ربهم، ففي الآية دعوة إلى التقوى وتنويه بالمتقين، ثم يذكر الله الطرف الثاني وهم أهل الشقوى ليظهر البون الشاسع بين الفريقين للمعتبرين، وشتان بين الطرف الأول والطرف المقابل فيقول:

﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾.

وهذه المناظرة يرجع معناها إلى ما سبق من قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أي أفيكون مصير أهل الجنة كمصير أهل النار! كمن هو صالي النار مخلد فيها أبدا! كلا إنهم لا يستوون، أصحاب الجنة سقاهم ربهم شرابا طهورا من ماء ولبن وخمر وعسل مصفى، وأصحاب النار سقاهم الزبانية ماء حميما يغلي كالمهل يشوي الوجوه ويقطّع الأمعاء، بئس الشراب وساءت مرتفقا، وفي الآية طريقة الاحتباك فقد وصف أهل الجنة بالتقوى واكتفى بذلك عن ذكر أوصاف أهل النار، ولا شك أنها ضد التقوى وهي الكفر والفسق والفجور، واكتفى بذكر مغفرة الرب لأهل النار عن ذكر مقابل ذلك في حق أهل النار، ولا شك أن الرب ساخط عليهم كما ذكر الخلود لأهل النار، واكتفى بذكره عن ذكر الخلود في حق أهل الجنة ولا شك أنهم فيها خالدون.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَّسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَآءَهُمْ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾.

بعد الكلام على الكافرين الذين أظهروا الكفر يأتي الكلام في هذه الآية على الكافرين الذين أظهروا الإيمان وأسروا الكفر، وهم المنافقون، وهم العنصر الذي ظهر

بعد الهجرة في المدينة حيث كانت الغلبة للإيمان فلا يستطيع المنافقون إظهار كفرهم ولكنهم يعرفون بلحن القول، والقرآن يفضحهم من حين لآخر، وقد كثرت فضائحهم في سورة التوبة، أما هنا فتذكر الآية الكريمة صفة من صفاتهم وهي السخرية والاستهزاء بكلام النبي ﷺ، وهذا النوع من النفاق يوجد في كل زمان ومكان تعلو فيه كلمة الإسلام وتكون الغلبة للمسلمين، يقول الله تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَّسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾.

ومن هؤلاء المنافقين من يجلس يستمع إليك القرآن وغيره كأنه مهتم بما تقوله ولكنه على خلاف ذلك مستهزئ بك في ضميره، ولذا فهو لا يعيه ولا يحفظه كما يعيه المؤمنين الذين شرح الله صدورهم للإسلام، فإذا خرجوا من عندك قال هؤلاء المنافقون الذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا، آي من قبل في وقت قريب، وهذا منهم تظاهر بعدم الفهم لما قيل، كأنه غير واضح أو كأنهم المقصودون بالكلام فهم يستفسرون عن ذلك هل فهم المؤمنون أنهم المقصودون، وهذا منهم استنكار لما قيل واستخفاف به فهم لم يعقلوه ولم يحفظوه أو لم يفهموه، وهو عين الحكمة والسداد، ولذا وصف الله المؤمنين الذين عقلوه ووعوه بالعلم فقال:

﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾.

فهم حقا أوتوا العلم والحكمة باستماع كلام النبي ﷺ ووعيه، فهم أتوا العلم والحكمة باستماع كلام النبي ﷺ ووعيه، فقد ازدادوا به هدى وأتوا تقواهم، أما المنافقون فقد وصفهم الله بقوله:

﴿أُوْلَٰئِكَ الذينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَآءَهُمْ﴾.

الطبع هو الختم والإغلاق، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم فلا يخلص إليها العلم، وذلك بسبب اتباعهم أهواءهم، فهم باتباع الهوى حرموا أنفسهم من الهدى

والحكمة، وكذلك يقف الهوى حاجزا دون إدراك الحق، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

﴿وَالذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْواهُمْ﴾.

للمقابلة بين الفريقين تأتي هذه الجملة المعترضة في سياق وصف أهل الكفر والنفاق، يقول الله تعالى: والذين اهتدوا ووعوا ما سمعوه منك زادهم الله به هدى إلى هداهم وآتاهم تقواهم، وقوى روح التقوى في قلوبهم، فالقول واحد ولكن أثره في القلوب يختلف باختلاف القلوب، فأما المنافقون فزادهم رجسا إلى رجسهم، وأما المؤمنون المخلصون فزادهم إيمانا وهدى، ومكّن التقوى في قلوبهم، وفي هذا العرض للحالين موعظة وذكرى للمؤمنين وإنذار للمنافقين، ومن أراد الله به منهم خيرا فإنه يتعظ ويرعوي عن غيه ونفاقه.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَاتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ اشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمُ، إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾.

فهل ينتظر هؤلاء المكذبون المستهزئون إلا إتيان الساعة، فالساعة قريب قد جاء أشراطها، أي أماراتها وعلاماتها، ومبعث النبي ﷺ وهو نبي آخر الزمان من أشراط الساعة، ثم يتتابع إتيانها بعده، فهي آتية وشيكة، تأتي بغتة وما هي إلا كلمح البصر أو هي أقرب، وكل آت قريب، هذا لقيام الساعة الكبرى، أما ساعة كل أحد فحضور أجله، وله أشراط من الضعف والشيب والمرض وسائر العاهات والآفات، ويوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا.

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمُ، إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾.

أنى، أي كيف لهم، والاستفهام للنفي والإنكار، أي إذا جاءت الساعة فلا ينفع أحدا ذكراه، حتى ولو تذكر وآمن لا ينفعه إيمانه.

﴿فَاعْلَمَ اَنــَّهُ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾.

يتوجه الخطاب إلى الرسول ثم إلى كل مؤمن بالعلم ثم بالعمل، والعلم مقدم على العمل، والخطاب بالنسبة للنبي ﷺ هو أن يستمر على علمه لأنه لم يكن جاهلا قبل الخطاب، أي فدم على علمك أنه لا إله إلا الله وأثبت على ذلك واعمل بمقتضى علمك لا تعبد إلا الله، ولا تخف ولا ترج ولا تدع إلا الله، واستغفر الله لذنبك، والذنب بالنسبة إلى النبي ﷺ هو الغفلة أو مخالفة الأولى؛ لأن النبي ﷺ معصوم عن الذنوب التي هي المعاصي، وأُمِرَ النبي كذلك أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، أي لذنوبهم، وكذلك من بعده من المؤمنين أُمروا أن يستغفروا لذنوبهم وللمؤمنين والمؤمنات، ثم قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾.

والله يعلم تقلباتكم وتحركاتكم في هذه الحياة الدنيا، ويعلم مثوى كل منكم يوم القيامة، أي المصير الذي يصير إليه، وقد يراد أيضا تقلباتنا في أعمالنا وأسفارنا ومثوانا، أي حيث نستقر في الليل أو نستقر بعد تنقلاتنا وأسفارنا، والمعاني في مثل هذا لا تتزاحم، فأينما توجه أحدنا إلا ويعلم الله وجهته، وأينما سكن واستقر إلا ويعلم الله مثواه ومستقره، والله يعلم ما نعمل في هذه الدنيا، ويعلم مصائرنا يوم القيامة، وهو العليم الخبير، نسأله أن يهدينا لخير ما يعلم، ويصرف عنا شر ما يعلم، ويغفر لنا ما يعلم.

*وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ
مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم
مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ
لَهُمۡ ٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ
ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ٢١ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ
ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ٢٣ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ
أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم
مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ
وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ
مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ
٢٦ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ
وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ٢٧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ
ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٢٨ أَمۡ حَسِبَ
ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ٢٩

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ
الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ
مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ
الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ ؛

يقص الله تبارك وتعالى علينا من نبأ المؤمنين لنقتدي بهم، ومن نبأ المنافقين والذين في قلوبهم مرض، ويحذرنا من طبائعهم ويفضحهم في آيات متعددة من هذه السورة حتى نعرفهم ونتقي أعمالهم وأخلاقهم، ونَحذَر شرَّ وساوس شياطين الإنس، وكل هذا من الله ابتلاء لعباده حتى يميز المؤمنين الصادقين من الذين في قلوبهم مرض والمنافقين، يقول الله تعالى:

﴿وَيَقُولُ الذينَ ءَامَنُوا لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الذينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

المؤمنون يرغبون في نزول آيات القرآن من حين لآخر، ويستبطئون نزولها إذا طالت المدة ولم ينزل شيء، فهم يتشوقون ويقولون: لولا نزلت سورة، أي هلا نزلت سورة فهم يتمنون ويودون نزولها لشعورهم بحلاوة كلام الله وتأثيره في نفوسهم.

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الذينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾.

فإذا أنزلت سورة محكمة من عند الله، قد أحكمت آياتها، وفصّلت من لدن حكيم خبير، وذكر فيها القتال، رأيت الذين في قلوبهم مرض، وأكثرهم المنافقون ينظرون إليك

نظر الذهول شاخصة أبصارهم، كالذي يغشى عليه من الموت، فهم يكرهون ذكر القتال والدعوة إليه ومدح المقاتلين، وذم القاعدين من غير عذر، فهم حينئذ يفتضحون إذا أحجموا عنه، وإن خرجوا إليه خرجوا مرغمين كارهين؛ لأنهم يخرجون لمحاربة أصحابهم الكفار، أو إخوانهم أهل الكتاب، فالقتال هي المحنة التي تميزهم، أما في الرخاء فهم يختلطون بالمسلمين وينطقون بكلمة التوحيد، ويغشون المساجد يراءون الناس، فيندسون في وسط المؤمنين ولا يظهرون على حقيقتهم لذا هم يكرهون القتال، وذكر المجاهدين فوصفهم الله تعالى بهذه الصفة السيئة وأظهرهم في هذه السورة العجيبة المعبّرة أصدق تعبير عن حالهم، ثم قال تعالى:

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.

أولى لهم، أي كان خيرا لهم لو كانوا يعقلون طاعة الله ورسوله، وقول معروف أن يقولوا سمعنا وأطعنا، كما قال رسول الله والمؤمنون، فإذا عزم الأمر وتعيّن وجوب القتال، فلو صدقوا الله بالسمع والطاعة، والصدق هنا أن توافق بواطنهم ظواهرهم، وأقوالهم أفعالهم، لو صدقوا الله وامتثلوا الأمر وقاتلوا في سبيل الله لكان خيرا لهم، شهادة تسعدهم في الآخرة، أو نصرا وغنيمة في الدنيا، ولا يفوتهم أجر القتال والطاعة في الآخرة، فالآية موعظة لهم، ودعوة إلى صدق الإيمان وغسل القلوب من النفاق، والله لا تخفى عنه خافية، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

﴿فَهَلْ عَسِيتُمْ، إِن تَوَلَّيْتُمْ، أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ، أُوْلَئِكَ الذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ، أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ اَقْفَالُهَآ﴾.

فهل عسيتم إن توليتم الحكم، ومكّن الله لكم في الأرض، أن تفسدوا في الأرض بالجور والظلم، فتسفكون الدماء الحرام، وتجمعون الأموال الحرام، وتقطعوا الأرحام، كما فعل بنو أمية فقطعوا أرحام بني عمومتهم بني هاشم، وفعل بنو العباس حين تولوا

بني عمومتهم الأمويين، وقد يفسّر التولي بالإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ثم قال تعالى:

﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَارَهُمْ﴾.

أولئك الذين تولوا وأعرضوا عن كتاب الله، وأفسدوا في الأرض، وقطعوا الأرحام لعنهم الله، أي طردهم من رحمته وأبعدهم عنها، وأصمهم عن سماع الحق، فهم صم بكم عمي لا يعقلون.

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ اَقْفَالُهَآ﴾.

الاستفهام توبيخي، أي أعموا فلا يتدبرون القرآن الذي يتلى عليهم، أم قلوبهم غلف مقفلة كالصناديق ذوات الأقفال، وإن من القلوب قلوبا قاسية لا تلين، مقفلة لا ينفذ إليها النور، ختم الله عليها بظلمها ونفاقها، وقد قال في أصحابها: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (البقرة: ١٠)، وفي الآيات تحذير من قطيعة الرحم وقد قرنت القطيعة بالإفساد في الأرض، واستوجب أصحابها لعنة الله، وفيها الأمر بتدبر القرآن وتلاوته، والتحذير عن الإعراض عنه، ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ الذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الاَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَآ أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

لا يزال الكلام مستمرا في شأن المنافقين، فهم المعنيون بهذه الصفات

﴿إِنَّ الذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾.

يحكم الله بحكمه القاطع على هؤلاء أنهم ارتدوا على أدبارهم، والارتداد هو الرجوع في الطريق الذي أتيت فيه مقبلا فوليت مدبرا، فهؤلاء ارتدوا، أي نكصوا على أعقابهم من بعدما تبين لهم الهدى في دين محمد ﷺ وعرفوه نبيا حقا، وإن القرآن كلام الله فولوا على أدبارهم من بعدما عرفوا الحق، والارتداد إما معنوي وهو الكفر بعد الإيمان، والإنكار بعد المعرفة، وإما ارتداد حقيقي بأجسامهم كالذي صنع عبد الله بن أبي - رأس المنافقين- بأصحابه حين رجع يوم أحد من الطريق، ورجع معه جماعة من المنافقين، وذلك بعدما تبين الحق في قتال المشركين، فأبوا قتالهم وارتدوا من حين أتوا، ذلك بأن الشيطان سوّل لهم، أي سهل لهم ذلك الارتداد وزينه لهم، وأملى لهم، أي منَّاهم بطول العمر والبقاء، كما سوّل لآدم حين قال له: هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى.

وقد تمكن الشيطان من وسوستهم بسبب أنهم قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله، وهم إخوانهم اليهود، قالوا لهم: سنطيعكم في بعض ما تأمروننا به، والله يعلم أسرارهم، وقد قالوا ذلك سرا، وظنوا أنه يخفى على المسلمين، ففضح الله أمرهم، وهم يعلمون أن الله يعلم سرهم ونجواهم، ولذا فهم يفزعون لنزول الآيات في شأن القتال؛ لأنهم أسروا الكفر وخانوا الله ورسوله، ففضحهم الله وهددهم بقوله:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَآ أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

فكيف تكون حالهم إذا توفتهم الملائكة عند خروج أرواحهم، ويوم القيامة إذا سحبتهم الزبانية إلى النار يضربون وجوههم وأدبارهم، وقد شدّت أيديهم بالسلاسل فلا يستطيعون رد الضربات، كيف تكون حالهم يومئذ، وذلك المصير المؤلم صاروا إليه بسبب أنهم اتبعوا ما أسخط الله عليهم، وكرهوا رضوانه، أي تنكبوا السبيل الذي ينالون فيه رضاه، واتبعوا السبل التي سلكت بهم إلى سخطه فأحبط أعمالهم، أبطل كل

أعمالهم سواء منها الأعمال التي هي في ظاهرها خير، فلم ينالوا ثوابها عند الله، أو أعمالهم التي هي الكيد ومكر السيئ، أبطلها الله فلم ينالوا قصدهم منها، وحاق بهم ما كانوا يمكرون.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ وَلَوْ نَشَآءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾.

الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أنكر الله على هؤلاء المنافقين ومرضى القلوب أن يحسبوا أن الله لن يخرج أضغانهم، ووبخهم على ذلك توبيخا، والأضغان هي الأحقاد والبغض الدفين، فهم يبغضون الحق وأهله ويسرون عداوتهم، وهم يظنون أن الله لن يفضحهم ولن يظهر أضغانهم، إنهم مخطئون في هذا الحساب خطأ بعيدا عن الصواب، ولو صدقوا الله لكان خيرا لهم، ثم إن الخطاب يتوجه إلى النبي ﷺ فيقول الله له:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾.

ولو نشاء لأريناك هؤلاء المنافقين فلعرفتهم حينئذ بعلامات بينة لا تخطئ، ولتعرفنهم في لحن القول، واللحن هنا هو نوع من تحريف الكلام وليّه، والعدول به عن المعنى الظّاهر إلى رموز يرمزون لها، فهم يرمزون الكلام ويلوونه عن ظاهره حتى يخفى على غيرهم من الناس، والذّكي الألمعي يعرفهم بهذا اللحن؛ لأن ذوي القلوب السليمة لا داعي لهم إلى لحن القول وتحريفه إلى رموز وإشارات، فكان هذا طابعا خاصا لأهل النفاق يعرفون به، كان هذا في أوائل عهود الهجرة ثم إن الله أطْلع نبيه على أكثرهم، لا سيما بعد نزول قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ (التوبة: ٨٤)، فكان النبي ﷺ بعد ذلك إذا مات أحد من المنافقين لا يشيعه ولا يصلي عليه بل يقول: «صلّوا على صاحبكم».

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾.

والله جل جلاله يعلم كل أعمال العباد ما ظهر منها وما بطن، فالآية فيها وعظ وتحذير لنا أن يرى الله منا ما يكره؛ فإنه يعلم الخفيات والنوايا، وفيها وعظ ووعيد لذوي القلوب المريضة والنفوس الخبيثة، ومن أراد الله به خيرا فإنه يرعوي عن غيه، ثم قال تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾.

اقتضت حكمة الله تعالى أن يبلوَ بعضنا ببعض حتى يميز الخبيث من الطيب، وحتى يعلم المجاهدين منا والصابرين، وقد كان يعلم أحوالنا قبل الابتلاء، ولكن يريد أن يظهر علمه فينا ويبلوَ أخبارنا، أي يمتحنا حتى يظهر منا من جاهد ومن صبر فيستحق الدرجات على جهاده، والأجر بغير حساب على صبره، ولا شيء يكشف عن حقيقة الإنسان كالابتلاء والامتحان.

﴿إِنَّ الذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَآقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾.

يبلو الله تبارك وتعالى أخبارنا حتى يجازي كل بما يستحق، أما الذين آمنوا وجاهدوا وصبروا فيهديهم ويصلح بالهم، ويدخلهم الجنة عرّفها لهم، وأما الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله، ويشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى فإنهم لن يضروا الله شيئا، وسيحبط أعمالهم، أي يبطلها ويجعلها هباء منثورا، وذلك بسبب كفرهم وصدهم عن سبيل الله ومشاقتهم الرسول، وكثير من الناس يكفرون ويصدون عن سبيل الله، ويدعون إلى سبيل الشيطان بعدما يتبين لهم الهدى، وذلك لميلهم إلى أهواء أنفسهم، أو لأنهم يعبدون الله على حرف، فإن أصابهم خير اطمأنوا به، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على أعقابهم، ومن الكافرين من يكيد للإسلام والمسلمين ويشاقون الله ورسوله، ويشاقون الدعاة إلى سبيل الله، ويحسبون بذلك أنهم ينالون من الإسلام، فأخبرنا الله

تعالى أنهم لن يضروا الله شيئا، وما يضرون إلا أنفسهم، وسيحبط أعمالهم فلا ينالون بها خيرا في الدنيا ولا في الآخرة، وكذلك يحبط الله أعمال ذوي النوايا السيئة، ويبارك الله في أعمال ذوي النوايا الحسنة ويتقبلها منهم.

يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ
(٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ
وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥)
إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ
أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا
فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ
تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ
فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ
تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)

يركز الله الكلام في هذه السورة الكريمة على إضلال الأعمال وإحباطها وإبطالها، ويحذرنا من ذلك ويجعله عقوبة للكافرين، يذكر ذلك سبع مرات، يأتي التعبير في ثلاث مرات بالإضلال، وفي ثلاث أخرى بالإحباط، وفي المرة السابعة يعبر بالإبطال، وهو ما جاء التحذير منه في هذه الآية، والإضلال والإحباط والإبطال بعضها من بعض، وهو أن لا يجد العامل لعمل خيري ثواب عمله، وفي حالة النهي عن ذلك ينهى المؤمنين عن

إبطال أعمالهم، إما بقطعها في الوسط، وإما بإصحابها بنية فاسدة، وإما بإعقابها بعمل من كبائر الإثم والفواحش، وهذا الأخير في رأي بعض العلماء من الصحابة وغيرهم. قال تعالى:

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾.

يأتي هذا النداء من قبل الله جل جلاله للمؤمنين في جملة معترضة بين جملتين فيهما وعيد للكفار الذين صدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول، والكفار الذين صدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلعنهم الله، وأصمهم وأعمى أبصارهم، وأضل أعمالهم، ويحذر الله المؤمنين من الكفر والصد عن سبيل الله وإبطال الأعمال.

يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر، أطيعوا الله فيما أمر ونهى، وأطيعوا رسول الله فيما أمر ونهى وحذر، ولا تعصوا الله ورسوله، فإنكم تبطلون أعمالكم فتذهب هباء منثورا، وإبطال الأعمال يكون بخلط الإيمان بالشرك، فإنه لا يقبل مع الإشراك عمل ولو كان في ظاهره صالحا، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾، ويُبطل الأعمال أيضا مصاحبتها بنيات سيئة كالرياء وطلب زينة الحياة الدنيا وحظوتها بعمل الآخرة، وقد يبطلها المن والأذى للفقير بعد أن تحسن إليه، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى﴾ (البقرة: ٢٦٤)، ويكون الإبطال أيضا - في نظر بعض العلماء- بالإتيان عقب الأعمال الصالحة بأعمال هي من الفواحش وكبائر الإثم، كقول عائشة - رضي الله عنها- لأم ولد زيد بن أرقم - رضي الله عنه- : أخبري زيدا أنه أبطل جهاده مع النبي ﷺ، وذلك لأنه تبايع بالعينة.

وتتناول الآية الكريمة بالنهي كل إبطال بأي سبب من الأسباب حتى الإبطال الذي هو قطع العمل في وسطه قبل إتمامه، كالذي يبدأ في صلاته النافلة أو صومه أو حجه ثم

يقطعه قبل أن يتمه، فهذا لا يجوز عند جمهور الفقهاء ويعدونه من إبطال الأعمال المنهي عنه. ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ الذينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

يرجع الكلام على الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، ويتمادون على الكفر بالله والصد عن سبيله حتى يموتوا وهم كفار، يحكم الله عليهم بحكمه الصارم أنه لن يغفر لهم، ويأتي النفي بلن المؤيّسة المؤبدة، أما الذين كفروا ثم تابوا ولم يموتوا وهم كفار، فأولئك قال الله تعالى فيهم: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ (الأنفال: ٣٨). ثم قال تعالى:

﴿فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الاَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَّتِرَكُمْ، أَعْمَالَكُمْ﴾.

الوهن هو الضعف، يقول الله تعالى: فلا تميلوا إلى الوهن والضعف، ولا تعطوا الدنية وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون، أنتم الغالبون لأن الله مولاكم والكافرين لا مولى لهم، والله معكم بالحفظ والعناية والنصر والتأييد، ومن كان الله معه لا يهزم، ولن يتركم، أي ولن ينقصكم أو يبخسكم أعمالكم، بل سيوفيها إياكم ويجزل لكم بركتها وثوابها، وهذا مقابل قوله في الكفار: أضل أعمالهم، فإذا كان الكفر محبطا للأعمال فإن الإيمان والتقوى سبب زكاتها وقبولها ونيل ثوابها، فالمسلم قوي بربه لا يدعو أعداء الله إلى السلم؛ لأن ذلك يجرئهم ويطمعهم في المسلمين، فإن جاءت الدعوة إلى السلم من عندهم فإن رأى المسلمون المصلحة في إجابتهم إليها فلا بأس بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال: ٦١)، هكذا يوجه الله عباده المؤمنين بتوجيهاته التي هي أقوم، فما علينا إلا أن نستمع ونطيع فحينئذ تكون معيّة الله لنا عليهم ظهيرا.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ، إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾.

يضرب الله مثلا لحقارة هذه الحياة الأولى باللهو، وهو العمل الفارغ الذي يقصد به تزجية الوقت والترفيه على النفس، وباللعب وهو الحركة التي لا نفع ولا طائل من ورائها كلعب الصبيان بأشيائهم فكذلك الحياة الدنيا، ليس فيها ما يفيد إلا الإيمان وأفعال الإيمان، وخصال التقوى؛ لأنها بنياتها الحسنة خير عند ربك ثوابا وخير أملا، وذلك معنى قوله تعالى:

﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾.

الآية تبين أن الغرض الوحيد من إيجادنا في هذه الحياة الدنيا هو الإيمان والتقوى؛ لأن الله تعالى يقول بعد تحقير شأن هذه الحياة: وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم، أي وإن تؤمنوا بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر وتعملوا بالتقوى يؤتكم أجوركم موفورة.

﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ، إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾.

يقول الله تعالى: ولا يسألكم إنفاق أموالكم كلها لأن ذلك يشق عليكم ويحرجكم، وما جعل عليكم في الدين من حرج، إن يسألكموها فيحفكم، أي فيلح عليكم في السؤال، والإلحاح هو المبالغة والمغالبة، والإيجاب في طلب الشيء، إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم، أي شح نفوسكم وأضغان بعضكم لبعض، فيحقد الذين ينفقون على الذين يمسكون والعكس كذلك، فلطف الله بعباده فلم يكلفهم من الإنفاق إلا يسيرا. ثم قال تعالى:

﴿هَآنتُمْ هَؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾.

ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله وفي الجهاد لإعلاء دين الله ، فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، ذلك لأن الإنفاق في الجهاد لمصلحتكم وعزكم ، فإن تبخلوا فقد ألقيتم بأيديكم إلى التهلكة ، والإنفاق على الفقراء لمصلحتكم ، فإن الله يخلف عليكم ما أنفقتم ، ويضاعف أجوركم ، ويغفر لكم ذنوبكم ، ويطهركم بالإنفاق ، ويطهر مجتمعاتكم ، ومن يبخل منكم فإنما يبخل عن نفسه والله الغني ، خزائنه ملأى يفيض عليكم من رزقه ولا تنفد خزائنه ، يدعوكم للإنفاق وهو غني عنكم ، وإنما ليدخره لكم ويضاعفه لكم يوم القيامة أضعافا كثيرة ، وأنتم الفقراء إلى الله ، فتعرضوا لفضل الله بالسخاء والإنفاق ؛ فإنه من ينفق ينفَق عليه ، ومن يوكِ يوكَ عليه.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾.

وإن تستغنوا وتعرضوا وتبخلوا يستبدل الله قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم ، بل يكونون لأمره مطيعين ، وله مستجيبين ، وليست قدرة الله انتهت عند خلقكم بل الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ، وهو الخلاق العليم على كل شيء قدير.

وهكذا تنتهي السورة الكريمة بمثل ما بدئت به ، ويلتقي طرفاها كالحلقة من السلسلة الذهبية ، فقد بدئت بالوعيد لهؤلاء الكفار الذين صدوا عن سبيل الله ، والوعد للمؤمنين أنه يكفر عنهم سيئاتهم ، ويصلح بالهم ، وهو مولاهم والكافرين لا مولى لهم ، وانتهت بالوعيد للذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول ثم ماتوا وهم كفار ، فلن يغفر الله لهم ، وبدعوة المؤمنين إلى الإيمان والتقوى والإنفاق في سبيل الله حتى يحقق الله لهم وعده ، وحذرهم من البخل والتولي والإعراض عما يدعوهم الله إليه من الإنفاق في

سبيله، وهو لمصلحتهم في الدنيا والآخرة، والله الغني ونحن الفقراء، يدعونا للإنفاق ليغفر لنا ذنوبنا، ويكفر عنا سيئاتنا، ويصلح قلوبنا، وشتان بين الفريق الذي أضله الله وأحبط عمله، وخذله فلا ناصر له، وبين الفريق الذي هداه الله، وأصلح باله فآمن بالله واتقى، وآتاه الله أجره، وتولى أمره، وآتاه نصره، وهو خير الناصرين.

آمنا بالله وبما نزل على محمد نبيه وهو الحق من ربنا، وتوكلنا عليه، وهو حسبنا ومولانا فنعم المولى ونعم النصير.

تفسير سورة الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفتح مدنية

وآياتها ٢٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ٢
وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ٣ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى
قُلُوبِ ٱلْمُومِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلَارْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ٤ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُومِنِينَ
وَٱلْمُومِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلَانْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ
عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ٥ وَيُعَذِّبَ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ
بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلَارْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ٧ * إِنَّآ
أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ٨ لِّتُومِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾
إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ
فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ
اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

السورة مدنية لأنها نزلت بعد الهجرة، وإن كان نزولها في الطريق بين مكة والمدينة في منقلب النبي ﷺ من صلح الحديبية، وقد نزلت عليه في موضع يسمى كراع الغميم، وفي مسند الإمام الربيع بن حبيب: «أبو عبيدة عن جابر بن زيد قال: بلغني عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- خرج مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره فسأله عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- عن شيء فلم يجبه رسول الله ﷺ ثم سأله ثلاثا فلم يجبه، فقال عمر عند نفسه: ثكلتك أمك يا عمر، نزرت رسول الله ﷺ ثلاثا وكل ذلك لا يجيبك، قال عمر: فحركت بعيري حتى تقدمت أمام الناس فخشيت أن ينزل فيّ قرآن، فما مشيت إذ سمعت صارخا يصرخ فهرولت حتى جئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه فقال: لقد أنزلت عليّ سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: "إنا فتحنا لك فتحا مبينا"». اهـ.

ويدل هذا الحديث الشريف على عظم فضل هذه السورة الكريمة، وكل كلام الله حكيم وعزيز وعظيم، والمناسبة قوية بين السورة وسابقتها، وكلاهما مدنيتان، وقد ذكر في الأولى الأمر بقتال الذين كفروا، وأن الله ناصر المؤمنين عليهم، وهو مولاهم؛ والكافرون لا مولى لهم، وفي السورة أيضا فضح أعمال المنافقين ونياتهم، ومواطأتهم مع أهل الكتاب على عداوة المؤمنين، وكراهية ما أنزل الله، وفي هذه السورة البشارة بفتح الله لنبيه، وأن الله مؤيده وهاديه وناصره نصرا عزيزا، وأن لله جنود السموات والأرض، وفيها التعرض لذكر أعمال الكفار وفضح نوايا قلوبهم وقلوب المنافقين والذين في قلوبهم مرض، وفي السورتين مدح المؤمنين المخلصين المطيعين لله ورسوله،

وذكر ما أعد الله لهم من حسن الثواب والأجر العظيم، فكأن السورتين سورة واحدة.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾.

الفتح هو فكُّ ما كان مغلقا، وهو أيضا الحكم بين المتخاصمين بما فيه الغلبة والنصر لأحدهما على الآخر، وقد يكون بفتح بلد المغلوب للغالب، فيكون الفتح بكل معانيه، وقد استعملت كلمة الفتح في القرآن ثمانية وثلاثين مرة، وأغلبها في إزالة المغاليق، وبعضها في الحكم كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (الأعراف: ٨٩)، والفتح الذي هو الحكم والفصل بالحق فيه معنى الفتح الذي هو فكّ ما انغلق لأن فيه حل الأمر المستبهم بإزالة الإشكال المنغلق، كما وقع في صلح الحديبية الذي هو المراد في هذه الآية على رأي جمهور المفسرين، والتي نزلت في ظروفه وفي منصرف النبي ﷺ من الحديبية التي عقدت فيها المعاهدة بين المسلمين والكفار أهل مكة قريش ومن معهم، ولنذكر قصة الحادثة باختصار.

خرج رسول الله ﷺ في ألف وأربعمائة أو ألف وخمسمائة من أصحابه سنة ست من الهجرة يريدون مكة لأداء منسك العمرة، وليس معهم السلاح إلا السيوف في أغمادها، وقد ساقوا معهم بدنا أشعروها وقلدوها ووجهوها هديا إلى المسجد الحرام، وقد أحرم رسول الله ﷺ وأحرم الناس معه بالعمرة في ذي الحليفة بعد صلاة الظهر، وذلك في ذي القعدة سنة ست، فلما بلغ المشركين خبر خروجهم أجمع رأيهم على منعهم وصدهم، وأخرجوا مائتي فارس إلى كراع الغميم عليهم خالد بن الوليد، فلما علم النبي ﷺ بصنيعهم وتراء الجمعان قال لأصحابه: تيامنوا وأمرهم أن يسلكوا طريقا تخرجهم على مهبط الحديبية من أسفل مكة من ناحية جدة، فلما علمت قريش بصنيعهم خرجوا إلى مياه الحديبية ليصدوا النبي ﷺ وأصحابه من دخول المسجد الحرام.

فلما كان النبي ﷺ في الثنية التي تهبط على القوم بركت ناقته القصواء، فقال

المسلمون: حل حل يزجرونها فأبت أن تنبعث فقالوا: أخلأت القصواء؟ فقال ﷺ: ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، أما والله لا يسألوني اليوم خطة فيها تعظيم حرمة الله إلا أعطيتهم إياها ثم زجرها فقامت فولّى راجعا حتى نزل بالناس على ثمد من أثماد الحديبية، وهناك وقعت المفاوضات بينه وبين رسل قريش، وأخيرا أرسل إليهم عثمان بن عفان فقال: اذهب إلى قريش فأخبرهم أنا لم نأت إلى قتال أحد وإنما جئنا زوارا لهذا البيت معظمين لحرمته، معنا الهدي ننحره وننصرف، فأتاهم فأخبرهم فقالوا: لا كان هذا أبدا ولا يدخلها علينا العام، واحتبسته قريش عندها ثلاثة أيام، وبلغ رسول الله أن قريشا قتلته فقال: لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة.

وجعلت الرسل تختلف بين رسول الله وبين قريش فأجمعوا على الصلح والموادعة، وأخيرا بعثوا سهيلا بن عمرو في عدة من رجالهم وجرى الصلح بينهما فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ليكتب كتاب الصلح، فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا أعرف هذا، اكتب باسمك اللهم، فكتبها، ثم قال: اكتب، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو، فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال رسول الله ﷺ: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمر، وقال: اسمي واسم أبي لا يذهبان بنبوّتي، فكتب واصطلحا على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن أتى قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، وأن محمدا يرجع عنا عامه هذا بأصحابه ويدخل علينا قابلا في أصحابه، فيقيم بها ثلاثا لا يدخل علينا بسلاح إلا سلاح المسافر، السيوف في القُرب.

فلما فرغوا من الكتاب انطلق سهيل وأصحابه ونحر رسول الله ﷺ هديه وحلق

ونحر أصحابه وحلق عامتهم وقصر الآخرون، وأقام رسول الله ﷺ بالحديبية بضعة عشر يوما ثم انصرف، وعن جابر بن عبد الله أن عطشا أصاب المسلمين يوم الشجرة فأتى رسول الله ﷺ بماء في تور فوضع يده فيه فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون، قال: فشربنا ووسعنا وكفانا وكنا ألف وخمسمائة، ولو كنا مائة ألف لكفانا.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

الفتح مؤكد ومسند إلى نون العظمة تنويها بشأنه وشأن رسول الله ﷺ، ووصف بالمبين لأنه عظيم الأثر على الإسلام والمسلمين والناس جميعا، روى البيهقي عن عروة بن الزبير قال: أقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعا فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: والله ما هذا بفتح، صددنا عن البيت وصدّ هدينا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: بئس الكلام هذا بل هو أعظم الفتوح، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبون إليكم الأمان، وقد كرهوا منكم ما كرهوا، ولقد أظفركم الله عليهم، وردكم سالمين غانمين مأجورين، فهذا أعظم الفتح، أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم، أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنون! فقال المسلمون: صدق الله ورسوله، وهذا أعظم الفتوح والله يا رسول الله، ما فكرنا فيما ذكرت ولأنت أعلم بالله بالأمور منا، فهو أعظم فتح لم يسبقه فتح مثله، وهو سبب لفتح مكة الذي يأتي بعده.

وكم في هذا الفتح من بركات، ولما كان حصوله له بسعي النبي ﷺ واجتهاده وامتثاله أمر ربه، ثم بتيسير الله له جعل الله جزاءه غفران ذنوبه، وإتمام نعمته عليه، وهدايته صراطا مستقيما، وأعقبه بعده نصرا عزيزا في خيبر وفتح مكة والطائف، وإعلاء كلمته بدخول الناس في دين الله أفواجا، ذلك لأن خبر الإسلام انتشر بعده واختلط الناس بعضهم ببعض، وأمن بعضهم بعضا فأقبلوا على هذا الدين الحق وقد

شرح الله له صدورهم فاعتنقوه، فهو الفتح المبين الذي تعقبه فتوحات وفتوحات، أما قوله تعالى:

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

فما نوع هذا الذنب والرسول ﷺ معصوم من المعاصي؟ قال المحققون: إن المقصود بالذنب هاهنا بعض الغفلات أو بعض التقصير في حق الله وارتكاب خلاف الأوْلى في بعض الأحيان، فذلك بالنسبة للمعصوم ذنبه، فامتن الله عليه وبشّره بمغفرة ما تقدّم منه وما تأخر، فلا يقع ذنبه إلا مغفورا، تفضلا من الله عليه، ثم قال تعالى:

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

لقد أنعم الله على نبيه بنعم جليلة، وأجلها نعمة الإسلام وإتمام نعمته عليه أن يزيد هذه النعمة تمكنا وانتصارا في قومه والناس جميعا حتى تقر عين النبي ﷺ بذلك، أما قوله: ويهديك صراطا مستقيما فهو أن يزيده هدى على هدى، ويفتح له من مغاليق الحكم والأسرار في علوم هذا الدين الذي هو الصراط المستقيم، ثم قال تعالى:

﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾.

أي نصرا مبينا، ووصفه بالعزيز، أي معزا لك وللمؤمنين، وهو النصر الذي ناله في فتح مكة، فقد أعزّه الله يومئذ فكانت كل مأثرة وكل دم تحت قدميه يوم منّ على قومه بالعفو العام، فقال ﷺ: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، والعفو إنما يكون عند المقدرة، فكان ذلك سببا لإتمام نعمة الله عليه بدخولهم في الإسلام.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

بعد امتنان الله تبارك وتعالى على رسوله بما امتن به من البشارات المتتابعة؛ يمتنّ الله في هذه الآية الكريمة على عباده وأتباع نبيه المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، وهما نعمتان عظيمتان، السكينة والإيمان، ويأتي الإخبار بطريقة

الحصر لأنه لا أحد غيره يصنع ذلك بالقلوب، والقلوب كما ورد في الخبر بين أصبعين من أصابع الرحمن، وهذا الحصر لا ينافي إنزال ملائكته على قلوب المؤمنين وتمكينها من تثبيتها وطمأنتها بإذن الله؛ لأن الكل من عند الله، وبإذن منه وتيسيره.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾.

هو الله لا غيره أنزل السكينة في قلوب المؤمنين، والسكينة الاستقرار والهدوء، والطمأنينة يحس بها المؤمن المستسلم لأمر الله، المتوكل على الله، المفوض أمره إلى الله، الراضي بقضاء الله، الصابر عند البلاء، الشاكر عند النعماء، يشعر بها المؤمن طمأنينة وبردا على قلبه حتى في ساعات الضيق والحرج، وعند اشتداد الكرب ونزول البلاء، ولا يشعر بقيمة السكينة إلا الذين فقدوها، وقد كان المؤمنون في الحديبية في ضيق واضطراب حين صدهم الكفار عن المسجد الحرام وهو محرمون، وصدوا هديهم المقلد أن يبلغ محله.

ثم ضاقت نفوسهم بعد عقد المعاهدة التي يبدو فيها نوع من الحيف والإجحاف، وهي تنص أن من جاء محمدا بغير إذن وليه يرده إليهم، ومن جاءهم من المدينة لا يردونه، فاشتد الأمر على المؤمنين، ثم إن الله أنزل سكينته على قلوبهم فهدأت بلابل صدورهم، وعلموا أن الخير في الواقع الذي قضاه الله، ووافق عليه رسول الله ﷺ.

وإنزال السكينة من الله العلي الكبير قدرا ولطفا بالمؤمنين وليس نزولا ماديا، بل هي روح من أمر الله ينزله الله على من يشاء من عباده، ونسبتها إلى الله والتعبير بالإنزال يشعر بعلو قدرها وشرف من أنزلت عليهم، وقد كانت قبل ذلك نزلت على قلب رسول الله ثم على قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، إنهم مؤمنون قبل نزولها فزادهم الله إيمانا مع إيمانهم، والإيمان يزداد ببعض الخصال الطيبة، والأعمال الصالحة ويقوى بها.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

ولله وحده جنود السموات والأرض لا يعلمها إلا هو، هذا ما نفهمه من الآية؛ لأن تقديم المعمول على عامله يؤذن بالاختصاص والحصر، ومن جنوده الملائكة الذين هم مسخرون في السموات والأرض، وهؤلاء يلابسون قلوب المؤمنين بإذن ربهم، يثبتونها ويطمئنونها ويلهمونها الخير، أليس الله يقول: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ (الأنفال: ١٢)، ولا شك أنهم أولياء المؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

وكان الله ولا يزال عليما بما يصلح لعباده في حربهم وسلمهم ومعاهداتهم، عليما بما يصلح قلوبهم، عليما بعواقب عباده، عليما بالأسرار والحكم التي هم عنها غافلون، حكيما يضع الأشياء في مواضعها، ويعلم من يستحق العناية والحفاوة من عباده، فتولى أمرهم بالعناية والنصر، وينزل الهزيمة على أعدائهم ويخذلهم، والحكمة منه وإليه يؤتيها من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا.

﴿لِيُدْخِلَ الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

كان إنزال السكينة على المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، إنعاما من ربهم وتوفيقا لهم ليدخلهم الجنة التي هي جنات كثيرة وليست جنة واحدة، وجاء الوصف هنا مزدوجا، المؤمنين والمؤمنات، ليعلم المؤمنات أنهن داخلات في هذه الكرامة، وقد كان يكفي ذكر المؤمنين فيدخل معهم المؤمنات بالتغليب، ولكن لو لم يصرح بوصفهن المؤنث في هذا المقام لظننا أن هذه الكرامة خاصة بالرجال؛ لأن الجهاد والمعاهدات من

خصوصياتهم فيما يبدو، فصرح الله بذكرهنَّ ليرتفع هذا الوهم.

ولا نَنْسَ أنَّ لهن دوراً هاما في الموضوع، فقد يخرجن مع الرجال لخدمتهم يهيئن الطعام والشراب، ويداوين الجرحى، ويحرسن ظهورهم، ومن لم تخرج منها فهي في بيت زوجها تحفظ غيبته، وتقوم على تربية أولاده، وقد كانت قبل خروجه هيأت له الزاد والمتاع، وهنَّ يفرحن لانتصارهم ويدعون الله لهم، ويحزنَّ إن مسهم سوء، ويُصبن بالثكل والفقد والتأيم من موتاهُنَّ ويصبرن على ذلك، فجعلهن الله شريكات الرجال في الثواب، كما جعل المنافقات والمشركات شريكات الرجال في العقاب.

﴿لِيُدْخِلَ الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

أنعم الله على المؤمنين والمؤمنات بالهداية والتوفيق أولا، وبإنزال السكينة عليهم ثم بإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار التي وصفها في السورة السابقة، ثم بالخلود فيها أبدا فهم لا يخرجون ولا يبغون عنها حولا، ولا تفنى الجنات ولا تيبس الأنهار ولا تنقطع الثمار، وما عند الله خير للأبرار. ثم قال:

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

ذلك هو الفوز العظيم حقا، وليس مال الدنيا ولا سلطانها ولا شبابها ولا إقبالها يعد شيئا في جانب ذلك الفوز العظيم، وفي التعبير بالعندية تعبير على قيمة ذلك الفوز عند الله وملائكته والمؤمنين، فهو الفوز حقا لا غيره من متاع الدنيا الذي يسميه الناس فوزا وهو زائل لا بقاء له، ثم قال تعالى:

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾.

بدأ ربنا تبارك وتعالى بذكر جزاء المؤمنين والمؤمنات لمكانتهم عنده، ولمناسبة ذكر الفتح المبين الذي فتحه لهم في الحديبية ثم ثنى بذكر المنافقين والمنافقات والمشركين

والمشركات الظانين بالله ظن السوء، قرن الله تعذيبهم بلام التعليل ليبين لنا أن نفاقهم وشركهم وظنهم السوء بالله كان هو السبب في تعذيبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار، عذب الله ضمائرهم في الدنيا بالغم والكبت والحزن بانتصار النبي والمؤمنين نقيض ظنهم السيء، وقد كانوا يظنون أن الله لا ينصر المؤمنين ولا يتولاهم، ظنوا السوء بالمؤمنين الذين خرجوا في عدد قليل ولا سلاح لهم إلا سلاح المسافر، وقالوا: لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا سيقتلهم قريش ومن معهم من الأحلاف، ونسبوهم إلى الحمق والسفه وهم هم السفهاء، قال الله:

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

أخبر الله تعالى أن دائرة السوء أخيرا لا تدور إلا عليهم وغضب الله عليهم بنفاقهم وشركهم وظنهم السوء ولعنهم، أي أقصاهم عن رحمته فهم منها مطرودون محجوبون، وأعدَّ لهم جهنم مصيرا لهم، هم فيها خالدون وساءت مصيرا، وقد شمل هذا الجزاء المشؤوم رجالهم ونساءهم لأنهم جميعا اشتركوا في النفاق والشرك وظن السوء بالله وبالمؤمنين، فهذه أربعة سجال من العذاب تصب عليهم وهم أحقُّ بها وأهلها لظنهم بالله ظن السوء، ثم قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

ولله وحده جنود السموات والأرض، وما يعلم جنود ربك إلا هو، ومن جنوده الملائكة يسخرها ربها وخالقها لما يشاء ويريد.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

وهنا يجيء تذييل الآية الكريمة بالعزيز القاهر الغالب الذي لا يغالب؛ لأن المقام مقام انتصار من هؤلاء المشركين والمنافقين وكبتهم، وبالحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها المناسبة، ينزّل نصره وسكينته على أوليائه المؤمنين والمؤمنات، وينزل نقمته

وعذابه على أعدائه الكافرين المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات، ولا راد لقضائه وقدره ولا معقب لحكمه.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِّتُومِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾.

هكذا بالإسناد إلى نون العظمة يذّكرنا الله تبارك وتعالى ببعض الحِكَم من إرسال الرسول، ويعظنا ويأمرنا بما يجب علينا من حق الأدب مع الله ورسوله.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾.

يقول الله تبارك وتعالى مخاطبا نبيه محمدا ﷺ: إنا أرسلناك، أي كرّمناك بهذه الرسالة إلى الناس كافة، إنسهم وجنهم، شاهدا تشهد على أمتك من اتبعك منهم ومن عصاك، وتشهد لجميع الرسل من قبلك بالصدق والتبليغ، وهذا فيه ما فيه من تشريف الرسول ورفع لمقامه، فهو الشاهد المعدل الصادق، الذي تقبل شهادته يوم القيامة ولا تردّ.

﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

البشارة الإخبار بخبر يسر المبشّر، والنذارة الإخبار بخبر يسوء المنذَر، والمقصود البعث على سلوك سبل الرشاد والتحذير من سبل الغواية، تلك مهمة الرسل والدعاة إلى الله من بعدهم.

﴿لِّتُومِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

الغاية من إرسال الرسول هي الإيمان بالله ورسوله وبما جاء به الرسول أنه حق من عند الله.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ .

هذان الوصفان يسندان إلى الرسول المرسل، والتعزير هو الاحترام والتوقير، وفيه معنى المنع، أي لتمنعوه ممن يريده بأذىً، تحمونه مما تحمون منه أنفسكم ونساءكم

وأبناءكم، والتوقير التعظيم والإجلال، أما الوصف الثالث وهو التسبيح فلا يكون إلا لله وحده، وهو التنزيه والتقديس لله تبارك وتعالى، وقوله:

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾.

البكرة أول النهار، والأصيل آخره، والمقصود بذلك إدامة التسبيح في جميع الأوقات، ونظيره قوله تعالى في أهل الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (مريم: ٦٢)، أي للسعداء الأبرار في الجنة لهم رزقهم دواما كلما طلبوه واشتهوه حضر بين أيديهم، والله أعلم، وعند جمهور أهل العلم يجوز تفريق الضمائر متى كانت هناك قرائن تدل على مرجع كل ضمير، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ (النجم: ٨- ١٠)، فالدنو والتدلي من جبريل عليه السلام، والإيحاء من الله جل جلاله، ومحمد ﷺ عبد الله لا عبد جبريل، هذا معنى الآية عند المحققين من أهل العلم والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: إن الذين يبايعونك يا محمد إنما يبايعون الله، وقد بايعه الصحابة رضي الله عنهم، وكانوا ألفا وأربعمائة يوم الحديبية، بايعوه على السمع والطاعة، وعلى أن لا يفروا، عاهدوه على الموت، فرضي الله عملهم وقال:

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

لقد كانوا حين بايعوا رسول الله إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، أي نعمة الله ومنّته أو قوته فوق أيديهم، تباركهم وتثبّتهم على هذه البيعة والوفاءِ بها. ثم قال تعالى:

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فمن نكث بيعته أي نقضها وأبطلها فإنما ينكث على نفسه، أي يكون إثم نكثه عليه، ويكون هو الخاسر ولن يضر الله شيئا، أما المؤمنون فأوفوا ولم ينكثوا بل صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وأما المنافقون فقد كان معهم منافقان أحدهما عبد الله بن أبي، وهو رأس المنافقين لعنهم الله، والآخر هو الجد ابن قيس، استتر بجمله فلم يبايع، قال تعالى: ومن أوفى، أي صدق فوفّى بما عاهد عليه الله فسنوتيه أجرا عظيما، سيؤتيه الله يوم القيامة أجرا عظيما، درجات منه ومغفرة وكان الله غفورا رحيما، تلك هي البيعة وما أعد الله لأهلها من الأجر العظيم، والمحروم من حرم نفسه منها، أو ظلم نفسه بالنكث بعد البيعة والعياذ بالله.

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ
مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ
بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ
شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ
إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ
ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ
أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ

غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ
لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ
اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ
بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾
قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ
تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن
تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ
عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ
حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

يرد الكلام في الآيات على المنافقين وضعفاء الإيمان من الأعراب حول المدينة ليخبر الله نبيه بأمرهم وليرشده إلى كيفية معاملتهم، فقد أطلع الله النبي والمؤمنين فيها بدخيلة أمرهم وكشف عن كذبهم وخداعهم للنبي حين يختلقون له الأعذار، ويطلبون منه الاستغفار والله يعلم إنهم لكاذبون، ولا يزال باب التوبة مفتوحا لمن أراد منهم أن يتوب ويرجع إلى الصراط المستقيم، أما من أصر منهم وتولى فإن الله يعذبه عذابا أليما، قال الله تعالى:

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَّمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا اِنْ اَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا اَوَ اَرَادَ بِكُمْ نَفعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

أخبر الله نبيه بما سيقول له الأعراب عند منصرفه من رحلته هذه من الاعتذارات

الواهية حتى لا يغتر بأقوالهم المكذوبة، قال تعالى:

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الاَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾.

سيأتيك الذين خلفتموهم من الأعراب الذين ثبطهم الله بسوء نياتهم عن الخروج معكم، وهم قبائل الأعراب الضاربين حول المدينة من بني أشجع وبني أسلم وبني مزنية وبني جهينة وبني غافر وبني الديل، وكان النبي ﷺ استنفرهم للخروج معه إلى العمرة حتى إذا سمعت بهم قريش لم يستطيعوا ردهم فلم يخرج معهم منهم إلا نفر قليل، وذلك لأنهم قالوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، يقول الله تعالى: سيقول لك هؤلاء المخلفون من الأعراب: شغلتنا أموالنا وهي الإبل والأغنام وأهلونا فلم نتمكن من الخروج معك خوفا عليهم من الضياع لو تركناهم فاسأل الله المغفرة لنا وهم كاذبون في هذا الاعتذار، بل لو أرادوا الخروج لأعدوا عدته وخرجوا ولم يمنع مانع منه، قال تعالى:

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

يقولون بأفواههم ما لا تعتقده قلوبهم، وما منعهم من الخروج إلا ظنهم السوء بالله ورسوله والمؤمنين، وقد كشف الله عن ظنونهم السيئة وفضحهم في الآيات التالية، وقد أمر الله نبيه أن يقول لهم:

﴿قُلْ فَمَنْ يَّمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا اِنَ اَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا اَوَ اَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾.

قل لهم يا محمد: فمن يملك لكم من الله شيئا من دفع الضر إن أراد بكم ضرا، أو جلب النفع واستعجاله أو تكثيره أو رده إن أراد بكم نفعا، هو وحده الضار النافع، وقد ذكر النفع هنا إلى جانب الضر لتلازمهما وتقابلهما، وتناسب ذكرهما معا كلما ذكر أحدهما ذكر الآخر، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا

شَاء اللَّهُ﴾ (الأعراف: ١٨٨)، في أمثالها من الآيات التي يرد فيها ذكرهما معا، ومن محسنات البديع المقابلة والمشاكلة.

﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

ليس الأمر كما تظنون أن دواخلكم تخفى على الله بل الله خبير بما تعملون، عليم بما تسرون وما تعلنون.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّنْ يَّنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُومِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾.

بل ظننتم في نفوسكم المريضة أن لن يرجع الرسول والمؤمنون من رحلتهم هذه إلى أهليهم أبدا، ذلك أنهم قالوا إنهم قليلون أكلة رأس، أي رأس بعير يعرضون أنفسهم للخطر يذهبون إلى مكة حيث قريش وكنانة والأحابيش والأحلاف وهم منذ عام واحد كانوا غزوهم فتحصنوا منهم بالخندق، قالوا: إنهم سيقضون عليهم ويبقى أشياعهم ضعافا في المدينة فيغزونهم فيموتون أو يرتدون عن دينهم، ذلك ظن هؤلاء الأعراب في نفوسهم، وقد رجحوه وزين في قلوبهم هذا الظن وحسنوه وظنوا أن الله لن ينصر رسوله والمؤمنين، وما علموا أن الله ولي المؤمنين، وأن لله جنود السموات والأرض، قال تعالى:

﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾.

أي وكنتم قوما هلكى بظنكم وبتخلفكم عن رسول الله.

﴿وَمَن لَّمْ يُومِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾.

هذا وعيد شديد من الله تعالى لهؤلاء الأعراب الذين وقعوا في الكفر أو كادوا بصنيعهم هذا فقال تعالى: ومن لم يؤمن بالله ورسوله وشك في صدق وعد الله أن الله يعصم رسوله من الكفار وينصر رسوله والمؤمنين، وهو مولاهم فإن الله أعد للكافرين

سعيرا، أي نارا مستعرة يدوم جحيمها يصلونها ليذوقوا العذاب جزاء على كفرهم، وهم فيها خالدون، لا يجدون لهم وليا ولا نصيرا، إنه لا نجاة منها إلا بالإيمان بالله ورسوله إيمانا راسخا في قلوبهم لا يلبسه ظلم، ولا يمازجه شك.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَآءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

هذه الجملة معطوفة على قوله: قل فمن يملك لكم من الله شيئا... الآية، وهي مكملة لمعناها، غير أن الأولى بدأت بذكر الضر تخويفا لهؤلاء الظانين بالله ظن السوء، وتقريعا لهم، وهذه بذكر المغفرة وذيلت بالغفور الرحيم إطماعا لهم في المغفرة إن تابوا ورجعوا إلى الصراط السوّي حتى لا ييأسوا من روح الله، ولله ملك السموات والأرض هو المالك لهما المتصرف في أمرهما وأمر من فيها لا يشركه في ذلك أحد، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، فالمغفرة والرحمة والتعذيب والانتقام يجريان بمشيئته، وحتى لا يطمع أحد في غير مطمع فقد بيّن مشيئته في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾، ثم بيّن مشيئته في المغفرة خاصة في قوله: ﴿قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ...﴾ الآية، (الأنفال: ٣٨)، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه: ٨٢)، في أمثالها من الآيات البيّنات من كتاب الله الحكيم، فلا يطمعن أحد في غير مطمع أو يتمسك بالأماني الفارغة، ولا ييأس أحد من رحمة الله تبارك وتعالى، وليكن قلب المؤمن بين الخوف والرجاء.

«سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ، إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَاخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

أُخبر النبي مرة أخرى بما سيقوله المخلفون الذين لا يفقهون، قال تعالى: سيقول

المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم، ذلك لأن الله تعالى أخبر نبيه وبشّره بمغانم كثيرة قريبة من هذا الصلح الذي رجعوا منه جياعا عطاشا، متعبين بالسفر الشاق، الذي لم ينالوا فيه غنما من الدنيا وإن كانوا نالوا فيه غنم الآخرة، وهو رضا الله عنهم، ولم يحرموا من الفتح المبين، فبشرهم الله بمغانم كثيرة يأخذونها، وذلك بانطلاقهم إلى خيبر ليقاتلوا اليهود وينتصروا عليهم، ويغنموا الأموال الكثيرة، فقد كانت خيبر بلادا غنية ذات نخل وأشجار وزروع وعيون، وكانت لا تبعد عن المدينة إلا بنحو ثمانين ميلا.

فلما سمع هؤلاء الأعراب بهذه البشارة التي نزل بها القرآن تسارعوا إلى النبي ﷺ يريدون أن يتبعوه في هذه الغزوة، يقولون: اتركونا نتبعكم وما كان قصدهم الجهاد ولا طاعة الله والرسول، بل كان قصدهم المغانم، ولذا لم يُذكر في هذه الآية إلا المغانم وأخذها، وذلك هو مطمع المخلفين من الأعراب الذين دعوا إلى الخروج فتخلفوا حينئذ عن اتباع رسول الله ﷺ والمؤمنين معه، فقال الله تعالى لنبيه:

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾.

قل يا محمد لهؤلاء الأعراب لن تتبعونا إلى هذه الغزوة كذلكم قال الله من قبل، أي حكم وقضى أن لا يخرج إلى خيبر إلا من شهد بيعة الحديبية، وقول الله هو الفصل وحكمه العدل، ولكن هل سمع هؤلاء القوم قول الله وأطاعوه وصدقوا رسوله؟ لا بل قالوا له بل تحسدوننا، إنما منعتمونا من الخروج معكم حسدا أن ننال معكم من الغنائم، قال الله تعالى ردا عليهم، وفي الرد إعراض عنهم لأنهم ليسوا أهلا للخطاب، إنما يقول لنبيه وللمؤمنين:

﴿بَلْ كَانُوا لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

بل كان هؤلاء القوم سخفاء العقول، بلداء قد أصمهم حب الدنيا وأعماهم الهوى فهم لا يفقهون أسرار أحكام الله أحكم الحاكمين، إلا قليلا، إلا فهما بسيطا لظواهر

الأمور وإلا ومضات ربما تومض في قلوبهم بين الفينة والفينة، ثم سرعان ما يطغى عليها حب المال والميل إلى هوى النفوس فتنطفئ، وكذلك يفعل حب الهوى في قلوب المنافقين والذين في قلوبهم مرض والعياذ بالله، فلا ترى النور إلا ومضات، وأمثال هؤلاء لا يستحقون البسط في الجواب وطول الكلام؛ لأنهم لا يفقهون بل يُقرعون بكلمة الحق الصريحة الموجزة، ثم يُعرض عنهم ويتركون. قال الله تعالى:

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ، أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ترد كلمة المخلفين للمرة الثالثة يصرح بلفظها، وقد كان يمكن الإضمار، ولا يخفى المعنى ولكن الله يريد أن يكررها ليكرّه كلمة المخلفين إلى الناس حتى لا يفكر أحد من المؤمنين بعد هذا في التخلف عن رسول الله ﷺ متى تعين الخروج، يقول الله لنبيه:

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ، أَوْ يُسْلِمُونَ﴾.

قل يا محمد لهؤلاء المخلّفين من الأعراب ستدعون إلى قتال قوم أولي بأس شديد ذوي شوكة ومعرفة بالقتال وصبر على مقارعة الأبطال، تقاتلونهم أو يسلمون، أي حتى يدخلوا في الإسلام أو يموتوا، تُرى من هؤلاء القوم؟ قال بعض المفسرين: هم الروم وفارس، وقال آخرون: هم هوازن وثقيف أهل الطائف، وقال آخرون: هم بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب، ويبدو أنهم بنو حنيفة وقد ظهر فيهم الارتداد وحاربهم المسلمون في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولا مانع أن يكون المراد كل هؤلاء، بنو حنيفة وغيرهم، وقد أبلى من أراد الله به خيرا من الأعراب بلاء حسنا، فاستجابوا لله ورسوله وقاتلوا قتالا شديدا ودخلوا مع النبي ﷺ والمؤمنين في هذه المعارك كلها، وامتثلوا أمر الله.

﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: إن تطيعوا الله ورسوله وتخرجوا للقتال الذي أمرتم به وتقاتلوا أعداء الله يؤتكم الله أجرا حسنا، أي بعد أن يغفر لكم، ويكون هذا القتال كفارة لذنوبكم، وإن تتولوا وتعرضوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما، ليذيقكم جزاء توليكم وعصيانكم، وفي هذا إنذار لكل من يعرض ويتولى عن أوامر الله ويعص الله ورسوله، فليحذر المخالفون لله ورسوله وأولي الأمر من بعد فإن عذاب الله شديد.

﴿لَّيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُّطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَّتَوَلَّ نُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

في الآية السابقة رفع الحرج عن ذوي الأعذار التي تعوقهم عن الجهاد وهم العمي والعُرّج والمرضى، فهؤلاء رفع الله عنهم الحرج، وهو حكم اقتضته رحمة الله بعباده الضعفاء، ولو شاء لكلفهم وأمرهم بالخروج ليقوموا بأعمال أخرى غير القتال كما تخرج النساء لخدمة الجيش، يطبخن طعامهم ويسقين العطاش ويداوين الجرحى، وقد خرج عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه وهو أعمى، خرج في غزوة من الغزوات وحمل الراية واستمات دونها، كما خرج أعرج وشارك في الغزو واستشهد، وروي أن النبي ﷺ قال: «رأيته بعرجته يطأ أرض الجنة».

ثم إن الله ذيّل هذه الآيات السابقة بآية فيها حكم عام للمطيعين فيه بيان نوع الأجر الحسن الذي يؤتيهم الله إياه، وهو دخول جنات تجري من تحتها الأنهار، وحكم عام للمتولين في كل زمان بالوعيد بالعذاب الأليم، وجاء الحكم في صيغة فعل مسند إلى نون العظمة ليدل على تحقق هذا العذاب وأنهم لا يفلتون منه ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا.

وهذه الجملة الأخيرة معطوفة على الجملة التي خوطب بها المخلفون، وجاءت جملة رفع الحرج عن ذوي الأعذار معترضة بينهما ليخرج الله برحمته الضعفاء أهل الأعذار من الوعيد بالعذاب الأليم للمخلفين، ثم إن الله تبارك وتعالى يعلن برضاه للمبايعين على الموت تحت شجرة الحديبية، وإنزال السكينة عليهم بالفتح القريب وبالمغانم الكثيرة، ويمنّ عليهم بنعم أخرى كثيرة، هذا إلى ما أعد لهم من الأجر الحسن الماكثين فيه أبدا.

لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ
عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ
فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ
كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ
ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ
أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ
صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ
ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ
مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا
﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ
وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ
مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ
بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ
سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ
ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ
شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

في هذه الآيات الكريمة من سورة الفتح يعلن الله تعالى رضاه عن المؤمنين الذين يطيعون الله ورسوله، وينصرون الله ورسوله ويبشرهم ببشارات ويمتنّ عليهم بنعمه، وأن سنة الله في نصره لهم وهزم أعدائهم لن تتبدل ولن تتغير، ويعلن سخطه على أعدائه الكافرين، ورأفته على أوليائه المؤمنين والمؤمنات، وأنه ينزل سكينته على رسوله والمؤمنين، وأنهم أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُومنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَاخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

جاء الخبر من الله تبارك وتعالى مؤكدا ليطمئن أولياءه المؤمنين برضاه عليهم حين

كانوا يبايعون رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وذكر الشجرة زيادة في توثيق الخبر وأن الله راض عن المؤمنين إذ يبايعون نبيهم تحت الشجرة على الاستماتة في الدفاع عن دينه، وذكر حين أُشِيعَ أن المشركين قتلوا عثمان الذي أرسله النبي سفيرا إليهم ليحاورهم في أمر العمرة التي جاءوا من أجلها وليس للقتال، فعلم الله ما في قلوبهم من الإخلاص والتفاني في نصرة الله ورسوله، وعلم ما في قلوبهم من الأسف أن يرجعوا على طريقهم ممنوعين من قِبل الكفار من دخول مكة، فأنزل الله سكينته عليهم وأثابهم على إيمانهم وحبهم لله ورسوله والجهاد في سبيله فتحا قريبا، وهو فتح حصون خيبر بعد نحو شهر ونصف، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا قويا غالبا حكيما، يضع الأشياء في مواضعها ويقدّر لعباده المؤمنين ما هو خير لدنياهم وآخرتهم، فليرضوا باختيار الله لهم وليسلموا تسليما، وهذه بشارة من الله لعباده المؤمنين وإثابة للمبايعين رسول الله منحة من الله خالصة لهم.

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

ثم إن الله تبارك وتعالى امتن على عباده المؤمنين الذين نصروا الله ورسوله أن الله وعدهم ووعده الحق فقال: وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها، وهي المغانم التي أخذوها بعد ذلك من هوازن وثقيف بعد فتح الطائف، ثم بعدها مغانم الفرس والروم واليمن والبربر، قال تعالى: فعجل لكم هذه أي مغانم خيبر وكفّ أيدي الناس عنكم، وهم قبائل الأعراب من بني فزارة وغطفان وأسد وبني عامر وهذيل، لقد كان منهم أحلاف اليهود أهل خيبر، وكان في الإمكان أن يتحركوا لنصرة أحلافهم اليهود ولكن الله كفّ أيديهم عن المسلمين وألقى الرعب في قلوبهم فلم يخرجوا للقتال، ولتكون هذه الأمور آية للمؤمنين ويهديهم الله صراطا مستقيما، ونعمة الهداية إلى الصراط المستقيم

أعظم نعمة يظفر بها المؤمنون، ثم قال تعالى:

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدَ اَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

أي ومغانم أخرى ستنالونها قد أحاط الله بها وبأهلها وكان الله على كل شيء قديرا، وهي مغانم الفتوحات المستقبلة في أرض الفرس وأرض الروم وغيرها من بلاد الله في المشارق والمغارب وشمالها وجنوبها، ثم قال تعالى:

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الاَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيرًا سُنَّةَ اللَّهِ التِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾.

إن الله تبارك وتعالى يمتنّ على عباده المؤمنين بنعمة عظيمة وهي نصره إياهم على الكفار وتأييده لهم بحيث أنه لو قاتلهم الكفار لولوهم أدبارهم منهزمين مدحورين ثم لا يجدون لهم وليا ولا نصيرا ينصرهم من دون الله، والخذلان بعد الهزيمة وفقدان الولي والنصير أعظم من الهزيمة نفسها، وتلك سنة الله في أوليائه ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيَ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (المجادلة: ٢١)، ولن تجد لسنة الله تبديلا، تلك سنته في المؤمنين ينصرهم إذا حزب الأمر ولا يخذلهم ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ (الحج: ٤٠)، ثم قال تعالى:

﴿وَهُوَ الذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنَ اَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

يمتنّ الله تعالى على أوليائه المؤمنين في هذه الآية بمنّة أخرى عظيمة فيها صلاح لهم وإبقاء لقوتهم وهيبتهم وهو أن كفّ أيدي المشركين عنهم وأيديهم عن المشركين بعد أن أظفرهم عليهم، ولولا كف الله أيدي البعض عن البعض لاستبكت الحرب ولا تكون لصالح المسلمين، وقد علم الله من المسلمين حماسا ورغبة في القتال والاستشهاد ولكن الله يريد أن يقع عهد التصالح بينهم إلى حين ليتصل الناس بعضهم ببعض فيسمعوا كلام

الله فيهتدوا به فيدخلوا في الإسلام فيكون دخولهم فيه نصرة للإسلام وقوة للمسلمين، وقد وقع ذلك فعلا فدخل رجال صناديد في الإسلام أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل والمثنى بن حارثة الشيباني.

وهناك حكمة أخرى لكف أيدي بعضهم عن بعض سيذكرها تعالى وهي وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات في مكة لو وقع القتال لدهمتهم الحرب مع الكفار، روي أن جماعة من فتيان قريش نحو سبعين أغاروا من جبل التنعيم على المسلمين يريدون إشعال الحرب فأمسكهم المسلمون وأخذوهم إلى النبي ﷺ فأمر بإطلاقهم بعد أظفره الله عليهم، ولولا أن الله وحده كفّ أيدي البعض عن البعض لاشتعلت الحرب إذ كانت دواعيها متوفرة ولكن الله حال بينهم. ثم قال تعالى:

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

لقد كان الله بصيرا بما تعملون لا يخفى عليه من أمركم شيء، وهو عالم الغيب والشهادة، وكان هذا ببطن مكة وهي الحديبية موضع بعض منه في الحل وبعض منه في الحرم، وهو أسفل أودية مكة، وقد اعتاد العرب أن يسموا الموضع المنخفض من المدينة بطنا، والموضع المرتفع منها ظهرا، وكان التذييل بقوله تعالى: وكان الله بما تعملون بصيرا، مناسبا ليشعرهم أن الله بصير بما يجري من المحاورات والمحاولات والمفاوضات، وما هو بغافل عما يعملون، فكل ما جرى من المفاوضات وكتابة المعاهدة إنما هو بعلمه وإذنه، فهو البصير بعاجل أمرهم وآخره، العليم بموارد الأمور ومصادرها.

﴿هُمُ الذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا اَنْ يَّبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّومِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّومِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ، أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَّشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا اَلِيمًا﴾.

يقول الله تبارك وتعالى مخبرا عن قريش وكنانة ومن معهم من الكفار أهل مكة: هم

الذين كفروا وصدوكم، أي منعوكم عن دخول المسجد الحرام، ومنعوا الهدي معكوفا أي محبوسا أن يبلغ محله، ومحل الهدي العمرة عند المروة بعد إتمام مناسك العمرة، أما هدي الحج والتمتع والقران فمحله في منى يوم النحر وأيام التشريق بعده، والمقصود من هذا الإخبار بيان أن الكفار الصادين عن المسجد الحرام يستحقون العقوبة، فليس كفّ أيدي المؤمنين عنهم شفقة عليهم أو خوف أن لا ينصر المؤمنون عليهم والله ناصر جنده، بل لحكمة أخرى أو حِكم يعلمها الله، منها ما صرح بذكره ومنها ما أومأ إليه إيماء، أما التصريح فقوله تعالى:

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

لولا وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات مستضعفين في مكة لم تعلموهم **﴿أن تَطَئُوهُمْ﴾** أي خشية أن تقعوا فيهم قتلا بغير علم فتصيبكم من جراء قتلهم معرّة، أي عار وسبّة يشيعها الكفار في الآفاق أن محمدا ومن معه قتلوا أصحابهم فتحدث إشاعتهم بلبلة في الأفكار، وسلامة المؤمن أحب إلى الله من قتل الكفار.

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

لو انفصل المؤمنون عن الكفار وتباينوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما، أي لسلطناكم عليهم تقتلونهم تقتيلا ونصرناكم عليهم، وقبل هذا قال تعالى: **﴿لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾**، وفي هذا إشارة إلى أن من هؤلاء الكفار من علم الله أنهم سيدخلون في الإسلام ويكونون له أنصارا، ومنهم من سيخرج من أصلابهم مؤمنون ومؤمنات ليدخل الله في رحمته من يشاء من عباده، والأمور كلها بمشيئة الله وقضائه وقدره، وكم في هذه الهدنة من حكم وأسرار، لقد كانت رحمة للمؤمنين والمؤمنات ولمن أراد الله هدايتهم من عباده وإخراجهم من الظلمات إلى النور. ثم قال تعالى:

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ

سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُومِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

في هذه الآية الكريمة يناظر الله بين حال الكفار أهل الجاهلية وحال المؤمنين أهل كلمة التقوى فيبدو الفرق جليا بين حال هؤلاء وهؤلاء، يقول الله تعالى:

﴿إِذْ جَعَلَ الذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

أي ما حملهم على صدّكم عن المسجد الحرام إلا حميّة الجاهلية التي ملأوا بها قلوبهم التي كانت تشتعل حنقا وغيظا فاستنكفوا واستكبروا وصدوكم عن دخول مكة، والحمية تعصب للباطل واستكبار عن الحق يصاحبه حقد وحمو، وما كان عليهم من بأس لو تركوا المعتمرين المعظمين لشعائر الله يدخلون الحرم ويؤدون أعمال العمرة وينحرون الهدي ويطعمونه فقراء مكة ويرجعوا على أعقابهم وما يريدون حربا ولا سوء لأهل مكة، ولكن الحمية في قلوب الكفار كانت سببا في صدهم الحجاج عن المسجد الحرام، وقد نسبها الله إلى الجاهلية تقبيحا وتشنيعا لها ولأصحابها وتحذيرا للمؤمنين أن يتعصبوا لأجل قرابة أو صداقة، بل المؤمن شأنه أن يحكم بالحق ويقول بالقسط ولو على نفسه أو الوالدين والأقربين. قال تعالى:

﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُومِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

أضل الله الكافرين بكفرهم فأنزل سكينته على المؤمنين بإيمانهم، والسكينة ثبات واستقرار وبرودة الطمأنينة إلى ذكر الله ينزلها الله في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، وقد أضافها الله إلى نفسه تشريفا لها ولمن أنزلها في قلوبهم، أنزلها الله على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى، أي جعلها لازمة لهم لا تفارقهم، وكلمة التقوى هي الكلمة الطيبة، كلمة الإيمان، لا إله إلا الله، هي كلمة التقوى، من حققها قولا وعملا واعتقادا كان أحق بها وأهلها، وهو شرف عظيم أن يصف الله عباده

المؤمنين أنهم أهل كلمة التقوى وأنهم أحق بها، وهذا عكس ما جاء في وصف الكافرين أنهم أهل الحمية حمية الجاهلية.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

إن الله تبارك وتعالى كان عليما بخفيات الأمور وجلياتها، عليم بذات الصدور، عليم بموارد الأمور ومصادرها، عليم بكل شيء، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، هو العليم الحكيم يُنزل الأشياء المناسبة في المكان المناسب بالكيفية المناسبة، ونجد الحمية في الآية مسندة إلى الكفار لأنهم هم الذين تشبثوا بها، ووضعوها بكفرهم في قلوبهم، بينما يسند إنزال السكينة إلى الله جل جلاله؛ لأنه الذي يجعلها في قلوب أوليائه المؤمنين، يُصلح الله بالهم بإيمانهم، والله أعلم حيث يجعل سكينته، وهو أعلم بأحوال عباده، وكان الله بكل شيء عليما.

۞ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ
لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ
رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ
مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ
وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

الإشارة في الآية الكريمة إلى رؤيا رآها النبي ﷺ وأخبر بها أصحابه، وقد رآها قبل خروجه إلى عمرة الحديبية، وقيل بعد خروجه وقبل عقد المعاهدة، وذكر أن الله أراه في المنام أنه دخل وأصحابه المسجد وحلقوا رؤوسهم وقصروا، أي كان منهم محلق ومقصر ولم يخبرهم أنه حج أو عمرة، والحلق والتقصير في كليهما فسُرَّ أصحاب النبي ﷺ بهذه الرؤيا وظنوها واقعة في خروجهم هذا، ولما رجعوا من الحديبية من غير اعتمار ولا حلق ولا تقصير ضاقت نفوسهم ولكن الله تعالى ما قال لهم إن دخولهم يكون هذا العام بل كانت بشارة للمؤمنين تشد من أزرهم، وتربط على قلوبهم، وتقوي معنوياتهم في ذلك الخروج، ثم أنزل الله سورة الفتح التي منها هذه الآية الكريمة، وذلك في أثناء الطريق في منصرفهم من الحديبية، وهي سورة مفتتحة بالبشارات، وتحمل في مطاويها أحكاما مفصلة، وفي ختامها تأتي بهذه البشارة المؤكدة في قوله تعالى:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

يأتي الخبر مؤكدا ليزداد المؤمنون إيمانا بأن الله صدقهم ما وعدهم وأنه سينجز وعده؛ لأن الرؤيا كانت حقا لا مرية فيها، ثم جاء دخولهم المسجد الحرام مؤكدا بلام

القسم ليطمئنوا إلى صدق الخبر، وعقب ذكر دخولهم بمشيئة الله ليعلمنا الله الأدب ونعلم أن كل شيء بمشيئة الله "ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن" وهذا كقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى إِلَّا مَا شَاء اللَّهُ﴾ ثم إن الله تبارك وتعالى قرب هذا الدخول بالأمن وعدم الخوف، فقال:

﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ﴾.

يبشر الله عباده المؤمنين أنهم سيدخلون المسجد الحرام آمنين لا يخافون بطش الكفار ولا غدرهم ولا نكثهم في حال ما إذا أبرمت بينهم معاهدة، وهذا فضل من الله على عباده المؤمنين، يتمون منسك العمرة ثم بعد قريب منسك الحج آمنين في جميع مناسكهم حتى يحلقوا رؤوسهم ويقصروا من شعورهم، فمنهم محلق ومقصر، والحلق والتقصير لا يكونان إلا بعد الإتمام، وهذا إشارة إلى إتمام المنسك في أمن وهدوء، ثم أكد هذا الأمن بنفي الخوف لتهدأ الخواطر وتسكن النفوس، فيا لها من منة عظيمة من الله على عباده المؤمنين، ولا تزال البشارات متتابعة، قال تعالى:

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

الفاء هنا للترتيب الذكري لا للتعقيب الزمني؛ لأن علم الله لا يتعلق بزمن دون زمن، بل هو دائم غير محدود، علم الله ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا، أي فتح خيبر بعد شهرين من صلح الحديبية، علم الله أن هذا الفتح القريب أرفق بالمؤمنين، وغنائمه أرفق بأصحاب بيعة الرضوان، فعجل لهم قبل دخول مكة، وعلم الله أن انتصار أهل عمرة الحديبية وهم قلة على يهود خيبر وهو كثرة ولهم شوكة وفيهم أبطال مغاوير، ومن ورائهم أعراب البادية من غطفان، علم الله أن انتصار أولئك القليلين على أهل خيبر الكثيرين ذوي الشوكة سيكون أشد وقعا في قلوب قريش فقدمه على عمرة القضاء حتى تهاب محمدا وأصحابه وتقرأ لهم ألف حساب، كل هذا علمه الله وعلم ما لم نعلم فجعل من دون دخول المسلمين مكة فتحا قريبا.

وخيبر هذه كانت موطن اليهود، حصون متعددة وواحات كثيرة في أرض خصبة، كثيرة المياه، بينها وبين المدينة مائة وخمسون كيلو متر، وكان اليهود يعمرونها منذ القديم، وكانوا أنشأوا فيها رياضا غناء من نخيل وأشجار، ويزرعون أرضها بمختلف المزارع ولكن بقاء هؤلاء اليهود بقرب المدينة كانوا يشكلون خطرا على الإسلام لا سيما وقبائل غطفان ومن معهم كانوا يحالفونهم على عداوة محمد ومن معه فأمر الله نبيه محمدا ﷺ بغزوهم بعد ما أمّن جانب قريش بالصلح الذي عقده معهم، فذهب إليهم بالذين بايعوه تحت شجرة الحديبية ولتكون هذه الغزوة تحقيقا لبيعتهم وفتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها، فضلا من ربهم، وليتخذ منهم شهداء.

وكان أهل خيبر يعدون فيهم عشرة آلاف مقاتل، وفيهم أبطال مغاوير وتؤازرهم من غطفان ومن معها من الأعراب خمسة آلاف مقاتل، ولكن الله تعالى شاء أن ينصر حزبه عليهم وهم قليلون، أقل من العُشر، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٩)، أما الأعراب من غطفان ومن معهم فكفّ الله أيديهم عنه فانسحبوا قبل نشوب المعارك، والسبب في ذلك أن الله بعث فيهم نداء: أدركوا أهاليكم وأموالكم فقد أحاط بها أصحاب محمد، فهرعوا إلى أهلهم مسرعين ولم يرجعوا إلى أحلافهم اليهود، وأما اليهود فقد نشبت بينهم وبين المسلمين معارك وكان من أبطالهم اثنان: مرحب وياسر، وقد بارزهم أبطال المسلمين علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة وغيرهم رضي الله عنهم، وقد روي أن مرحبا خرج ينشد:

قد عرفت خيبر أني مرحبُ   شاكي السلاح بطل مجربُ

فأجابه علي:

أني الذي سمّتني حيدرة   كليث غابات كريه المنظرة

أكيلهم بالطعن كيل السندرة

وبعد جولة أو جولات قتله علي رضي الله عنه فانهدم بقتله ركن من أركان اليهود

ففتح الله أول حصن من حصونهم على يد علي ثم تتابعت الحصون بعد حتى وقعت كلها في أيدي المسلمين، وكان رسول الله ﷺ قد بشّر أصحابه في الليلة التي قبل الفتح أن الله سيفتح الحصن على يد رجل يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله فاشرأبت أعناق الصحابة رضي الله عنهم كل يطمع أن يكون هو الذي يحبه الله ورسوله، ويأتي الفتح على يده حتى جاء علي وهو أرمد العينين قد عصبهما بعصابة فحل النبي عصابته وتفل على عينيه فبرئتا بإذن الله وصارتا كعيني عقاب فلم يمسهما رمد حتى لقي الله، وهذه كرامة للإمام علي كرم الله وجهه، ومعجزة من معجزات النبي ﷺ، وهي من الغيبيات التي أطلعه الله عليها.

ولما تم للمسلمين أمر الفتح قسم رسول الله ﷺ الغنائم على أصحابه أهل بيعة الرضوان وأسهم من خمس الفيء للمهاجرين الذين رجعوا من الحبشة وفيهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وأقر اليهود في خدمة البساتين وعمارتها على أن يكون لهم نصف غلتها، وجعل إقامتهم فيها مؤقتة إلى حين، وقال لهم: «أقرّكم ما أقرّكم الله»، ثم فتح الله على أيدي المسلمين فدك وتيماء ووادي القرى، وهي كلها ديار لليهود فصنع بهم ما صنع مع يهود خيبر من إقرارهم في خدمتها بالنصف من غلالها وإقامتهم إقامة مؤقتة إلى حين.

وأوصى رسول الله ﷺ في مرض موته أن لا يبقى في الجزيرة دينان، وقد أجلاهم عنها عمر بن الخطاب في إمارته رضي الله عنه، ذلك هو الفتح القريب، ثم تتلوها فتوحات وأقربها إليه وأعظمها فتح مكة الذي أرى الله فيه نبيه ومن معه ما يحبون من دينونة قريش ودخول الناس في دين الله أفواجا، وأتمّ الله نعمته على عباده المؤمنين، ورضي لهم الإسلام دينا.

﴿هُوَ الذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

تأتي هذه الآية فذلكة لما تقدم من أول السورة، فكأنها إجمال لما تقدم وخلاصة لمعانيها التي ترمز إلى تحقيق معنى الوحي والرسالة، وتحقيق الهيمنة والعلو لهذا الدين، وفيها تطييب قلب النبي والمؤمنين بما تتابع فيه من البشارات الكثيرة: بشارة الفتح المبين والنصر والتأييد للمسلمين، وتعذيب أعدائهم الكفار والمنافقين الظانين بالله ظن السوء، وبشارته للمؤمنين بالغنائم الكثيرة، وبشارة مغفرة ذنوب النبي ما تقدم وما تأخر وإتمام نعمة الله عليه وعلى المؤمنين، ونصرهم نصرا عزيزا، وإنزال السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا بعد الفتح المبين، ثم بعده فتوحات.

بعد كل هذا يأتي القرار الحاسم الذي لا عوج له ولا مرية فيه ولا ريب، وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ الذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾. هو الله لا غيره أرسل رسوله محمدا بالهدى ودين الحق، والهدى هو القرآن، ودين الحق هو الإسلام، أليس الله هو القائل: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وهو القائل: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: ١٨٥)، وهو القائل أيضا: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الاِسْلاَمَ دِيناً﴾ (المائدة: ٣)، وهو القائل: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الاِسْلاَمُ﴾ (آل عمران: ١٩).

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، أي ليغلبه على سائر الأديان حتى يكون الدين كله لله، فلا يدان لله إلا بدين الإسلام، وقد حقّق الله وعده فأظهر دين الحق على الدين كله، ولا يزال يظهره كلما هبّ المسلمون لنصره وطبّقوه قولا وعملا، ولو أن ملحدا أو زنديقا أو كتابيا قام لمجادلة عالم مسلم لأظهر الله المسلم على الكافر حتى لا تكون له عليه حجة، وسيريهم الله ظهور هذا الدين ويقيم حجته على الناس، أليس الله هو القائل: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣).

ولا يزال الله تعالى يظهر آياته في آفاق السموات وفي مناكب الأرض وفي أجوافها

وفي أجواف البحار، وقد تبين لكثير من علماء الناس آيات الله فأعلنوا إيمانهم بالله ودانوا له بدين الإسلام وصرحوا أن العلم يدعو إلى الإيمان، وألفوا في ذلك كتبا ورسائل ذكروا فيها أن الدين الوحيد الذي ينقذ الناس من الحيرة التي يتخبطون فيها هو دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ وأن النور الذي يضيء لهم طريق الهدى هو القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، فعلى المسلمين أن يوحدوا جماعتهم ويرشدوا الناس إلى الهدى ودين الحق، والله المعين الموفق الهادي إلى سواء السبيل، وقد آن الأوان للمسلمين في هذه الظروف المضطربة الخانقة أن يجهروا بالدعوة إلى دين الله الحق ويصدعوا بما به يؤمرون، مطبقين له قولا وعملا وسلوكا بين الناس، وما أحوج الناس إلى من يريهم حقيقة الإسلام، ويدعوهم بدعوة الله إلى الهدى ودين الحق!

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وكفى بشهادة الله شهادة أن الدين الذي جاء به محمد هو الدين الحق الذي يدان الله به ويرضاه لعباده ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ (الأنعام: ١٩)، وأي شهادة تدني شهادة عالم الغيب والشهادة الذي أنزل القرآن بعلمه، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (الزمر: ٣٢)، فلا عبرة بعد لإنكار الجاحدين، سيلقون جزاءهم يوم القيامة ويكون مثواهم في جهنم وكفى بجهنم سعيرا.

ثم بعد هذا القرار يأتي القرار النهائي في هذه السورة الكريمة الذي يحمل ختم محمد باسمه الصريح يتلوه وصفُ حزب الله الذين يقفون معه صفا واحدا، ينصرون الله ورسوله، ويذكر الله ما أعده لهؤلاء من المغفرة والأجر العظيم، قال تعالى:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ

السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الانجيلِ كَزَرْعٍ اَخْـرَجَ شَـطْأَهُ فَئَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

محمد رسول الله، هذه هي الجملة الثانية من كلمة التقوى، والجملة الأولى مضت في السورة السابقة لهذه السورة، وهي قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمَ اَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ وجاء في الحديث الصحيح: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله» وهي الكلمة الطيبة التي هي كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وللعلماء أهل اللغة والتفسير قولان في إعراب جملة محمد رسول الله، فبعضهم قال: هي جملة مستقلة ذات مبتدأ وخبر، والبعض الآخر قال: هذه الجملة "محمد رسول الله" مبتدأ والكلمة التي بعدها خبر لها، وهي قوله تعالى: "أشداء على الكفار رحماء بينهم..." الآية.

والذي أختاره وأرجحه أن تكون هذه الآية جملة مستقلة بنفسها، محمد مبتدأ ورسول الله خبر له، وكفى شرفا واصطفائية أن يكون محمد رسول الله، فنسبة الرسالة إلى محمد ﷺ تضفي عليه كل ثناء جميل وكل شرف أصيل، فكفاه شرفا أن يصطفيه الله رسولا، والرسول على قدر المرسل، ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج: ٧٥)، ولنترك الألباب تتأمل في معاني هذه الاصطفائية المستوحاة من قوله تعالى: **﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾**، وهي الشهادة من الله وكفى بالله شهيدا، فلا يضره بعدها إنكار المنكرين وجحود الجاحدين.

ثم تأتي الجملة الثانية وهي قوله تعالى:

﴿وَالذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

كما أن الله اصطفى محمدا بالرسالة وجعله خاتم النبيين وأفضل الخلق على

الإطلاق، كذلك اصطفى الرعيل الذين اختارهم لمعيته وهم صحابته الكرام المهاجرون والأنصار، فأضفى عليهم هذه الأوصاف المختارة ومدحهم بها ليقتدي بهم الذين يأتون من بعدهم.

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

وصف الله المؤمنين بخصلتين عظيمتين هما الشدّة على الكفار، والرحمة بين المؤمنين، فهم أشداء على الكفار في الحرب لا تأخذهم في الله لومة لائم، رحماء بالمؤمنين، ويأتي هذا الوصف في آية أخرى بصيغة أخرى، وذلك قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٥٤)، وهما صفتا كمال، فليس شدتهم تعدو الكافرين إلى المؤمنين وليست رحمتهم وذلتهم تعدو المؤمنين إلى أعداء الله الكافرين، وكذلك يجب أن يكون المؤمنون من بعدهم.

﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾.

يضرب الله تعالى مثلهم في التوراة أنهم يجتهدون في الركوع والسجود يبتغون فضلا من الله ورضوانا، فهم يمتازون بصلاة ذات ركوع وسجود، يخلصون في أداء عبادتهم لله وحده يبتغون وجه ربهم الأعلى.

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.

ليست السيمى هنا هي ما يتركه السجود من أثر في جبهة الساجد، بلا علامة يدركها أولوا الألباب في وجوه الساجدين، فهم يمتازون بسيما التقوى على أوجههم نور يدركه المؤمنون، ترى هذا النور على وجوه الأبرار حتى ولو كانوا زنوجا سود البشرة، وترى ظلاما وسوادا على وجوه الفساق تاركي الصلاة ولو كانوا بيض الوجوه مترفين.

وصف الله المؤمنين بهذا الوصف العظيم بعد وصفهم بالشدّة على الكفار حتى لا

يظن أحد أنهم تطغيهم شدتهم وتنسيهم عبادة الله والتذلل له والتضرع إليه بالبكاء والخضوع في السجود والركوع، فهم قد وهبوا أنفسهم وباعوها لله واستعذبوا الموت في سبيله يطلبون الموت كما يطلب غيرهم الحياة، لا يعرف الجبن إلى قلوبهم سبيلا، تلك هي خصال حزب محمد ﷺ وذلك مثلهم في التوراة، شدة في مواضع الشدّة، وشجاعة في القتال ولين في مواضع اللين والرحمة، وتذلل لله ربهم، وركوع وسجود له أضفى على وجوههم نورا يعرفون به.

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الانجِيلِ كَزَرْعٍ اَخْرَجَ شَطْأَهُ فَئَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾.

يضرب الله مثل المؤمنين في كتابه الإنجيل بالزرع الطيب في الأرض الطيبة في أبهى صوره وأروعها وأكملها، مثلهم كمثل زرع نبت في أرض طيبة نباتا حسنا فأخرج شطئه، والشطء هو الفروع التي تنبت بجانبي قصبة الزرع فتقويه وتشد من أزره، وتضاعف غلته وتنميها، وفي مثل هذا المعنى يقول الله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ﴾ (البقرة: ٢٦١)، فالمسلمون الأوائل كالزرع الطيب النابت والذين التحقوا بهم كالشطء الذي آزره، فقد نما بهم عدد وتكاثر، وبارك الله في الجميع، وغاظ بهم الكفار لأن الكفار يسوؤهم نمو عدد المسلمين وتكاثر جموعهم، يقوّي بعضها بعضا، والذي يغيظ الكفار يزيد المؤمنين قربا عند ربهم، ويكتب لهم بذلك عملا صالحا، ويجزيهم به جزاء حسنا.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الذينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

تختتم السورة الكريمة ببشارة المؤمنين الذين يعملون الصالحات كما افتتحت ببشارة النبي ﷺ بالفتح المبين ومغفرة الذنوب ونصر الله العزيز، وهداية الله إياه صراطا مستقيما، وإنزال السكينة على المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، والآية ككثير من

أخواتها تركز على العمل الصالح وتبين أن الإيمان لا يتم إلا بالعمل الصالح، وأن وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم الذي هو الخلود في الفردوس للذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات من الإتيان بالفرائض وأداء الحقوق والواجبات، واجتناب الآثام والمحرمات، فليس مجرد الانتساب إلى حزب الله كافيا حتى يصحبه الإيمان الصادق والعمل الصالح، والاستقامة على الطريقة كما أمر الله، ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ (هود: ١١٢)، فإذا حصلت الاستقامة تحقق وعد الله للمسلمين بمغفرة الذنوب والأجر العظيم.

نسأل الله أن ينزل السكينة في قلوبنا ويجعلنا من المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ويجعلنا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، ونختم تفسيرنا لما تيسير لنا تفسيره لهذه السورة العظيمة بالدعاء الذي علمنا الله أن ندعوه به لنا ولهؤلاء الصحابة الكرام: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحجرات مدنية

وآياتها ١٨

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ
فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ
لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ
قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤
وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ
رَّحِيمٞ ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن
تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦
وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ

إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨

هذه السورة الكريمة تسمى سورة الحجرات لذكر الحجرات فيها ، وهي من السور المدنية ، وآياتها ثماني عشرة آية ، وهي من أعظم سور القرآن لما فيها من أسس التربية الخلقية للفرد والمجتمع ما لو حافظ عليه الناس ، لكوّن من مجموعهم مجتمع مثالي سعيد خال من المشاكل التي ظل العالم البشري غارقا فيها يلتمس لها حلا ولا حل إلا في نظام الإسلام وتربية القرآن ، فهل آن لعقلاء العالم وعلمائه أن يرجعوا إلى تربية كتاب ربهم ويحكموا قانونه القويم ، ويومئذ يشعرون بالسعادة ويتخلصون من مشاكلهم في الدنيا ويسعدون في آخرتهم سعادة الأبد ، وذلك هو الفوز العظيم.

ولنسمع لما كتبه الشهيد سيد قطب - رحمه الله- في ظلال القرآن في ملخص معاني سورة الحجرات حيث يقول : "هذه السورة لا تتجاوز ثماني عشرة آية ، سورة جليلة ضخمة تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة ، ومن حقائق الوجود والإنسانية ، حقائق تفتح للقلب والعقل آفاقا عالية وآمادا بعيدة وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة ، ومعاني كبيرة ، وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم وقواعد التربية والتهذيب ، ومبادئ التشريع والتوجيه ما يتجاوز حجمها وعدد آياتها مئات المرات ، وهي تبرز أمام النظر أمرين عظيمين للتدبر والتفكر ، وأول ما يبرز من مطالعة السورة هو أنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة لعالم رفيع كريم نظيف سليم ، وهي متضمنة للقواعد والأصول والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم ، والتي تكفل قيامه أولا وصيانته أخيرا ؛ ويمكن أن نعتمد على هذه السورة لإنشاء مثل هذا العالم ثم لصيانته وحفظه حتى يطول أمد وجوده ، عالم يصدر عن الله ويتجه إلى الله ، ويليق أن ينتسب إلى الله ، عالم نقي القلب ، نظيف المشاعر ، عف اللسان ، وقبل ذلك عف السريرة ، عالم له أدب مع الله وأدب مع رسوله ، وأدب مع نفسه ، وأدب مع غيره ، أدب في

هواجس ضميره، وفي حركة جوارحه، وفي الوقت ذاته له شرائعه المنظمة لأوضاعه، وله نظمه التي تكفل صيانته، وهي شرائع ونظم تقوم على ذلك الأدب، وتنبثق منه، وتتفق معه، فيتوافق باطن هذا العالم وظاهره وتتلاقى شرائعه ومشاعره، وتتوازن دوافعه وزواجره، وتتناسق أحاسيسه وخطاه، وهو يتجه ويتحرك إلى الله، ومن ثم لا يوكُل قيام هذا العالم الرفيع الكريم النظيف السليم وصيانته لمجرد أدب الضمير ونظافة الشعور، ولا يوكل كذلك لمجرد التشريع والتنظيم بل يلتقي هذا بذلك في انسجام وتناسق، كذلك لا يوكل لشعور الفرد وجهده، كما لا يترك لنظر الدولة وإجراءاتها، بل يلتقي فيه الأفراد بالدولة والدولة بالأفراد، وتتلاقى واجباتهما ونشاطهما في تعاون واتساق... إلخ... إلخ". اهـ.

﴿يَآ أَيـُّهَا الذينَ ءَامَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّـهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يوجه النداء في أول هذه السورة إلى الذين آمنوا لأنهم هم الذين يسمعون ويطيعون وينتفعون بالأمثال لإيمانهم، ينهاهم الله أن يقدموا بين يدي الله ورسوله، فالمؤمن يخضع خضوعا كاملا لأوامر الله ورسوله، ويستسلم لأمر الله ويسلّم لحكمه تسليما، ولا ينصب رأيه حكما بعد أمر الله والرسول، ولا تكون له إرادة مع الله بل يخضع لإرادة الله ويقبل أمر الله، ويطيع الله ورسوله، ويحتكم إلى حكم الله ورسوله، ولا يرضى بحكم سواه، فلا يحرم ما أحل الله ولا يحلل ما حرم الله، ولا يبتُّ في أمر حتى يسأل أهل الذكر، ولا يخترع الأقيسة الباطلة ليتحلل من قيود الشرع، كما فعل الكفار حين قيل لهم إن الربا حرام فقالوا: ما هو إلا نوع من البيع، وما المانع إذا رضيه الطرفان؟ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة: ٢٧٥)، فلا أظلم ممن يشرع للناس غير ما شرع الله أو يريد أن يتحلل مما شرع الله.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يعقب الله نهيه بالأمر بالتقوى حتى نتقي سخطه وعقابه، ونعلم أن التقديم بين يدي الله ورسوله ينافي تقوى الله، فلا نعبد الله إلا بما شرع، ولنعلم أن الله سميع لأقوالنا، عليم بما في قلوبنا، لا تخفى عنه خافية، فمن كان مؤمنا حقا فهو يتقي الله ربه، ويراقب أقواله وأفعاله، وخواطر قلبه، ويخضع لأوامر ربه ويتبع صراط الله المستقيم، ولا يتبع السبل فتفرق به عن سبيله.

﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيءِ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ اَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾.

النداء الثاني من الله تبارك وتعالى للذين آمنوا، فيه نهيهم أن يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي، أو يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض، وفيه تحذيرهم إن فعلوا ذلك أن تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون، وقد يتساءل السامعون ويظنون أن النهي الأول يكرره النهي الثاني، فكأن في الكلام تكرارا والحقيقة خلاف ما يظنون، فإن مفاد النهي الثاني غير الأول، فالأول فيه النهي أن يرفع المؤمنون أصواتهم في مخاطبة بعضهم بعضا بمحضر رسول الله ﷺ، والثاني فيه النهي أن يجهر له بالقول في مخاطبته ﷺ، وكلا الحالين مخالف للأدب، فالمطلوب من المؤمن أن يتأدب مع رسول الله ﷺ ويخفض عنده صوته ويحترمه ويوقره، وتوقيره من توقير الله؛ لأن الله اصطفاه رسولا، وفضله على سائر خلقه تفضيلا، وألقى عليه قولا ثقيلا، فهو قائم بأمانة الله، مبلغ لرسالاته، يجب أن يعزر ويوقر ويحترم، ويجب على المؤمنين أن يتأدبوا عنده بأدب خاص، ولا يرفعوا أصواتهم عنده، ولا يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض، فإن ذلك محبط لأعمالهم، قال تعالى:

﴿اَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾.

أي خشية أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون بذلك، وهذا من الله وعيد غريب، فيه زجر شديد للمؤمنين لأن المؤمنين يرجون ثواب أعمالهم عند الله ويخافون حبوطها، وما أعظم تأثر صحابة رسول الله ﷺ بهذا الوعيد حتى أن أحدهم وهو ثابت بن قيس بن الشماس رضي الله عنه، وكان في سمعه ثقل فكان يرفع صوته فحزن حزنا شديدا لنزول هذه الآية، وظن أن قد حبط عمله، فمكث في بيته حزينا يبكي على حاله، فافتقده النبي ﷺ فأخبر بحاله فدعاه وطمأنه وبشره، وقال له: إنك من أهل الجنة، فسري عنه، وقد كتب الله له الشهادة في حروب أهل الردة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، مات شهيدا في حرب اليمامة، وكان بطلا من أبطال الأنصار، رضي الله عنه، وكان هو الخطيب الذي كان النبي ﷺ يقارع به الخطباء، كما كان حسان بن ثابت هو الشاعر الذي يقارع به الشعراء.

وهكذا كان صحابة رسول الله رضي الله عنهم يتأثرون بموعظة القرآن الكريم، ويسارعون إلى امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ويتأدبون مع رسول الله ﷺ ولا يقدمون بين يدي الله ورسوله، وربما يسألهم النبي ﷺ عن الشيء فيقولون: الله ورسوله أعلم، حتى ولو كان لهم به معرفة كما فعلوا لما سألهم عن اليوم والشهر والبلد في خطبته في منى يوم الحج الأكبر، قالوا: الله ورسوله أعلم، فأجابهم بالجواب المعروف الذي يقول فيه: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا...» الحديث.

﴿إِنَّ الذينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الذينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ انَّ الذينَ يُنَادُونَكَ مِن وَّرَآءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ وَلَوَ انَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

طريقة القرآن في تربية المؤمنين طريقة ازدواجية، أنزله الله كتابا مثاني، تقترن فيه

آيات الوعد بآيات الوعيد، ويعقب فيه ذكر الأبرار وصفاتهم بأعمال الفجار أو العكس، وفي هذه الآيات يأتي ذكر الأبرار الذين يتأدبون مع رسول الله ﷺ وذكر ثوابهم، ويأتي ذكر الذين لا يعقلون ولا يتأدبون مع رسول الله ﷺ، وفي أسلوب هادئ لطيف معقب بذكر مغفرة الله ورحمته، وذلك ترغيبا للناس أن ينتهجوا نهج الأدب الرباني مع رسول الله ﷺ.

﴿إِنَّ الذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

الغض هو الخفض والتنقيص من الشيء، إن الذين يغضون أصواتهم أي يخفضون أصواتهم عند رسول الله احتراما له وتوقيرا وتأدبا، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، الإشارة بأولئك تعظيما لشأنهم وتنويها بهم، والامتحان هو الابتلاء والاختبار، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم ومحضها للتقوى، فهي قلوب مخمومة صادقة التقوى، وقد نسب الله التقوى للقلوب لأنها محل التقوى والله عليم بذات الصدور.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أثبت الله لهم كرامتين جزاء لهم على تقوى قلوبهم الممتحنة، وهما مغفرة الذنوب والأجر العظيم الذي هو الخلود في جنات عدن، وتلك هي الغاية التي يصبوا إليها كل مؤمن، مغفرة الذنوب تكون بها النجاة من العذاب، والأجر العظيم يكون بدخول الجنة.

﴿إِنَّ الذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَّرَآءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾.

إن الذين ينادونك بأصوات مرتفعة من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون، ولو عقلوا لخفضوا أصواتهم وصبروا حتى تخرج إليهم.

﴿وَلَوَ انَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَّحِيمٌ﴾.

ولو أنهم عقلوا وصبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم عند الله، والله غفور واسع المغفرة، غفار الذنوب، رحيم واسع الرحمة، يتجاوز عن عباده ويعلمهم ولا يؤاخذهم بكثير من أخطائهم وخطاياهم، وقد روي أن الآية نزلت في قوم من بني تميم جاءوا إلى المدينة وسألوا عن الرسول ﷺ فقيل لهم: إنه في إحدى حجراته والوقت وقت المقيل، فأقبلوا ينادونه من وراء الحجرات بأصواتهم المرتفعة: يا محمد اخرج إلينا، فأنزل الله الآية تقريعا لهم وتأديبا للناس.

وبهذه الآية يتم عرض ثلاث حالات لا ينبغي للمؤمن العاقل أن يتصف بها، الحالة الأولى رفع الأصوات عند رسول الله ﷺ، والحالة الثانية: الجهر له بالقول عند مخاطبته كمخاطبة أي واحد من الناس، الحالة الثالثة: النداء له من وراء الحجرات وهو في قيلولته أو مبيته، وهذا لا ينبغي للعاقل أن يصنعه، غير أن الله هنا حكم على أكثرهم بنفي التعقل ولم يطلق الحكم إطلاقا على الجميع؛ لأن الله يعلم أن منهم من لم يرفع صوته بالنداء، وربما يكون منهم من أنكر ذلك، والله لا تخفى عنه خافية، والله يحب العدل ويأمر به.

وكم لهذه النكتة في كتاب الله من نظائر، وقد استنبط العلماء من هذه الآيات استحباب التأدب عند العلماء؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء، وكان السلف ينتظرون العلماء في أفنيتهم الساعات الطوال ينتظرون خروجهم ولا ينادونهم من وراء بيوتهم، ويتأدبون في مخاطبتهم امتثالا لما تشير إليه هذه الآية؛ لأن رفع مقام العلماء وجعلهم ورثة الأنبياء وخلفاءهم من بعدهم فليوقروا، وتوقيرهم من توقير الله، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم.

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمَۢا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾.

النداء الثالث الموجه من الله لعباده الذين آمنوا هو هذا النداء العظيم الذي يوجههم فيه إلى التعقل والتثبت في الأخبار الواردة حتى لا يتورطوا في الظلم الذي يفتح أبواب الفتن ويخرب الديار، ويهلك الحرث والنسل، النهي يتوجه إلى الناس جميعا رجالهم ونسائهم، أفرادهم وجماعاتهم، من أبسط شخص من سواد الناس إلى أكبر قاض أو سلطان أو رئيس، والنهي أيضا يشمل نقلة الأخبار المثيرة لحنق القلوب، ويسميهم فساقا إذا نقلوا الأخبار المكذوبة أو المثيرة للضغائن، فهم بفعلهم هذا نمامون فساق، والنمام فاسق ولو كان صادقا، والذي ينقل كل ما سمع من الأحاديث من غير تثبّت كاذب ولو لم يفتر الكذب من عنده، وكفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع.

ففي الآية تحذير للقائلين أو الناقلين أن ينقلوا كل ما سمعوا أو يزيدوا فيه، وفيها نهي للسامعين أن يصدقوا كل ما قيل لهم، بل هم مأمورون بالتبيّن ولو سلك الناس وقضاتهم ورؤساؤهم هذا المسلك المحمود لانسد تسعون بالمائة من أبواب الشر، وكثيرا ما أصاب قضاة ورؤساء ومسؤولون وغيرهم ناسا بأحكام قاسية بسبب التسرع في قبول الأخبار وعدم التثبّت والتبيّن، قتلت نفوس بريئة، وهتكت أعراض نظيفة، وأكلت أموال بغير حق.

﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾.

أي تبينوا قبل أن تعزموا على التحرك للانتقام حتى لا تصيبوا قوما بجهالة، والجهالة هنا هي الاندفاع والهجوم للانتصاف والانتقام، وهي ضد الحلم، وليست هي الجهل الذي هو نقيض العلم، وقد تكون محمودة في بعض المواطن، ولكن يجب فيها التريّث والتبيّن حتى لا تفضي إلى ظلم، وفيها يقول الشاعر:

لئن كنت محتاجا إلى الحلم إنني إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج

وقال عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلـــن أحـــد علينـــا فنجهـــل فـــوق جهـــل الجاهلينـــا

وكثيرا ما يندفع المرء بجهالة قبل التبيّن فيصبح نادما على فعلته ويتحمل عواقبها ولات مندم، ولذا قال تعالى يحذرّنا عاقبة الندم: ﴿فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾. وروي أن سبب نزول الآية أن النبي ﷺ بعث رجلا أحسبه الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى قوم أسلموا ليجمع صدقاتهم ويأتي بها إلى المدينة، والقوم هم بنو المصطلق، فلما وصل عندهم خرجوا ليستقبلوه فظن أنهم خرجوا إليه ليقاتلوه، وكان بينه وبينهم في الجاهلية شيء فرجع مسرعا إلى المدينة فأخبر النبي ﷺ أنهم خرجوا إليه ليقاتلوه ويمنعوه من جباية الزكاة، فتحمس بعض الصحابة لقتالهم؛ ولكن النبي ﷺ أرسل رجلا آخر وهو خالد ابن الوليد ليتثبت من أمرهم فوجد القوم على عكس ما ذكر الوليد، خرجوا إليه مستقبلين له مرحبين به، مؤدين ما وجب عليهم من الصدقات، فأنزل الله الآية، والعبرة دائما بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ثم قال تعالى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الاَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الايمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

يقول الله: واعلموا أن فيكم رسول الله الذي أيده بالوحي وسدده في جميع أموره فاتبعوه واستمسكوا بهديه، ولا تحملنكم الغيرة على نصرة دينه أن تتجاوزوا أمره أو تتسرعوا لأمر دونه، وتحملوه حملا على أمر لم يتبين له فيه رأي، فإن ذلك يوقعه ويوقعكم في عنت، والله لا يريد إعناتكم.

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الاَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾.

لو يطيعكم رسول الله في كثير من الأمور لوقعتم في المشقة والحرج، وربما تتعرضون

للندم والهلاك، فكونوا عند إرشاده وتوجيهه ترشدوا، وتصيروا إلى حسن العواقب، لقد كان لهم من حب الله ورسوله وكراهية الكفر والفسوق ما يدفعهم بدافع الغيرة على دين الله إلى استعجال البتّ في بعض الأمور قبل التبين فيها، ولذا جاء هذا الاستدراك اللطيف من قبل ربهم الذي يعلم ما في قلوبهم، فقال:

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الايمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾.

حبّب الله الإيمان إلى أصحاب رسول الله ﷺ وزينه في قلوبهم فهي ترتاح إلى أفعال الإيمان وأخلاق القرآن، وتراها زينا وجمالا وشرفا، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، فقلوبهم تكره الكفر والكفار والعصاة وتنفر من المعصية والفسوق، ومن كان كذلك قال الله فيه: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾. هم المهتدون على صراط مستقيم، إن الله يقرهم على هذه الخصال التي تبعثهم على الحدّة في الله، ويمدحهم عليها غير أنه يكفكف من غرب حدتهم وغيرتهم، ويردهم إلى اتّباع رسول الله والنزول عند أوامره وإرشاداته، وأن لا يقدموا عليها آراءهم واقتراحاتهم فهو رسول الله يوحى إليه، وهو مع الوحي ذو عقل حصيف، يستبطن النظر في عواقب الأمور ما يبين له الرشد من الغي، والصلاح من الفساد، وربما يستشير أهل النهى من صحابته كما أمر الله، وربما ينزل عند رأي بعضهم، هذا في غير الأمور التي يوحى بها إليه، فليردوا بكل طمأنينة وارتياح كل أمورهم إليه وليثقوا بعد ذلك بحكمه وعلمه. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣).

وهكذا نجد آيات الله في كتابه الكريم ترشد إلى الكمالات، وتقر المؤمنين على خصال الإيمان وتتمم مكارم الأخلاق، ذلك هو القرآن العجب الذي يهدي إلى الرشد، من اهتدى بهديه رشد، ومن قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن دعا به هدي إلى صراط مستقيم.

﴿فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

لقد كان تحبيب الإيمان في قلوبهم وتزيينه فيها، وتكريه الكفر والفسوق والعصيان فضلا من الله، تفضّل الله به على عباده المؤمنين ونعمة أنعم بها عليهم، وكان فضل الله على المؤمنين عظيما، فالمنّة لله على المؤمنين وعليهم شكر ربهم على نعمة الإسلام، والله عليم بإيمانهم، حكيم يفيض من حكمته على من يشاء من عباده، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا.

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا
عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ
فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ
(٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ
عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا
مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ
الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

من المقاصد الكبرى في الشريعة الإسلامية الدعوة إلى وحدة المسلمين، والنهي عن التفرق والتنازع، ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران: ١٠٣)، وقال في آية أخرى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦)، وامتنّ الله تبارك وتعالى على نبيه بتأليف قلوب أصحابه من حوله فقال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٣)، لذا أنزل الله هذه الآيات الحكيمة يرشدنا فيها إلى إصلاح ذات البين وإطفاء نيران الفتن والحروب التي ربما تثور بسبب أو آخر، وربما يكون سببا تافها تنفخ فيه شياطين الإنس والجن فيشتعل ويعظم، فأمرنا بالمسارعة إلى الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُومِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتِ احْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا التِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُومِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

الطائفة تطلق على فئة وعلى واحد له مميزات تعزله عن الطائفة الأخرى، فإن تنازع طائفتان من المؤمنين فأفضى بهما النزاع إلى الاقتتال وجب على أهل الحل والعقد أن

ينهضوا للإصلاح بينهما، وسمى الله الطائفتين المقتتلتين مؤمنين مراعاة للحالة السابقة لهما، ولأنه لا يتبين لنا أول الأمر من الباغي منهما ومن المظلوم المبغى عليه، فناسب أن يبقيهما على الأصل الذي هو الإيمان، وقد يلتبس الأمر حتى عليهما فيظن كل فريق منهما أنه على الحق، فاقتضى الأمر ألا نسارع إلى الحكم قبل التبيّن، بل أمرنا أن نسارع إلى الإصلاح وكف بعضهما عن بعض حسما للنزاع، وحقنا للدماء.

﴿فَإِن بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا التِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

فإن بغت إحدى الطائفتين على الطائفة بأن أصرت على القتال بغيا وعدوانا فقاتلوا الطائفة الباغية حتى تقلع عن غيها وترجع إلى أمر الله، وتخضع لحكمه، فإن فاءت ورجعت فأصلحوا بينهما بالعدل، فالإصلاح الأول هو كف بعضهما عن بعض ونهيهما عن القتال؛ لأن قتال المؤمن كفر، والإصلاح الثاني الذي يكون بعد الفيء إنما يكون بالنظر في صلب القضية وفرز المحق من المبطل، والظالم من المظلوم، وتقويم الديات والأموال، وإنصاف المظلوم من الظالم بالعدل، ولإقرار العدل جاء الأمر بالإقساط ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ أي كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، ولا تميلوا مع القوي فتظلموا الضعيف، ولا مع الفقير فتأخذوا له من الغني أكثر من حقه، ﴿إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ (النساء: ١٣٥)، وبعد الأمر بالإقساط يأتي تذييل الحكم بقوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

إن الله يحب القائمين بالقسط، سيجازيهم على فعلهم ويجزل لهم الثواب، ولا شك أن العاقل يفهم من هذا الحكم أن الله لا يحب الجورة الظالمين، فمن أراد أن يظفر بمحبة الله وينجو من عذاب الله فليسع في إصلاح ذات البين، وليكن قواما بالقسط.

﴿إِنَّمَا الْمُومِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ﴾.

ثم يأتي الحكم الحق من الله العلي الكبير أن المؤمنين إخوة كأخوة النسب، ويأتي الحكم مقصورا بإنما فليسوا إلا أخوة يجب أن يكون بينهم من التناصر والتعاطف والتراحم والتكافل ما يكون بين أخوة النسب، ولذا فلو وقع بين طائفتين منهم أدنى نزاع وجب على إخوتهم المؤمنين أن يسارعوا إلى الإصلاح بينهم وحسم النزاع قبل أن يتفاقم الأمر.

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.

يأتي الأمر الصارم من الله جل جلاله مرتبطا بالفاء السببية، فأصلحوا أيها المؤمنون بين أخويكم، الإصلاح الأول الذي هو حسم النزاع وإيقاف القتال، والإصلاح الثاني الذي هو القيام بالعدل بين الفئتين المتخاصمتين، وقد جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «ألا أدلكم على أفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة! قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إصلاح ذات البين...» الحديث.

ولأجل التراحم بين الإخوة المقتضي للإصلاح والتأليف بين القلوب المتنافرة يأتي قوله تعالى:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وعد من الله تعالى للمؤمنين القائمين بإصلاح ذات البين أن الله سينزل عليهم الرحمات، وأن الرحمن الرحيم سيرحمهم في الدنيا والآخرة، وفي الآية تعبير أن إصلاح ذات البين برهان على تقوى القلوب الموجبة لرحمات الله.

﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَنْ يَّكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَنْ يَّكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِيسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الاِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

هذا النداء الرابع من ربنا تبارك وتعالى لعباده المؤمنين، يأتي بعد النهي عن خصال ثلاث هي تقويض لبناء المجتمع ونقض لأواصره، ينبغي للمؤمنين أن يطهروا ألسنتهم من التفوه بها لأنها ليست من شأن جماعة متوالية متراحمة متحابة، يحترم بعضها بعضا، المجتمع المسلم مجتمع متماسك كالبنيان يشد بعضه بعضا، يجب أن يتنزه عن العبارات التي تجرح القلوب وتحدث الشقاق والشحناء، وليس شيء كالسخرية واللمز والتنابز بالألقاب يغير القلوب، ويهيج الشر والفتن والعداوات، ولذا جاء النهي عن هذه الخصال، والنهي في القرآن يدل على الحرمة، فلنجتنبها.

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَنْ يَّكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَنْ يَّكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

النهي يوجه إلى الذين آمنوا عموما لأنهم المنتفعون بالخطاب ولأنهم لن يكونوا مجتمعا مترابطا سليما نظيفا إلا إذا اجتنبوا هذه الخصال التي يأتي النهي عنها، ويسند النهي إلى قوم ثم إلى نساء، والقوم في لغة العرب هم الرجال خاصة، وقد يدخل النساء بالتغليب، قال زهير بن أبي سلمى:

وما أدري ولست أخال أدري ... أقوم آل حصن أم نساء

لا يسخر قوم من قوم، أي لا يسخر رجال من رجال عسى أن يكون المسخور به خيرا من الساخر، ولا يسخر نساء من نساء عسى أن يكون المسخور بهن خيرا من الساخرات، وهذه الخيرية أمر غيبي لا يعلمه إلا الله، والسخرية هي التعيير والتنقيص وإبراز عيوب المسخور به، وربما تكون بقلب المحاسن مساوي، ومعناها متداول معروف.

يتوجه النهي إلى القوم وهم الرجال ثم النساء؛ لأن السخرية تجري عادة بين أفراد الجنس الواحد ولا تجري بين الرجال والنساء مختلطين، وكثيرا ما تقع السخرية بين النساء

حين يعجب الساخرات بجمالهن وحللهن وذهبهن، فيحتقرن المحرومات فيسخرن بهن، فوجه الله النهي إليهن وحذرّهن من السخرية إذ ليس من شأن المؤمنة المتواضعة أن تسخر من أختها المؤمنة، وربما تكون خيرا منها عند الله، وقد جاء في الحديث الصحيح: «رُبَّ ذي طِمرَينِ أشعث أغبر لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبرّه».

﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾.

اللمز هو النطق بالكلام الذي فيه طعن للملموز، ومن لمز أخاه المسلم فقد لمز نفسه؛ لأن المسلمين جسد واحد، ولذا قال تعالى: ولا تلمزوا أنفسكم، وهذا كقوله: ﴿وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ (البقرة: ٨٤)، فليس من شأن المؤمن أن يكون همازا ولا لمازا ولا عيابا ولا فحاشا.

﴿وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾.

النبز هو الرمي، فالله تبارك وتعالى ينهى المؤمنين أن يرمي بعضهم بعضا بالألقاب القبيحة التي لا يرضى المرء أن يسمى بها لأنها فيها المنقصة والذم، ولفظ النبز يشعر بهذا لأن الألقاب الحسنة ليس فيها نبز ولا ذم، فلا يجوز النبز بالألقاب إلا إن كانت قديمة وعرف بها أصحابها، فهي حينئذ للتعريف لا للتعيير والذم، وكانت العرب تكني من تريد تكريمه، تكنيهم بأبنائهم أبو فلان وأم فلان، أو تكني بما يشعر بالمدح كأبي بكر وأبي حفص وأبي الحكم وأبي الفضل وأم الخير، أما اللقب المزري فهو ظلم، ويخرج النابز من الإيمان إلى الفسق والظلم، قال تعالى:

﴿بِئسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

لما كانت الآية في النهي عن التعيير بالألقاب وهي أسماء ناسب أن يأتي اللفظ بتقبيح اسم الفسوق بعد الإيمان، فما أقبح أن يسمى النابز فاسقا بنبزه بعد أن كان مؤمنا، ومن لم يتب من ذنبه هذا ويستغفر فأولئك هم الظالمون، لم يكتف بتسميتهم ظالمين حتى قصر الظلم فيهم بالإتيان بضمير الفصل بعده الخبر المعروف، هذا ليقرر في

النفوس أن التنابز بالألقاب ظلم يستحق صاحبه العقوبة بلا ريب، ولا ينجيه منها إلا التوبة والاستغفار والإقلاع عن هذا الطبع اللئيم.

فمن حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يحترمه ويكرمه ولا يدعوه إلا بأحب أسمائه إليه، وويل لكل همزة لمزة، كثير الهمز واللمز والسخرية بالضعفاء من الناس أعد الله له الحطمة التي هي نار الله الموقدة التي تطلع على أفئدة المتكبرين الهمازين اللمازين، إنها عليهم مؤصدة في عمد ممددة، نعوذ بالله من عذاب الله.

﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ، أَنْ يَّأكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيِّتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

النداء الخامس من نداءات هذه السورة الكريمة ينادي به الله عباده المؤمنين ليأمرهم بأمرين وينهاهم بنهيين، يأمرهم باجتناب كثير من الظن وبتقوى الله تبارك وتعالى، وينهاهم عن التجسس والاغتياب بعضهم لبعض، وفي الأمرين والنهيين صلاح أمر مجتمعهم وسلامتهم في الدنيا وفي الآخرة.

﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

بعد هذا النداء يأتي نهي الله للمؤمنين عن الظن السيء في صيغة الأمر باجتناب كثير من الظن، والظن خاطر يخطر في النفس ليس له أساس من العلم والتحقيق، وربما تكون هناك بعض أمارات لكنها لا تكفي لإثبات العلم، إذ كثيرا ما تكون مخطئة لا أساس لها من الصحة، إن هي إلا أوهام، فأمرنا الله باجتناب كثير من الظنون بنفيها إذا خطرت في نفوسنا والابتعاد عن مدلولها، وفي الحديث الشريف: «وإذا ظننت فلا تحقق»، والعمل بالظن السيء ظلم يورث العداوات والأحقاد ويثير الضغائن والفتن، ولذا يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

أي إن كثيرا من هذه الظنون السيئة إثم وظلم، والآية تفيد أن بعض الظن ليس بإثم وذلك كالظن الحسن بمن رأيت فيه خيرا وسمعت عنه خيرا من إخوتك المؤمنين، وكالظن الذي يحمل صاحبه على الحزم والحيطة والحذر، كما جاء في الحديث: «الحزم سوء الظن بالناس»، وقد يؤدي حسن الظن في كثير من الأحيان إلى الندامة وسوء العاقبة، وذلك كأن تظن بأحد من الناس خيرا فتقتدي به وهو جاهل أو فاجر فيرديك اتباعه أو تظن حسنا بآبائك الأولين فتقتدي بهم وتعرض عن الحق، والحق أحق أن يتبع، فالظن الذي هو إثم هو الذي يحمل صاحبه على الظلم.

وأنواع الظلم كثيرة منها التجسس كما سيأتي الكلام عليه في الآية التالية، فانف الظنون السيئة أيها المؤمن ولا تعمل بمقتضاها فتظلم، واحذر من الظن الحسن المبني على غير أساس من العلم، وكن مميزا بعقلك بين الظن الذي هو إثم والظن الذي ليس بإثم، واسأل أهل الذكر إن كنت لا تعلم، ولأن تخطئ بحسن ظن خير من أن تخطئ بسيئه، ورجح العمل بالدليل العلمي الصحيح على حسن الظن بالآباء والأجداد والكبراء والأسياد، واستعن بالله واستعذ به من شر أحاديث النفس وظلم العباد.

﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾.

ثم ينهانا الله تبارك وتعالى عن التجسس الذي كثيرا ما يحمل عليه سوء الظن، والتجسس هو طلب الأمور الخفية والتطلع إلى عورات الناس والبحث عنها بوسائل خفية، وهو ظلم يورث الأحقاد والضغائن متى شعر المتجسَّس عليه بفعل المتجسس، وهو ظلم حتى ولو لم يشعر المتجسَّس عليه بذلك، وليس من طبع المؤمن الطيب القلب أن يتجسس على أخيه المؤمن، فالتجسس مناف لطبع الإيمان، والتجسس المنهي عنه ما كان بحثا عن عيوب أخيك القاصرة عليه وذنوبه التي بينه وبين خالقه، فلا يجوز أن تتجسس عليه ولو بدافع الغيرة على الدين، فالله أغير على دينه منك، وقد نهانا عن التجسس على أخيك، ويكفيك إذا اطلعت على ذنب منه أن تنصحه وتنهاه وتستر عليه

ما دام مستترا محتشما حتى يوفقه الله للتوبة فيتوب، فيتوب الله عليه.

أما الفاسق التي تخشى منه مضرة على المسلمين كالسراق والقتلة وأهل الإجرام فأولئك لا بأس أن تتجسس عليهم بل يجب ذلك وجوبا حفظا لمجتمع المسلمين من الظلم والإجرام، ويشرع لحاكم المسلمين أن يتخذ الجواسيس والعيون الذين يبحثون على الجرائم والمجرمين حتى يستقر الأمن في الناس، ولا خير في مجتمع لا يأمن الناس فيه على أرواحهم وحرمهم وأموالهم.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾.

ثم ينهانا الله تبارك وتعالى عن الغيبة وهي كما جاء تفسيرها في الحديث الذي يقول فيه الرسول ﷺ مخاطبا أصحابه: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قال أحدهم: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه»، فالغيبة إذن هي ذكر أخاك بما يكره إن كان فيه ما تقول من العيوب والنقائص، العيوب الخَلقية والخُلقية، لأنك لا ترضى أن يقال فيك مثل ذلك، أما إن ذكرت أخاك بما ليس فيه فهو بهتان وإفك وهو أعظم ظلما وأشد إثما، فليحذر المؤمن من كل هذه الأنواع الغيبة والبهتان والإفك، وقد ضرب الله مثلا للغيبة بأكل لحم أخيك ميتا، وجاء المثل في صيغة الاستفهام التقريري ليكون أشد وقعا في النفوس وأعظم تنفيرا للسامعين.

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

الاستفهام تقريري فما على السامع إلا أن يقر بالحقيقة أنه لا أحد يحبّ أكل لحم أخيه حيا، فكيف به ميتا، ولذلك قال: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾. أي فكرهته طباعكم، فكذلك ذكر أخيك بما يكره، ولما كان الميت لا يقوى على دفاع من يأكل لحمه فكذلك الغائب لا يدافع عن نفسه أما لو كان حاضرا فإنه ينتقم لنفسه من ظالمه فيرميه بالمثل أو بأكثر، وقد شاع عند الناس تشبيه اغتياب الآخرين وبهتهم بأكل لحومهم، قال شاعرهم الحكيم:

وإن الـــذي بـــيني وبـــين بـــني أبـــي / وبـــين بـــني عمـــي لمختلـــف جـــدا
فـإن أكلـوا لحمـي وفّـرت لحـومهم / وإن هـدموا مجـدي بنيـت لهـم مجـدا
وإن زجـروا طـيرا بـنحس تمـر بـي / زجـرت لهـم طـيرا تمـر بهـم سـعدا
ولا أحمـل الحقـد القـديم علـيهم / وليس كريم القوم من يحمل الحقدا

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

يأتي التذييل المناسب للمناهي التي سبقت وهو الأمر بتقوى الله والتوبة والإنابة إلى الله من مدلول هذا التقوى، ولذا يأتي التعقيب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾. إن الله كثير التوبة، غفار للمذنبين التائبين، رحيم بعباده لا يعاجلهم بالعقوبة بل يعظهم ويعلمهم لينيبوا إليه فيرحمهم، ويتوبوا فيتقبل توبتهم، وبأمثال هذه التعقيبات تتخلل آيات القرآن الحكيم؛ لأنه كتاب تعليم وتربية للأفراد والمجتمعات، وكتاب وعظ وترغيب وترهيب يزكي معنى الإيمان في النفوس ويركز التقوى في قلوب المؤمنين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

هذا النداء السادس من نداءات هذه السورة الكريمة، وهو نداء عام يشمل البشر جميعا، مؤمنهم وكافرهم، أبيضهم وأسودهم، عربهم وعجمهم، ذكورهم وإناثهم، فليس لجنس أن يفخر على جنس آخر ولا للون أن يتطاول على لون آخر، فهم لا يتفاضلون بالأجناس ولا بالألوان ولا بالأوطان، إنما يتفاضون بالإيمان فأكرمهم عند الله أتقاهم لله.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾.

بعد هذا النداء العام للناس يقرر الله الحقيقة الكبرى، ويقول لنا بنون العظمة التي يتضاءل عندها تطاول البشر: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ إن الله هو الذي خلقنا

جميعا من ذكر وأنثى ، من أب واحد هو آدم ، وأم واحدة هي حواء ، وحواء من آدم ، وآدم من تراب ، وخلق كل واحد منا من ذكر وأنثى ، فنحن جميعا من أصل واحد ، فلا فخر لجنس على جنس ولا للون على لون.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوا﴾.

وبنون العظمة يخبرنا خالقنا أنه جعلنا شعوبا وقبائل لنتعارف لا لنتفاخر ولا ليتطاول بعضنا على بعض اتكالا على الأنساب ، فكلنا لآدم وآدم من تراب ، والتعارف يقتضي أداء الحقوق وهو ثمرة التعارف ، والشعب هو مجموع القبائل التي ترجع إلى جد واحد ، فالأمة العربية مثلا تنقسم إلى شعوب ، والشعب الواحد ينقسم إلى قبائل ، مثل قبيلة قريش وكنانة وتميم وقبيلتي الأوس والخزرج ، وتحت القبيلة العمارة مثل قبيلة قريش من كنانة ، وتحت العمارة بطن مثل قصي من قريش ، وتحت البطن فخذ وهو العشيرة ، مثل هاشم وأمية من قصي ، وتحت الفخذ الفصيلة مثل العباس وأبي سفيان ابني عبد المطلب ، واكتفى بذكر الشعوب والقبائل على طريقة الإيجاز المحكم في القرآن الحكيم ؛ لأن ما تحت القبيلة داخل في التعبير بطريق لحن الخطاب.

ثم قال تعالى :

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

إن أكرمكم عند الله أتقاكم لله ، فاتقوا الله لتكونوا مكرمين عند الله ، واتركوا التفاخر بالأنساب.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

إن الله عليم بعباده ، خبير بشؤونهم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ، وهذا التذييل مناسب حتى لا يتفاخر الناس بالتقوى فالله أعلم بهم من أنفسهم وهو بعباده خبير بصير.

۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا
وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا
اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ
يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ
عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ
عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

كانت هذه الآيات الحكيمة خاتمة هذه السورة المحكمة التي تحمل إرشادات وأوامر ونواهي، فيها تربية للمجتمع المسلم ولأفراده، وكان سبب نزول هذه الآيات أن قبيلة من الأعراب وهم بنو أسد بن خزيمة دفعهم الجدب وشدة الحاجة إلى نزول المدينة، فقدموها مسلمين معلنين إسلامهم راغبين من النبي ﷺ أن يعينهم بشيء من الرفد، وكانوا يمنون عليه أنهم جاؤوه مسلمين بعيالهم ولم يقاتلوه كبقية الأعراب مثل فزارة وغطفان وهوازن وغيرهم، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآيات:

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُومِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الايمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُم مِّنَ اَعْمَالِكُمْ شَيْئًا اِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قالت الأعراب آمنا ، والأعراب هم سكان البوادي من العرب ، ولا يقال الأعراب لغير بداة العرب ، قالوا آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، أي استسلمنا وخضعنا ، أما الإيمان الحقيقي فإنكم لم تؤمنوا بعدُ ولم يدخل الإيمان في قلوبكم ، والعبارة تشعر أنه لحد نزول الآية لم يدخل الإيمان في قلوبهم ولم يعرفوا ما الإيمان ، وقد يجد الإيمان إلى قلوبهم سبيلا إذا لازموا الرسول والمؤمنين وقرؤوا القرآن وتدبروا آياته.

﴿وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾.

ولم يقل ولكن أسلمتم ؛ لأن الإسلام الحقيقي هو إسلام الظاهر والباطن وهو ومدلول الإيمان واحد ، قال : ولكن قولوا أسلمنا ، أي قولوا استسلمنا وخضعنا ودنا بالطاعة ، ولذا قال :

﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُم مِّنَ اَعْمَالِكُمْ شَيْئًا اِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

هذا ترغيب لهم في تحقيق إسلامهم بطاعة الله ورسوله ، وهذا يؤديهم إلى دخول الإيمان في قلوبهم لأن الإيمان يزيد ويقوي بمزاولة الطاعات ، وملازمة الصالحين ، وينقص بارتكاب المعاصي ومعاشرة الفجار والمنافقين ، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم الله ، أي لا ينقصكم من أعمالكم شيئا بل يوفيكم أجوركم ويغفر لكم ذنوبكم إن الله غفور رحيم ، كثير المغفرة واسع الرحمة ، وما أنسب هذا التذييل بهذين الاسمين ، ففيهما ترغيب للمسلمين في طاعة الله ورسوله وحسن الرجاء بعد ذلك في مغفرته ورحمته.

﴿إِنَّمَا الْمُومِنُونَ الذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِه ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

جاء القصر بإنما الدالة على حصر الإيمان فيمن يذكرون بعدها لبيان الإيمان الحقيقي

الـذي يرضـاه الله مـن عبـاده وهـو الرقيـب علـى قلـوبهم، العليـم بـذات الـصدور، إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله إيمانا راسخا متمكنا ثم مضوا على إيمانهم طـول الحيـاة لا يخالط إيمانهم شك ولو فتنوا وابتلوا بالحسنات والسيئات، ولذا جاء التعبير بثم لتفيد الاستمرار والدوام على هذا الإيمان في المستقبل، فليس هو إيمان ساعة أو يوم أو أيام ثم يخالطه ريب لنزول بلاء أو عُروض فتنة من الفتن وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا...﴾ الآية (الأحقاف: ١٣)، جيء بثم هنا أيضا لتدل على أنهم مضوا على إيمانهم واستقاموا عليه طول حياتهم لا تزعزعهم الفتن ولو توالت.

وقد قال الله تعالى: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت: ١- ٢)، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ...﴾ الآية (العنكبوت: ١٠)، فاقتضت حكمة الله أن يفتن عباده ويبتليهم بالحسنات والسيئات ليظهر الصادقين منهم والكاذبين ثم يجازي كلا بما يستحق، فالمؤمن الصادق الذي سكن الإيمان في قلبه لا يزداد على الافتتان إلا رسوخا في الإيمان كالذهب الإبريز لا يزداد على مس النار إلا صفاء وجودة.

فلنكن من الصادقين، ولنحتمل الافتتان بصدق الإيمان، ولنثبت عليه عند الابتلاء بالحسنات والسيئات، شاكرين لله عند النعماء، صابرين عند البلاء راضين بالقضاء متعالين على فتن الأعداء الذين يحاولون زلزلة عقيدة المسلم نسأل الله التثبيت على صراطه المستقيم.

﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

زادَ فأضفَى عليهم وصفاً آخر يحقق رسوخ إيمانهم ويثبت برهان صدقهم وهو الجهاد بالأموال والأنفس، وجاهدوا بأموالهم، والجهاد بالأموال يكون مقدما على الجهاد بالأنفس، ولا يتأتى الجهاد بالأنفس إلا بعد إنفاق الأموال لشراء الأسلحة

والكراع والذخيرة والعتاد ثم يكون بذل الأنفس والأرواح في سبيل الله، فالذين بذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون، وقد جاء الوصف بطريق الحصر وذلك بالإتيان بضمير الفصل ثم بتعريف الخبر، وقبل ذلك أشير إليهم بأولئك تنويها بشأنهم ورفعا لمقامهم، فكأن الصدق محصور فيهم، وبرهان صدق الإيمان لا محالة هو الجهاد بالأموال والأنفس، وهو في الإسلام بمنزلة الذروة من السنام.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

الخطاب للنبي ﷺ، قل يا محمد لهؤلاء الأعراب: أتعلّمون الله بدينكم، أي أتخبرونه بدينكم وهو أعلم به منكم، والله يعلم ما في السموات وما في الأرض، فكيف تخفى عنه حقيقة أمركم، والله بكل شيء عليم، قد أحاط بكل شيء علما.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ، أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

المنّ هو تعداد المزايا على الممنوع عليه ليجازيه أو يشكر فضله، وكثيرا ما يمنّ المحسنون على من أحسنوا إليه، وقد يمنّون حتى على من لم يسيئوا إليه، ويعتبرون ترك الإساءة مزيّة وإحسانا كما وقع هنا من قبيلة بني أسد، هذه التي تمنّ على النبي أنها جاءته مؤمنة من غير قتال كما قاتلته بنو محارب وهوازن وغطفان، ويظنون أنهم بفعلهم هذا يستحقون نصيبا من الفيء، فرد الله عليهم بهذه الآية:

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾

ولم يقل أن آمنوا لأنه قد عرّفهم قبل بأن الإيمان لما يدخل قلوبهم، بل صنيعهم هذا إسلام.

﴿قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُم﴾.

قل لهم يا محمد لا تمنّوا عليّ إسلامكم هذا فليست لكم فيه منّة على الله ولا على رسوله وعلى المؤمنين، والمن مبطل للإحسان.

﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ، أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

بل الله هو الذي يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين في إيمانكم، فالمنّة لله على المؤمنين بهدايتهم هداية دلالة ثم هداية إيصال وتوفيق للإيمان، وسيقولون في الجنة حين يصيرون إليها ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ (الأعراف: ٤٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

يأتي هذا التعقيب مناسبا للسورة كلها ومناسبا لما قبله ليعلم هؤلاء الأعراب أن الله بصير بأعمالهم، عليم بما يكنونه في ضمائرهم، إن الله يعلم الغيب في السموات والأرض ويعلم الشهادة فيهما، لا تخفى عنه خافية، فهو أحرى أن يكون عالما بعباده وأعمالهم ونواياهم، بصيرا بما يعملون، إليه إيابهم وعليه حسابهم، إنه سريع الحساب.

ولنذكر في ختام هذه السورة الكريمة ما كتبه عنها الشهيد المرحوم سيد قطب في ظلال القرآن في ديباجة الكلام على معاني السورة وظلالها، قال رحمه الله: "هذه السورة لا تتجاوز ثماني عشرة آية، سورة جليلة ضخمة تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة، ومن حقائق الوجود والإنسانية، حقائق تفتح للقلب والعقل آفاقا عالية وآمادا بعيدة وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة، ومعاني كبيرة، وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم وقواعد التربية والتهذيب، ومبادئ التشريع والتوجيه ما يتجاوز حجمها وعدد آياتها مئات المرات، وهي تبرز أمام النظر أمرين عظيمين للتدبر والتفكر.

وأول ما يبرز من مطالعة السورة هو أنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة لعالم رفيع كريم نظيف سليم، متضمنة القواعد والأصول والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم،

والتي تكفل قيامه أولا وصيانته أخيرا؛ عالم يصدر عن الله ويتجه إلى الله، ويليق أن ينتسب إلى الله، عالم نقي القلب، نظيف المشاعر، عف اللسان، وقبل ذلك عف السريرة، عالم له أدب مع الله وأدب مع رسوله، وأدب مع نفسه، وأدب مع غيره، أدب في هواجس ضميره، وفي حركة جوارحه، وفي الوقت ذاته له شرائعه المنظمة لأوضاعه، وله نظمه التي تكفل صيانته، وهي شرائع ونظم تقوم على ذلك الأدب، وتنبثق منه، وتتفق معه، فيتوافق باطن هذا العالم وظاهره وتتلاقى شرائعه ومشاعره، وتتوازن دوافعه وزواجره، وتتناسق أحاسيسه وخطاه، وهو يتجه ويتحرك إلى الله، ومن ثم لا يوكُل قيام هذا العالم الرفيع الكريم النظيف السليم وصيانته لمجرد أدب الضمير ونظافة الشعور، ولا يوكل كذلك لمجرد التشريع والتنظيم بل يلتقي هذا بذلك في انسجام وتناسق، كذلك لا يوكل لشعور الفرد وجهده، كما لا يترك لنظر الدولة وإجراءاتها، بل يلتقي فيه الأفراد بالدولة والدولة بالأفراد، وتتلاقى واجباتهما ونشاطهما في تعاون واتساق.

هو عالم له أدب مع الله ومع رسول الله، يتمثل هذا الأدب في إدراك حدود العبد أمام الرب والرسول الذي يبلغ عن الرب ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. فلا يسبق العبد المؤمن إلهه في أمر أو نهي ولا يقترح عليه في قضاء أو حكم، ولا يتجاوز ما يأمر به وما ينهى عنه، ولا يجعل لنفسه إرادة أو رأيا مع خالقه تقوى منه وخشية وحياء منه وأدبا، وله أدب خاص في خطاب رسول الله ﷺ وتوقيره ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيءِ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ اَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ إِنَّ الذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ إِنَّ الذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَّرَآءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ وَلَوَ اَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وهو عالم له منهجه في التثبت من الأقوال والأفعال والاستيثاق من مصدرها قبل الحكم عليها، يستند هذا المنهج إلى تقوى الله وإلى الرجوع بالأمر إلى رسول الله في غير ما تقديم بين يديه ولا اقتراح لم يطلبه ولم يأمر به ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًۢا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ويستمر في هذا التلخيص لمواضيع السورة إلى أن يقول: "والسورة بعد عرض هذه الحقائق الضخمة التي تكاد تستقل برسم معالم ذلك العالم الرفيع، الكريم النظيف السليم، تحدد معالم الإيمان الذي باسمه دعي المؤمنون إلى إقامة ذلك العالم" ويستمر في هذا العرض الكامل إلى نهاية السورة.

بهذا العرض البيّن البليغ نختم تفسير هذه السورة العظيمة والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة ق

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ق مكية

وآياتها ٤٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ
فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَ. ذَا مِتْنَا وَكُنَّا
تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ
وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ
فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ
بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا
فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ
لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ
جَنَّٰتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ
﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ
لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ
﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

السورة مكية وآياتها خمس وأربعون آية بإجماع القراء، وتسمى سورة ق لابتدائها بهذا الحرف، وهنا رواية عن ابن عباس في تسميتها بسورة الباسقات لانفرادها بذكر هذا النعت في وصف النخل، وهي مبدوءة بحرف "ق" الذي ينطق به على التهجي هكذا "قاف" بتسكين آخره، والقول في هذه الحرف هو مثل القول في الحروف المقطعة المبدوءة بها بعض السور، ولا يفارقها معنى التنبيه والإشارة إلى إعجاز هذا الكلام الذي هو من جنس الحروف التي ينطق بها العرب، فعجزوا أن يأتوا بسورة من مثله، والله أعلم بمراده من هذه الحروف، أما قولهم إنه اسم جبل محيط بهذه الأرض فهذا غير مقبول ولا سيما بعد مسح الأرض ومعرفة جغرافيتها، وبعدما علم الناس أنها كرة تدور في الفضاء، فلا معنى لهذه الخرافة مطلقا.

والسورة تتحدث عن العقيدة كأخواتها المكيات، فهي تعنى أكثر بتركيز الإيمان بالله وكتابه ورسوله الموحى إليه وباليوم الآخر بما فيه البعث والنشور والجزاء العادل بالثواب للأبرار، والعقاب للفجار، وتختتم بالوعد والوعيد وموعظة المؤمنين، وتذكيرهم بالقرآن، وكان النبي ﷺ كثيرا ما يقرؤها في صلاة الصبح ويقرؤها على المنبر حين يخطب، فقد روي عن أم هاشم بنت حارثة بن النعمان أنها حفظتها لكثرة ما كان يقرؤها النبي ﷺ على المنبر.

﴿قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ﴾.

بعد حرف الافتتاح يأتي القسم بالقرآن المجيد، وهذا تنويه بشأن القرآن المقسم به ونعت له بالمجد، وهو الشرف والكرم الكامل، والرفعة والعلو، ويبهم جواب القسم لتذهب النفوس في تقديره مذاهب، ويدل عليه السياق وهو الإضراب الذي يعقبه، فالذي نفهمه من السياق: والقرآن المجيد إنك لمن المرسلين بوحي من الله، وإن هذا الذي تتلوه عليهم كلام الله وإن البعث بعد الموت حق وهو آت لا ريب فيه.

﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَ.ذَا

متْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾.

بدئت هذه الجملة ببل التي للإضراب للعدول عن الحكم الذي قبلها، فإن هؤلاء الكفار لم يصدقوا الحق المقسم عليه الذي جاءهم على يد رسول أمين يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم، فهم في حيرة من أمرهم، عجبوا أن يكون الرسول بشرا مثلهم وعجبوا أن ينذرهم بيوم البعث والنشور.

﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَ.ذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾.

كذبوا بالبعث بعد الموت فقال الكافرون هذا شيء عجيب، وقد جاء التصريح هنا بالاسم الظاهر "الكافرون" ليدل أن من أنكر البعث فهو كافر كفرا صريحا لا لبس فيه، تعجبوا من الخبر فقالوا: أإذا متنا وبليت أجسادنا ورمت وكنا ترابا ترجع إلينا الحياة ذلك رجع مستبعد الوقوع، يريدون بذلك الإنكار والتكذيب، قال الله تبارك وتعالى:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾.

قد علمنا ما تنقص الأرض من أجسادهم وما تبقي، أكد الله الخبر بقد ليطمئن المؤمنون ولا يرتاب الكافرون، إن علم الله محيط بكل شيء وعنده كتاب حفيظ، قد سطر فيه قلم القدرة جميع ما يقع في هذا الكون الواسع في هذه الدنيا وفي الآخرة، والذي أنشأهم من العدم قادر أن يُنشرهم ويعيد إليهم الحياة مرة أخرى، وهو على كل شيء قدير، أو لم يخلقهم الله من التراب، وقبل التراب العدم، فكيف ينكرون النشأة الثانية من تراب! فالعجب ليس من الرجع الذي تعجبوا منه، بل العجب من تعجبهم من ذلك لو كانوا يعقلون.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾.

إضراب تابع للإضراب الأول؛ لأن تكذيبهم هذا نابع من تعجبهم المذكور، بل كذبوا بالحق الذي هو القرآن، والقرآن هو الحق من عند الله، إن هؤلاء الكفار لما

جاءهم الحق من عند الله سارعوا بالتكذيب به دون تريث ولا تأمل فهم في أمر مريج ؛ أي أمر مختلط مضطرب فهم في تكذيبهم لم يستقروا على قرار معين ، بل اضطربوا فقال فريق : هو مجنون ، وقال آخر : هو شاعر ، وقال آخرون : هو ساحر ، وقال فريق آخر : أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ، وهكذا اختلط عليهم أمرهم لأنهم ؛ جحدوا بالحق ظلما وعدوانا وتعصبا لجاهلية آبائهم فأنكروا الحق وهو القرآن كلام الله ، وأنكروا قدرة الله على إعادتهم يوم القيامة فخاطبهم الله بقوله :

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

بدئت هذه الآيات باستفهام إنكاري ، ينكر الله على هؤلاء الكفار بالبعث غفلتهم وتعاميهم عن النظر إلى آيات الله العظيمة في هذا الكون العريض : **﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا﴾** أعموا وغفلوا فلم ينظروا نظر اعتبار وتفكر إلى السماء فوقهم ، لا يحجبها عنهم حاجب إلا السحاب الذي هو الآخر آية من آيات الله ، ما لهم لا ينظرون ولا يتفكرون في خلق السموات والأرض ، ولا ينظرون إلى السماء المرفوعة فوقهم بغير عمد ، أفلا ينظرون كيف بناها الله هذا البناء المتين المحكم الذي ليس فيه شقوق ، ولا يقطع جاذبيتها قاطع ، ما هذه الجاذبية التي تربط نجوم السماء وكواكبها بعضها ببعض؟ فهي لا تنفصم ولا تصطدم؟ إنها قوة الله ، أفلا يتأملون في هذه القوة ، ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم !﴾ (يس : ٨١).

لا مناص لهم من الإقرار بقدرة الله ، ولذا فالاستفهام أيضا تقريري إذ المتأمل في بنيان السماء المتين الذي ليس فيه فروج ولا ينفرج ولو مرّت خلاله أجسام قريبة ، لا

شك أن المتفكر في بنيان السماء يدرك قدرة الله بانيها على ما يشاء من خلق وإعادة، والسماء ما علا رؤوسنا من هذه القبة الزرقاء، وما زيّنها الله به من الكواكب والمجرات، وهن سبع سماوات طباق كما وصفها خالقها، ولا يعلم سعتها وما فيها من أسرار الملكوت إلا الله.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾.

جاء الإسناد في هذه الأفعال إلى نون العظمة ليذكرنا أن بانيها ومزينها هو الله تبارك وتعالى، فاعرف ربك أيها العاقل بالنظر في السماء وبنيانها وتزيينها بالشمس والقمر، والنجوم والكواكب، وتأمل في مشارقها ومغاربها وبروجها، ثم قال تعالى:

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ .

ولا تزال هذه الأفعال مسندة لنون العظمة، ومن الذي يقدر على مد الأرض وإخراج النبات منها إلا الله تبارك وتعالى، وفي مداديم الأرض وهي كروية الشكل آيات للمتفكرين، مدّها الله مدا ولم يجعلها نتوءات ولا أخاديد إلا أخاديد الأنهار ونتوءات بعض الجبال وفي مدّها رفق المخلوقات، فهي تصلح للزراعة والرعي والبناء عليها كما تصلح للأسفار والمشي في مناكبها.

ثم إن الله ألقى فيها رواسي أي جبالا ولم يقل عليها لأنها لو ألقيت عليها لكانت غير متمكنة للقرار بل تكون عرضة للانهدام والتردي فهي ثابتة فيها كأنها نابتة منها، وهذه الجبال الرواسي التي تمسك الأرض بثقلها فلا تميد بأهلها، وحينئذ لا يستقر عليها بناء، وتصعب الحياة عليها، فهي في دورانها حول نفسها وحول الشمس ثابتة بفضل هذه الجبال الرواسي التي هي أوتاد لها، وهي خزانات للمياه النازلة من السّماء تنبع من جوانبها العيون والأنهار، ثم قال تعالى:

﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

وأنبت الله في الأرض سهولها وجبالها وأوديتها من كل زوج، أي من كل نوع من النبات يبهج النفوس بجماله وحسنه، ويسرّ الناظرين بألوانه الزاهية، وفي النظر إلى هذه المخلوقات والتفكر فيها تبصرة، أي فتح لبصائر ذوي الألباب، وذكرى لكل عبد منيب، رجّاع إلى الله تذكره بالبعث بعد الموت ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (الروم: ١٩).

ثم قال تعالى:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

تأتي هذه الآيات بعد إلفات أنظارنا إلى السماء وبنيانها والأرض وأوتادها وأزواج نباتها لنتبصر ونتذكر، يلفتنا ربنا تبارك وتعالى إلى أثر من آثار السماء، وهو إنزال الماء وأثر من آثار الأرض وهو إنبات الزروع والنخيل والأشجار للادكار والاعتبار فنعتبر بإحياء موات الأرض، إحياء موات رفات العباد وإخراجه من الأرض ليوم النشور، يقول الله تعالى:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾.

ونزلنا من السماء ماء مباركا، ونزّل الله بقدرته وتقديره من السماء ماء كثير الخير عام النفع وتلك هي البركة، فأنبت الله به جنات من أشجار مثمرة وزروع لها حبوب تحصد وتدرس كالبر والشعير والأرز والقطاني، أنبت الله كل ذلك رزقا للعباد متاعا لهم ولأنعامهم، وأنبت الله من الأرض النخيل باسقات أي طويلات مرتفعات في السماء في استقامة واعتدال، وروعة وجمال، لها طلع نضيد، والطلع ثمر النخل في الكفرى، يكون منضودا، فسبحان من خلقه ونضده في غلافه وجعل منه رزقا لعباده، فتبصّروا واعتبروا يا أولي الألباب، وقد أفرد النخل وهو من جنس الأشجار لأهميته، ولأن ثمره يحتوي غداء كاملا نافعا، وفيه منافع كثيرة.

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

أحيا الله تبارك وتعالى بالماء النازل من السماء بلادا ميتة، كذلك الخروج، أي كذلك يحي الموتى بعد البلى، كذلك الخروج، أي كذلك تخرجون من قبوركم إحياء ليوم البعث والنشور، فاعتبروا يا أولي الألباب، وتيقّنوا بقدرة الله على رد الحياة إلى رفاتكم كما أنكم تشاهدون دواما رد الحياة إلى البذور الضالة في الأرض الميتة، ينبتها الله تبارك وتعالى، وكل بذرة تحمل خصائص نباتها حتى الروائح والألوان، فسبحان من يخرجها من الأرض ويهب لها خصائصها، كذلك يحي الموتى لعلكم تذكرون، فالآيات تعالج قضية ترسيخ الإيمان في القلوب ببعث الأجساد بعد موتها، وتقيم الأدلة على ذلك بما لا ريب فيه عند أولي النهى والأبصار.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِي﴾.

رجع الكلام إلى تكذيب قريش ومن معهم بالحق لما جاءهم فذكر الله هنا ثمانية أقوام حق عليهم الهلاك لما كذبوا رسول الله، ممّن اشتهرت أخبارهم عند قريش، وفي ذكرهم تخويف للمكذبين من قريش وغيرهم أن يصيبهم مثل ما أصابهم أو أعظم، وما يعلم جنود ربك إلا هو، فليعتبر المعتبرون، وليتعظ أولوا الألباب، وفي ذكر خبرهم أيضا تسلية للنبي ومن معه من المؤمنين ومن يأتي من بعدهم، إن ربك لبالمرصاد، قال الله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِي﴾.

كذبت قبل قريش نوح، كذبوا رسول الله نوحا عليه السلام فأهلكهم الله بالطوفان ثم بعذاب النار، وكذب أصحاب الرس، كذبوا رسولهم حنظلة بن صفوان فخسف الله بهم الأرض، وسموا أصحاب الرس نسبة إلى بئر مطوية يستقون منها، فسمي الموضع

باسمها ونسبوا إليها، وذكرت بعدهم ثمود لأنهم كما قيل بقايا من ثمود، وكذبت ثمود رسول الله صالحا عليه السلام، فأهلكهم الله بالرجفة، وكذبت عاد رسول الله هودا عليه السلام فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية المسخّرة عليهم سبع ليال وثمانية أيام، وكذب فرعون وقومه موسى عليه السلام فأهلكهم الله بالغرق، وكذب إخوان لوط لوطا عليه السلام فأهلكهم الله بأنواع من العذاب، وكذب أصحاب الأيكة شعيبا عليه السلام فأهلكهم الله بعذاب يوم الظلة، وأهلك قوم تبع وهم من أهل اليمن فأهلكهم الله بالعذاب ولم يذكر الله في هذه الآيات أنواع العذاب التي أهلكوا بها، وقد ذكرت في مواضع أخرى من الكتاب، والقوم يعرفونها.

﴿فَحَقَّ وَعِيدِي﴾.

أي لقد توعدهم الله بالهلاك على ألسنة رسله إن هم تمادوا في تكذيبهم فاستخفوا بوعيد الله فحق عليهم، أي تحقق وعيده فعلا ولم ينج منه إلا من كتب الله نجاته من المؤمنين، فأولى لقريش ومن لفّ لفّها من المكذبين أن يخافوا وعيد الله ويحذروا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

الاستفهام للإنكار والتغليظ على هؤلاء المنكرين للبعث وهو أيضا تقريري لا يسعهم إلا الاعتراف بأن الله الخالق القادر العليم لم يعي بالخلق الأول للسماوات والأرض وما فيها ولم يعي بصيانتهما بعد خلقهما، فكيف يعجز عن إعادة الأجساد بعد فنائها، إن هذا أمر يجيزه العقل المتجرد ولكنه تستبعده طباعهم الميالة للشهوات وارتكاب الفجور، وقد قال الله تعالى في حقهم وأمثالهم ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ (القيامة: ٥)، فهو لأجل حب الدنيا وحب الشهوات يقعون في فلسفة نكراء توقعهم في إنكار مبني على الشك والارتياب.

﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

بل هذه للإضراب الإبطالي وهي لإبطال دعواهم عدم الحياة بعد الموت، بل هم في لبس من تجدد الخلق بعد الفناء مرة ثانية، ولو عقلوا وتبصروا لانتفى عنهم اللبس ولاعترفوا بالحياة الثانية بعد الموت وصدقوا بكلام الله، وما ردع النفس عن شهواتها مثل الإيمان بالله واليوم الآخر، ثم قال تعالى:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ
مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ
﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ
الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ
يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ
فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾
وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ
﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ
فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن
كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم
بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ
يَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ
لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾
مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ
ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾

يعرض الله تبارك وتعالى في هذه الآيات الكريمة أطوارا للإنسان من خلقه الذي هو بعض الخلق الأول، ويخصص بالذكر لأهميته ثم تتابع أطواره حتى يستقر أهل النار في جهنم مستقرهم وأهل الجنة في الجنة خالدين فيها، وهو ما يدل عليه قوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾، كل ذلك يعرض في مشاهد متحركة ذات حوار مؤثر للقلوب الحية المرهفة السمع، ويتأكد الكلام في تقرير حقيقة خلق الإنسان وعلم الله المحيط ببواطنه وقربه منه قرب علم واقتدار لأقرب مكان، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الانسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.

يأتي فعل الخلق مسندا إلى نون العظمة مؤكدا بلام القسم ليذكرنا بالخلق الأول للإنسان لأن ذلك أمر مركوز في طبع الإنسان، منقوش في فطرته منذ الصبا، يعترف به المشركون أنفسهم، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (الزخرف: ٨٧)، فمن علم أن الله هو الذي خلق الإنسان فلا مناص له من الاعتراف بإعادته ثانية وينبه الله بعد ذكر الخلق على إحاطة علمه بهذا الإنسان وما تحدثه به نفسه.

﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾.

والوسوسة هو حديث النفس الخفي، وكل منا يشعر بما توسوس به النفس ويتحدث به القلب، ولا شك أن علم الله بما خفي من وسوسة الضمائر كإحاطته بما علن من أفعال الناس وأقوالهم لا تخفى عنه خافية.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.

وحبل الوريد أحد العرقين الغليظين الذين يكتنفان عنق الإنسان، وهما شريانان غليظان يصدران من قلب الإنسان، يجري فيهما الدم الصادر من القلب، ولما كان حبل الوريد أقرب قريب إلى الإنسان ضرب الله به المثل في القرب ليدل على إحاطة علم الله وقدرته بالإنسان، فليعمل ما يشاء فإن الله مجازيه على أعماله ونواياه، وقد وكل بكل إنسان ملكين كريمين يكتبان أعماله وأقواله ليقيم الله الحجة على عباده بما يجدونه في كتبهم من أفعالهم وأقوالهم المحصية.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

إذ يتلقى الملكان الحاضران عن يمين الإنسان وشماله الرقيبان على أقواله وأفعاله القويان على ما كلفا به من إحصاء أقواله، فما يلفظ من قول إلا لديه رقيب قوي حاضر عنده، وقد ذكر هنا تلقي الأقوال لأن كثيرا من الناس يظنون أن الأقوال تذهب مع الريح ليس لها وزن، فجاءت الآية بصيغة الحصر لتدل أن الأقوال كلها محصية كالأفعال، لا يهمل منها صغيرة ولا كبيرة، وفي الآية تخويف وإنذار للمؤمنين الذين يؤمنون بيوم الحساب، وموعظة وذكرى للمتقين.

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

جاء التعبير عن مجيء الموت بصيغة الماضي لتحقق الوقوع وقرب مجيئه، فكأنه وقع فعلا، وأضيفت السكرة إلى الموت لأن للموت سكرات، وفي ذكر سكرة الموت ما يزهّد في الحياة الدنيا ويرغّب في الاستعداد لمجيئه، والحق هنا هو اليقين الذي يأتي به الموت، والإشارة بذلك للاهتمام به ولتعظيم أمره، وقد كان الإنسان يحيد أي يتجنب ويهرب مما يؤدي إلى الموت، ولكن الأجل آت لا مهرب منه، وإذا جاء الأجل فلا يستأخر، وتلك حال لابد منها للانتقال من دار الغرور إلى دار القرار.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾.

بعد ذكر الحالة الخاصة لكل إنسان يعقب بذكر الحالة العامة، وهي النفخ في الصور الذي هو علامة على فناء الدنيا، وإقبال يوم القيامة، وجاء التعبير أيضا بصيغة الماضي لتحقق وقوعه وقرب مجيئه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ الصور قرن يعلم الله هيئته ينفخ فيه إسرافيل النفخة الأولى، نفخة الصعق، والنفخة الثانية نفخة البعث، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن قرنه ينتظر الإذن»، ولقرب وقوعه جاء التعبير بالماضي: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾، أي ذلك يوم تحقق حلول وعيد الله وهو يوم القيامة، وجاء التعبير بالوعيد لإنذار الكفار الذين يكذبون بالوعيد ولوعظ وتذكير المؤمنين الذين يخافون وعيد الله، والنفس تتأثر بالإنذار بالأمور المخوفة.

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

وتأتي كل نفس يوم القيامة معها سائق يسوقها إلى المحشر، وشهيد يشهد عليها بما عملت، والشهود هم الملائكة الكرام الكاتبون الحفظة لأعمال العبد، ويبدو أن العطف هنا عطف مغايرة فالسائق غير الشهيد، والسوق يكون للمجرمين، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ (مريم: ٨٥- ٨٦)، وقد يعبر بالسوق للمتقين أيضا للمشاكلة، كما في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً﴾ (الزمر: ٧٣).

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

الخطاب هنا للكفار الذين ينكرون البعث ويستبعدون وقوع القيامة، يقال للواحد منهم: لقد كنت في غفلة من هذا الأمر، معرضا عنه، مكذبا به، فكشفنا عنك غطاءك فرأيت الجحيم عين اليقين، فبصرك اليوم حديد، زالت عنه الغشاوة التي كانت تحجبه عن الرؤية، يقال له هذا تبكيتا وتوبيخا يوم لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو

كسبت في إيمانها خيرا، الخطاب لمن مات مشركا مكذبا بيوم البعث أو مصرا على الكبائر، وما منعه من التوبة إلا الغفلة من يوم القيامة، فليتعظ المتمادون على معاصيهم، ولينتبه الذين غرتهم الحياة الدنيا وغرهم بالله الغرور.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾.

اختلف المفسرون في هذا القرين من هو؟ والذي أراه أنه هو القرين الذي جاء ذكره في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (الزخرف: ٣٦)، هذا الذي جاء فيه قوله تعالى: ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ (الزخرف: ٣٨)، يومئذ يقول الشيطان المقارن للإنسان الشقي: ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي هذا الذي وسوسته وأضللته وأعددته لهذا المصير، حينئذ يقول الله تعالى:

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ـ اخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾.

الخطاب للملكين السائق والشهيد، وقد يكون ملكين آخرين معدّين لأخذ الكفار وإلقائه في جهنم، يدعّانه فيها دعا، ينفذان أمر الله ويلقيانه في جهنم، وعدل عن الإضمار إلى ذكر الأوصاف الظاهر للتبيين أنها هي سبب شقائه، ولتحذير الناس عنها، وليعلم الناس أن ذلك مصير كل كفّار شديد الكفر، عنيد مجانب للحق، متمرد على الله، مستكبر عن آياته، منّاع للخير، يمتنع عن فعل البر مجاهد في منع غيره عنه، منوع لخيره عن ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، قاسي القلب جبار معتد، ظلوم للناس، باغ عليهم، مريب شاك في أمر الله، مشكّك لغيره، فهو ضال مضل، جاد في إضلال الناس.

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ـ اخَرَ﴾.

زيادة على هذه الأوصاف المتقدمة هو مشرك بالله، يدعو مع الله إلهاً آخر، وقد يكون هذا الإله هواه، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ...﴾ الآية، (الجاثية:

٢٣)، وكثيرا ما عُبد الهوى من دون، ثم قال تعالى:

﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾.

جاء التعقيب بهذه الآية للتوكيد، ولبيان أن في جنهم للكفار العذاب الشديد، كل هذا ليحذر أولوا الألباب مثل هذا المصير المشؤوم.

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ قَالَ لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

الآية تشعر أن هناك محاورة ومخاصمة بين أهل الضلال وقرنائهم من الشياطين، فهم يحاولون أن يبرؤوا أنفسهم ويلقوا التبعة على قرنائهم الذين أضلوهم، فيكون جواب القرين له:

﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

يقول القرين: يا ربنا ما أطغيته قسرا، ولا حملته على المعصية قسرا، وما كان لي عليه من سلطان إلا أن دعوته فاستجاب لي، فإنه كان عريقا في الضلال موغلا فيه، بعيدا عن الصراط المستقيم، متبعا لهواه، ولذلك أسرع في استجابتي إلى ما دعوته إليه، والطغيان مجاوزة الحد في المعصية، والخروج عن الصراط السوي، هنالك يقول الله تبارك وتعالى:

﴿لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾.

لا تتخاصموا عندي اليوم فليس تخاصمكم بنافعكم، وقد قدمت إليكم بالوعد والوعيد على لسان رسلي الذين أنذروكم وبيّنوا لكم طريق الهدى، وحذروكم من عاقبة الضلال، فالآية تبين أن الله قد أعذر لعباده وأقام عليهم الحجة بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فلا فائدة في تخاصمهم يوم القيامة، وليس تخاصمهم بمنجيهم من عذاب الله، وفي موضع آخر من كتاب الله: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٨)، ثم قال تعالى:

﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

الآية تفيد أن حكم الله ماضٍ، وأن قوله الحق بالوعد والوعيد لا تبديل له، وإن الله لا يظلم عبيده، وما كان ليعذبهم إلا بسعيهم، فلا تزر وازرة وزر أخرى، وفي الحديث القدسي فيما يرويه الرسول الله ﷺ عن ربه، يقول الله عز وجل: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظّالموا».

﴿يَوْمَ يَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾.

أذكر يوم يقول الله لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد، هذا بعدما يلقى فيها أهلها من الجن والإنس فيسألها وهو أعلم بها: هل امتلأت؟ فتجيب: هل من مزيد، أي إن كان هناك مزيد فقدّمه لي فأنا قابلة للزيادة، وفي الحديث: «فيضع الله فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض فتقول: طق طق»، أي كفى كفى، ذلك ليقطع الله أطماع الكفار إذ ربما يظنون أنهم كثير وأن جهنم لا تسعهم، بل هي تطلب المزيد بعد إلقائهم فيها، وقد أقسم الله على ملئها، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (هود: ١١٩)، ثم ينتقل الأسلوب القرآن البليغ من الوعيد إلى الوعد فيقول الله تعالى:

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ .

وأزلفت أي قربت الجنة للمتقين غير بعيد عنهم، والمتقون هم الذين خافوا الرب الجليل وعملوا بما في التنزيل، واستعدوا ليوم الرحيل، والتقوى هي أن تتجنب وتحذر ما يوقع في سخط الله، ويوجب عقابه.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾.

يقال لهم: هذا ما وعدكم ربكم تحقق لكل أواب، أي رجّاع إلى الله، حفيظ

لحدود الله ووصاياه وأوامره، وهذه الأوصاف تفسير للتقوى وبيان للناس أن الجنة لا تنال بالأماني، بل هي للمتحلين بهذه الأوصاف، المحافظين على ما استحفظهم الله إياه.

﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾.

الذين يخشون ربهم بالغيب، أي في حالة غيبتهم عن أعين الناس لا يواقعون الإثم، ولا يضيعون الفرائض؛ لأنهم يخشون ربهم ويؤمنون بالغيب، وجاءوا يوم القيامة بقلوب منيبة، أي سليمة من الشرك والشك، والإصرار على المعاصي، فهي كثيرة الإنابة والرجوع إلى الله، لأنها كثيرة الذكر لله، وجاء التعبير بالرحمن تعريضا بالكفار الذين يكفرون بالرحمن، ولبيان أن المتقين يخشون ربهم ويرجون رحمته.

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾.

يقول لهم خزنتها: ادخلوا الجنة، ويبشرهم ربهم ذلك يوم بداية حياة الخلود، ويقال لهم: حياة فلا موت أبدا، وإقامة لا يبغون عنها حولا.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى: لهم ما يشاءون مما يدّعون، ولدينا مزيد على ما يشاءون، وهو أنواع من الهدايا والمفاجآت التي تقر أعينهم، وقد وردت في ذلك آثار عن النبي ﷺ وجاء أن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفي القرآن: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٧)، وما أروع المقابلة بين هذا المزيد لأهل الجنة وقول النار حين تُسأل هل امتلأت وتقول هل من مزيد! فليتعظ أولوا الألباب الذين آمنوا، وليعلموا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا، وما يذّكر إلا أولوا الألباب.

﴿وَكَمَ اَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمُ، أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ اِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ اَوَ اَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

بدئت الجملة بكم الخبرية التي تدل على التكثير في صيغة التعجب من الكثرة، يعني ما أكثر المدن التي أهلكها الله من الأمم الماضية كانت أشدّ بطشا من قريش وأكثر قوة وآثارا في الأرض، فقد كانوا ينقبون في الأرض يحرثونها، ويحفرون فيها الآبار، وينحتون من جبالها بيوتا، ويقطعون منها صخورا، يبنون بها القصور، ويتخذون مصانع لعلهم يخلدون، لقد كانوا يظنون أنهم يتّقون بذلك بأس الله الذي أهلك من كان قبلهم بالزلازل والإعصارات والطوفان والحروب وغير ذلك من جنود الله، ولكن ما نفعهم ذلك وما ردّ عنهم بأس الله.

﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾.

هل من مفر، هل من مناص! لا مفر ولا مناص ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم، لا يزال الناس يكتشفون بالحفريات آثار الأولين، تركوا حصونهم وقصورهم وأهراماتهم ومدنهم ونقوشهم وكتاباتهم على الصخور شاهدة على ما وصلوا إليه من قوة واستعمار للأرض ومن فيها، وما ردّ عنهم كل ذلك عقاب الله لما نزل بهم، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا، وتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا. قال تعالى:

﴿اِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ اَوَ اَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

إن في هلاك هؤلاء الأقوام لذكرى وموعظة لمن كان له قلب واعٍ يعتبر بما يشاهد من الآثار وألقى السمع لما يقص عليه من الأخبار، وهو شهيد، أي حاضر الوعي غير غافل، وفي هذا الكلام تخويف وإنذار للكفار، وتسلية لقلب النبي ﷺ والمؤمنين، فليعتبر المعتبرون، وليتعظ أولوا الألباب، وليتنبه الغافلون، وليحذر الظالمون أن يحل بهم ما حل بأسلافهم من سوء العواقب. ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود: ٨٣).

لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ
﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ
ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ
ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾
يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ
عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ
وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

معظم آيات السورة يدور حول تقرير حقيقة البعث بعد الموت، وإقامة الحجج والبراهين على إمكانه وسعة قدرة الله على ذلك، والرد على منكريه، أليس الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وخلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، أليس بذلك بقادر على أن يحيي الموتى، ويحاسبهم على أعمالهم وأقوالهم ونواياهم، ويجازيهم عليها! بلى إنه على كل شيء قدير.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، يخبرنا بخبر مؤكد أن الله وحده خلق السموات وما فيهن، والأرض وجبالها وبحارها ومعادنها وأشجارها في ستة أيام، والله يعلم مقادير تلك الأيام، ولا يقدرها بأيامنا لأن اليوم عندنا هو دورة الأرض حول نفسها، وهي مواجهة للشمس تابعة لها، وهذا لا يتم إلا بعد خلق السموات والأرض، ثم قال: **﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾**. أي وما مسنا

من تعب ولا نصب، وفي هذا رد على اليهود الذين يقولون: إن الله خلق هذا الكون في ستة أيام واستراح في اليوم السابع، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، فهو القوي القاهر المقتدر، الفعال لما يريد، لا يمسه تعب من خلق السموات والأرض ولا من حفظهما، وهو العلي العظيم.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ السُّجُودِ﴾.

فاصبر يا محمد على ما يقول الكافرون من السخرية والاستهزاء والتكذيب بالرسالة وبأمر يوم القيامة، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ومن الليل، وهي أوقات تحوّل ضوء النهار من حال إلى حال، ووقت اعتكار ظلام الليل، تفكر في انبثاق ضوء الصبح وانتشاره في الأفق شيئا فشيئا، وتفكر في طلوع الشمس وإشراقها ثم في زوالها وميلانها إلى الغروب، ثم في غروبها، وتفكر في جوف الليل واستيلاء ظلامه على الكون، وتفكر أن جانبا من الأرض في هذه الحالة هو في وسط النهار أو في أوله أو في آخره، وسبح بحمد ربك الخالق، واذكره ذكرا كثيرا، وأعرض عما يقول المستهزئون، وسبح ربك في أدبار السجود، أي في منصرفك من صلواتك.

والإشارة في هذه الأوقات إلى مواقيت الصلوات الخمس، والتسبيح أدبار السجود الإشارة فيه إلى سنة المغرب ، قال به جماعة من الصحابة والتابعين، وإلى الوتر، قال به ابن عباس، وإلى الرواتب بعد صلاة الفريضة، إلا ما بينت الأحاديث النهي عنه بعد صلاة الصبح وبعد صلاة العصر، والتسبيح والذكر أمر مرغب فيه على العموم، ولا تزال ألسنة المؤمنين منطلقة بذكر الله، يسبحون بحمده ويرغبون إليه.

﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِي مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾.

يرجع بنا الأسلوب القرآن البليغ إلى ذكر يوم القيامة ليعظ المؤمنين والمؤمنات،

ولينذر الكفار لعلهم ينتهون، وإنما يتذكر أولوا الألباب، يقول الله تعالى:

﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِي مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

وارتقب يوم ينادي المنادي من قبل رب العزة عند قيام الساعة، وهو النافخ في الصور إسرافيل عليه السلام، قاله معظم أهل التفسير، وقال بعض: إن هذا النداء غير النفخ وهو بعده، ينادي جبريل عليه السلام: أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزّقة، والشعور المتفرقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، يسمع النداء من مكان قريب يسمعه القاصي كما يسمعه الداني، نداء قويا مسموعا مفهوما، وفي هذا النداء ما فيه من الهول والفظاعة، وما يذّكر إلا أولوا الألباب.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾.

انتظر واذكر يوم يسمعون النفخة الصائحة بالصدق بأوان البعث الحق ذلك يوم الخروج، يخرج فيه الناس من أجداثهم إلى أرض المحشر ليوم الفصل، وفي هذا الكلام تثبيت وتسلية لقلب النبي ﷺ حتى يقوى على مصابرة هؤلاء المكابرين المكذّبين بيوم الدين.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾.

هو كلام الجبار القاهر، يقرر بالتوكيد ونون العظمة والكبرياء، إنه هو يحي ويميت جميع الأحياء، وهم من جملة من يميت وإليه المصير وحده، فلا اعتبار بعد هذا لتكذيب المكذّبين، وتشكيك المرتابين.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

يوم تتشقّق الأرض عن أجسادهم بسرعة في خروجهم بأمر الله، وإنما أمره لشيء إذا أراده أن يقول له كن فيكون، يقول الله جل جلاله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ الإشارة إشارة تفخيم وتهويل، ذلك بعث لأجسادهم، وحشر لهم لعرصات القيامة، وهو على الله هيّن يسير، لا كما يزعم المكذّبون بالبعث.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَنْ يَّخَافُ وَعِيدِي﴾.

إن الله تبارك وتعالى يسلي نبيه وقد آذاه قومه وكذّبوه، فسلاّه الله بهذا الكلام الذي فيه تهديد لهم ووعيد بأن الله يعلم ما يقولون في حق نبيه من الاستهزاء والتكذيب سرا وعلانية، وسيجازيهم على ذلك كله، فدع أمرهم إلى الله يا محمد وما أنت عليهم بجبار فتكرههم على الإيمان، ولا ينفع إيمان الاستكراه ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: ٢١- ٢٢).

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَنْ يَّخَافُ وَعِيدِي﴾.

أمره الله أن يذكّرهم بالقرآن، وأخبره أن المنتفع بذكرى القرآن هو الذي يخاف وعيد الله، فهم الذي إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا، أما الذين ينكرون وعيد الله أو يشكون فيه فلا تنفعهم الذكرى، فالآية تأمر المذكّرين جميعا أن يعظوا الناس بكتاب الله أو بما هو نابع من كتاب الله من كل ما روي عن الصالحين، نسأل الله أن يجعلنا من الذين يتذكرون بالقرآن، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الذاريات

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الذاريات مكية

وآياتها ٦٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾
فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾
وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ
أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ
أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا
الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾
آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا
قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾
وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ
﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ
﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

هذه السورة شديدة المناسبة لسوابقها ولواحقها من السور المكية، فهي كأمثالها المكيات تعنى بتركيز العقيدة في القلب، وتقوي في النفوس الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ليوم الجزاء، وتقيم لذلك الدلائل من مخلوقات الله المشاهدة في الدنيا، ويقسم الله في فواتح هذه السور بما شاء من مخلوقاته العظيمة على إحقاق الحق وإبطال الباطل، وفي عظمتها تنبيه إلى عظمة خالقها وعظمة صفاته من العلم والقدرة والحكمة والرحمة، فعلى العاقل أن يتأمل القسم والمقسم به، ويثق بقسم الله، ويصدق بالمقسم عليه.

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا فَالْحَامِلاَتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا انَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ يُوفَكُ عَنْهُ مَنُ افِكَ﴾.

القول في معاني هذه الأشياء المقسم بها هو قول أكثر أهل العلم، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب عن النبي ﷺ، والذاريات أي والرياح التي تذر التراب والأشياء الخفيفة عند هبوبها، فالحاملات وقرا، أي هي السحب التي تحمل الوقر من المياه، ولذا سماها الله سحابا ثقالا، فالجاريات يسرا؛ هي السفن التي تجري في البحار جريا ميسرا بتيسير الله وتسخيره، فالمقسمات أمرا، هي الملائكة التي تنزل بالأمور المقسمة على البلاد والعباد، ما قضى الله من نعم ونقم وأرزاق وعقوبات.

يقسم الله تعالى بهذه الأشياء العظيمة ليلفتنا إلى خطرها وأنها من جنود الله المسخرة، ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للعباد أن يحلفوا بغير الله ربهم، للحديث الوارد عن النبي ﷺ: «من كان منكم حالفا فليحلف بالله أو ليصمت»، وكل هذه الأشياء الأربعة الكبيرة التي يقسم الله بها في بداية هذه السورة الكريمة تذكرنا بقدرة الخالق على أن يحيي الموتى، والغرض من القسم إثبات الحياة بعد الموت وحشر الناس يوم القيامة ليُروا أعمالهم، فيجازون عليها الجزاء العادل.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾.

يثبت الله تبارك وتعالى بهذه الأقسام الأربعة أن ما توعدون من البعث والنشور لصادق، والله لا يخلف الميعاد، وإن الدين، أي الجزاء لواقع ماله من دافع.

﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ .

هو قسم مؤكد لما قبله من الأقسام وواقع على ما بعده، وهو اختلافهم في وصف النبي، فهم في أمر مريج، منهم من يقول: شاعر، ومنهم من يقول ساحر، وآخرون يقولون كاهن، وقال آخرون: أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا، فهم فيه مختلفون، وقد بهرهم الحق بنوره فلم يستطيعوا له دفعا، فراحوا يخترعون الأوصاف ويختلقون الأقاويل. أما قوله تعالى:

﴿يُؤفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾.

فيرجع إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ يوفك عنه، أي يصرف عنه بالزور والبهتان من يُصرف من الناس، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ الحبك جمع حباك ككتب جمع كتاب، والحبك هي الطرائق، أي طرائق النجوم والكواكب في السماء، وكذلك هذه المجرات التي تعد بالملايين، ونحن من توابع الشمس في واحدة منها، وهي التي يسميها العرب طريق التبانين، وهي المجرّة المعروفة، وكم في السماء من مجرات، ففي التفكر والنظر في هذه الطرائق عبرة للمعتبرين، وآيات للسائلين، كذلك يختلف الناس في معبوداتهم وطرائق عباداتهم، ولا هادي إلا من هداه الله، ودين الله واحد، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: ١٩)، وقد أمرنا الله أن نقيم دين الله ولا نتفرق فيه، ولا يوفك عنه إلا الأفاكون.

﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

الخراصون هم الذين يقولون بغير علم، والمراد في الآية هم الذين يكذبون بيوم الدين، ويقولون في أمور الدين بغير علم، والمراد بالقول الدعاء عليهم بالإبعاد واللعن والطرد، والتعجيب من سوء حالهم، والتنفير من أقوالهم.

﴿الذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾.

الغمرة هي ما يغمر الإنسان أي يغم عليه ويغطيه، ومنه غمر الماء الأرض إذا غطاها، فهؤلاء القوم في غمرة من أهوائهم وشهواتهم، فكأن قلوبهم في أكنة محجوبة بأهوائها عن الحق فهم ساهون عن الحق، معرضون عنه، فهم صم لا يسمعون، وعمي لا يبصرون.

﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾.

يسألون سؤال استهزاء ولجاج وتكذيب، لا سؤال استرشاد واستفهام، أيّان يوم الدين، متى يوم الجزاء، هذا اليوم الذي تعدنا به متى هو؟ فجاء الجواب بطريقة الأسلوب الحكيم لأن لا أحد يعلم متى الساعة، فقد استأثر الله بها لا يجليها لوقتها إلا هو، فجاء جوابهم هكذا:

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

يوم الدين، هذا اليوم يسألون عنه يومَ هم على النار يفتنون، يعرضون عليها ويذوقونها ويصلونها كما تعرض المعادن وتفتن بعرضها على نار حامية، يقال فتنت الذهب إذا جعلته في النار لتختبره وتميّزه عن غيره من المعادن، كذلك يفتنون يوم القيامة في نار حامية، ويقال لهم:

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

ذوقوا العذاب الذي أعد لكم جزاء لكم على فتنتكم أنفسكم وفتنتكم للذين فتنتموهم في الدنيا، هذا الذي كنتم به تستهزئون وتستعجلون مجيئه استعجال تكذيب،

يقال لهم هذا توبيخا لهم وتبكيتا بهم، وقد جيء بهذا الكلام تخويفا لهم لعلهم ينتهون من كفرهم وتكذيبهم، ومن أراد الله به خيرا منهم فإنه يتوب ويرجع، وما يذكر إلا أولوا الألباب.

ثم بعد عرض هذا المشهد الفظيع للكفار يأتي عرض مصير المتقين السعداء على طريقة أسلوب القرآن المزدوج:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ـ آخِذِينَ مَآ ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.

إن المتقين وهم الذين يراقبون أنفسهم ويحاسبونها، ويحذرون سخط الله ويطلبون رضاه، ويجتنبون الوقوع في المعاصي والمحرمات، ويقومون بتعهد قلوبهم ينفون عنها وساوس الشياطين وهوى النفوس، هؤلاء أخبر الله عنهم خبرا مؤكداً أنهم في جنات وعيون، فكأنهم صاروا إليها فعلا لأن ذلك واقع لا شك فيه فهم يتنعمون في جنات كثيرة، ذات عيون وأنهار، آخذين ما آتاهم ربهم من أصناف النعيم، راضين بذلك لا يبغون عنه حولا، وأروع ما يقتني الناس لسكناهم الجنات وأحواض المياه، ويتخذ الملوك سواقي من الأنهار في حدائقهم ليتمتعوا بالمناظر الجميلة والهواء المنعش، وقد أعد الله للمتقين قصورا في جنات وأنهار، ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ (الزمر: ٢٠).

ثم إن الله ذكر من أعمالهم ما استحقوا بها هذه الجنات:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾.

إن الله تبارك وتعالى أحسن إليهم وصيرهم إلى هذا المصير السعيد لأنهم كانوا في الدنيا محسنين فجزاهم الله على إحسانهم، وزادهم من فضله، وهذا حث لنا وترغيب

في الإحسان، والإحسان المطلوب منا هو فعل الخير والإتيان بالحسنات، ثم إن الله ذكر هنا بعض أفعالهم التي هي خلاصة إحسانهم بعد إيمانهم الراسخ في قلوبهم فقال:

﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.

جاء التعبير بصيغة تفيد التكرار ليدل على أن عادتهم وديدنهم قيام الليل، فهم قليلا ما يهجعون، لا ينامون إلا قليلا، ولا يكون نومهم إلا خفيفا، أسهرهم الخوف من النار، وأطار نومهم فهم يبيتون لربهم سجدا وقياما، يكابدون الليل، فإذا جاء السحر استغفروا ربهم؛ لأنهم يرون أنفسهم مقصرين في عبادة ربهم وشكر نعمه، ويستغفرون لذنوبهم؛ لأن السحر هو الوقت المفضل للذكر والاستغفار كما دلت على ذلك الآثار، وهذه الآية منها، فهم لا يرون لأنفسهم مزية في قيام الليل بل ينسبونها إلى النقص والتقصير، ويذكرون خطاياهم فيستغفرون ربهم ويتضرعون له، هذا ما كان بينهم وبين ربهم أما ما كان بينهم وبين العباد فقوله تعالى:

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.

إنهم يعبدون ربهم ويفعلون الخير، فهم يكسبون الأموال الحلال ولا تشغلهم أموالهم عن عبادة ربهم، ولا تلهيهم تجارتهم ولا زراعتهم عن ذكر الله وعن الصلاة، ثم إنهم يفرضون لأنفسهم في أموالهم حقا للسائل وهو الذي يبدي فقره وحاجته، والمحروم هو الذي لا يبدي حاجته للناس، فهم من التعفف تحسبهم أغنياء وهم مجهودون، ومن هؤلاء من تصيبهم الجوائح فيحرمون من ثمرات كسبهم، فحثّ الله على إعانتهم وجبر كسرهم، وتخفيف المصاب عليهم.

وقد نزلت الآية قبل شرع الزكاة؛ لأن الآية مكية وإنما فرضت الزكاة في السنة الثانية من الهجرة، وقد أمر الله قبل ذلك بإعطاء المساكين حقوقهم من الأموال، ومدح الذين في أموالهم حق للسائل والمحروم حتى يعطف عليهم قلوب الأغنياء، والصدقات

لا تنقطع في وقت من الأوقات، فهي مرغب فيها منذ بداية الوحي، ولما فرضت الزكاة في الأموال بيّن رسول الله ﷺ المقادير والأنصبة والأصناف الذين تعطى لهم الزكاة، وفي الأموال حقوق غير الزكاة، وباب الإحسان مفتوح دائما، وقلوب الأسخياء مليئة بالرحمة على المساكين واليتامى وأبناء السبيل، وأيديهم ممدودة بالخير والعطاء، وفضل الله واسع، والله لا يضيع أجر المحسنين.

﴿وَفِي الأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ، أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾.

يتصل موضوع هاتين الآيتين بصدر السورة، وهو القسم الذي أقسم الله به على أن ما توعدون به صادق، وإن الدين واقع، فقد أقام الله الدليل النقلي بالقسم ليؤكد حقيقة البعث والجزاء بعد الموت، وهنا يقيم الدليل العقلي على إمكان الحياة بعد الموت بما نشاهد من الآيات في الأرض التي نحن من عمارها، وبالتأمل والتبصر في أنفسنا التي هي ألصق شيء بنا بل هي نحن لا غير، فيقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَفِي الأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾.

هذه الأرض التي خلقها الله ودحاها وبارك فيها، وأرسى جبالها، وأجرى أنهارها، وأنبت نخيلها وأشجارها، وأخرج زروعها ومراعيها، وجعلها لنا مهادا، وسخر لنا برها وبحرها، وأنعامها ودوابها، واستعمرنا فيها، ومكننا فيها، وجعلها ذلولا نمشي في مناكبها، وسخر لنا بحارها لتجري الفلك فيها ونأكل منها لحما طريا، ونستخرج منها اللؤلؤ والمرجان.

أفلا نتدبر في آياتها وما يجري من تجدد الحياة بعد الموت في نباتها ونشوء أحيائها طبقا عن طبق، وتطور الحياة في مراحلها، وإخراج الله الحي من الميت والميت من الحي، وإحياء الأرض بعد موتها، أفلا يكون لنا هذا تبصرة وذكرى وهدى ونور للموقنين! نعم للموقنين، لأن بشاشة الإيمان إذا خالطت قلبا انفتحت بصيرته فأبصر فأيقن فكان من عباد الله الموقنين؛ هذه الأرض المليئة بالعجائب غير أن إِلفَنا لهذه الأشياء جعلها

عادية في نظرنا، فغفلنا عن تأمل آيات الله فيها، وإلا فمن يحصي آيات الله في تجدد ملايين ملايين الخلايا في الأحياء، وانتقال خصائص الحيوان والنبات من فصيلة إلى أخرى بواسطة البذور والشعيرات المنوية التي لا ترى بالعين المجردة، وهذا يتجلى في قوله تعالى:

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ، أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾.

إن للإنسان في نفسه التي خلقها أطوارا لعظة واعتبارا، وفي تسوية بنانه وسائر أعضائه، وفي تركيبه في أي صورة ما شاء ربه لا تشبه صورة صورةٌ أخرى، رغم كثرة بني آدم على الأرض العريضة، لا إله إلا الله، وفي الأجهزة التي ركبها الله في جسم الإنسان في المخ والدماغ والفكر والعقل والذاكرة وجهاز الإحساس والسمع والبصر، وجهاز التغذي وجهاز التنفس، والجهاز التناسلي، والغدد والخلايا، وهي دائما في تجدد وتفاعل، كل من هذه الأجهزة يقوم بمهمته في نشاط ونظام دقيق، لا إله إلا الله، ثم في انتقال خصائص الآباء والأمهات إلى أنسالهم بواسطة الشعيرة المنوية وبويضة المرأة، وكم هي هذه الأشياء الدقيقة حتى تنقل كل هذه الخصائص الشكلية المادية، والروحية المعنوية، فسبحان الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا، وكان ربك قديرا، لا إله إلا الله، وماذا عسانا نبلغ من تعداد هذه العجائب في جسم هذا المخلوق العجيب الذي يدل على قدرة خالقه ومبدعه على غير مثال.

وتزعم أنك خلق صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ثم ما هي حقيقة النفس وغرائزها ونوازعها، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: ٧- ٨)، ثم ما هي الروح ومن أين جاءت وأين تذهب؟ ثم كيف تهتدي كل روح إلى جسدها يوم البعث، لا إله إلا الله، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٥)، أفلا نتأمل في أنفسنا ونتبصر ما فيها من آيات الله الدالة على أن الذي أنشأ هذا الجسم من عدم، قادرٌ

على أن يعيده كرة أخرى ويرجع إليه روحه ليقوم لرب العالمين، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧- ٨)، لا إله إلا الله العلي الحكيم، رب السموات السبع ورب العرش العظيم.

وقد ألفتنا الله إلى شيئين الأرض والنفس البشرية، وهما في متناول الجميع، في إمكان كل عاقل أن ينظر في هذين نظر تأمل وتفكر واعتبار في ليل أو نهار، ولا يعمى عن آيات الله إلا الغافلون، ولا ينكرها إلا الكافرون.

﴿وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾.

ويلفت الله أبصارنا إلى السماء، والمقصود بها كل ما سما فوق رؤوسنا، المطلوب منا أن ننظر إلى السماء نظر اعتبار لنستجلي آيات الله فيها، ومنها هذا الماء الذي ينزل من السماء، سماه الله رزقا وهو نفسه شراب طيب لنا، ومنه نبات أرزاقنا وانتعاش الدواب والأنعام التي منها رزقنا، فلولا هذا الخير النازل من السماء، لانعدمت الحياة في هذه الأرض، وقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠)، وكذلك الأشعة الآتية من الشمس والقمر والنجوم؛ والحيوان والنبات وحتى الحوت في البحار، وكل ما هو رزق ضروري للإنسان.

ومما يدخل ضمن هذا المدلول للرزق كتابة أرزاقنا وتقديرها في السماء في كتاب مبين، ويقوي هذا المعنى قوله تعالى: **﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾** فإن هذا الوعد لم ينزل بعد وهو مكتوب في السماء لأجل مسمى هو آت لا ريب فيه، فكل شيء من الله قضاء وقدرا وخلقا وإنزالا وتقسيما، والملائكة في السماوات تتلقى أوامر الله فتنزل بها إلى الأرض، ثم إن الله تبارك وتعالى أكد هذا الخبر بقسم مغلظ لأن كثيرا من الناس لا يؤمنون بوعد الله، ومنهم من يرتاب فيه فأقسم لهم ليزول الريب من القلوب الضعيفة فقال تعالى:

﴿فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾.

إنه لقسم عظيم برب السماء والأرض، إن رزق الله المقدر المقسوم لحق، وإن يوم الله الموعود لحق واقع، وضرب الله مثلا لحقيقته ووقوعه بنطقنا، فهل يشك الواحد منا في نطقه أنه له أو لغيره؟ كذلك لا تشكوا في رزقكم كما أنكم لا تشكون في نطقكم، ولا تشكوا في وعد الله بالبعث، فوعد الله حق لا ريب فيه، واختار النطق لأنه خاصة يتميز بها البشر على سائر الحيوانات، فهي وإن صوتت بحناجرها أو ببعض أعضائها غير أنها لا تملك تقطيع الحروف الهجائية وتركيبها إلى كلمات وجمل تعبر بها كما يعبر الإنسان عن مقصوده، فهي الميزة التي يمتاز بها الإنسان دونها، ولذا لم يقل مثل ما أنكم تبصرون أو تسمعون أو تشمّون أو تحسون؛ لأن هذه الحواس تتمتع بها الحيوانات أيضا، وفيها ما هو أقوى سمعا وبصرا وشما وإحساسا من الإنسان بأضعاف.

ثم إن الله اختار التمثيل بالنطق لأنه القوة التي يجادل بها الإنسان الكنود ربه ويكذّب بالحق، ويشك في البعث، وينكر يوم القيامة، ويجادل بغير علم بنطقه الفصيح البليغ، وينسى أن الله هو الذي خلقه من تراب ووهب له هذه الفصاحة والبلاغة وميّزه بها عن غيره من الحيوانات ﴿أَوَلَمْ يَرَ الانسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس: ٧٧- ٧٩)، فكما أنك أيها الإنسان الخصيم المبين لا تشك في هذه القوة الناطقة التي وهبها الله لك فلا تشك في وعد الله ووعيده، فإذا رفعت رأسك إلى السماء فتفكر فيها تدلك على خالقها العظيم القدير، وإذا خفضت رأسك إلى الأرض فانظر نظر اعتبار تدلك على خالقها العظيم القدير، فهو رب السماء والأرض فآمن به وتيقن بوعده ووعيده، ولا تمار في آياته، ولا تجادل في ربك بغير علم.

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ
فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ
بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾
فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾
فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ
﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾
* قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ
قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً
عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾
فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً
لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ
﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ
أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا
جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾
فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا
ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ
كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾

ينتقل الأسلوب القرآني البليغ من التذكير بآيات الله في الأرض والسماء، وفي الأنفس والاستدلال بها على قدرة الخالق على إعادة الخلق بعد إفنائهم، ينتقل من كل ذلك إلى

الاعتبار بأخبار الأمم السالفة، والتخويف من عاقبة المكذبين، وبيان عاقبة الصابرين، وفي ذلك تسلية لقلب النبي ﷺ وقلوب المؤمنين، ولذلك وجّه الخطاب إليه فقال تعالى:

﴿هَلَ اتَاكَ حَديثُ ضَيْف إبْرَاهيمَ الْمُكْرَمينَ إذْ دَخَلُوا عَلَيْه فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ فَرَاغَ إلَىٰ أَهْله فَجَاءَ بعجْلٍ سَمينٍ فَقَرَّبَهُ، إلَيْهمْ قَالَ أَلاَ تَاكُلُونَ فَأَوْجَسَ منْهُمْ خيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بغُلاَمٍ عَليمٍ فَأَقْبَلَت امْرَأَتُهُ في صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقيمٌ قَالُوا كَذَٰلك قَالَ رَبُّك إنَّهُ هُوَ الْحَكيمُ الْعَليمُ﴾ .

هل أتاك؟ الاستفهام للتحقيق والتقرير، أي قد أتاك، ولكن اختيرت صيغة الاستفهام لأن فيها حيوية تجلب الانتباه لما سيلقى، هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين، أي خبر ضيف إبراهيم المكرمين، ذلك لأنهم ملائكة وهم عباد مكرمون، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما، أذكر خبر ضيف إبراهيم الخليل حين دخلوا عليه، فإسناد واو الجماعة إلى الفعل يفيد أن الضيف كانوا جماعة، والضيف يطلق ويراد به الفرد والجماعة، ويقال إنهم جبريل وميكائيل وملك آخر، وقيل هو إسرافيل، دخلوا عليه فحيوه بالسلام، وهي التحية الطيبة المباركة، فرد عليهم إبراهيم عليه السلام بمثلها، قال سلام قوم منكرون، قال هذا لأنه لا يعرفهم، وقيل: إن الكلمة قالها في نفسه أو بينه وبين أهله وغلمانه، وذلك تأدبا لئلا يزعجهم وقد جاؤوا على هيئة شباب مرد حسان في هيئة عظيمة، عليهم مهابة ووقار.

﴿فَرَاغَ إلَىٰ أَهْله فَجَاءَ بعجْلٍ سَمينٍ﴾.

الروغان الميل إلى جانب في تلطف وخفاء، فعل ذلك لئلا يزعج ضيفه ولا يحرجه، وهي طبيعة الكرام يسرعون بالإتيان بالقرى في تلطف حتى لا يحرجوا ضيوفهم ولا يخجلوهم، إذ ربما يستحي الضيف وينهاه عن التكلف والمشقة، راغ إبراهيم عليه السلام إلى أهله وخدمه فأمرهم أن يأخذوا عجلا سمينا يختارونه من بين عجوله ليذبحوه

ويشووه ويقدموه لأضيافه في مدة قليلة، فما هي إلا فترة قصيرة حتى جاء به مشويا، فقدمه لضيفه، وتلك طبيعة الأسخياء الكرام، فإنهم يختارون كرائم أموالهم ليكرموا بها أضيافهم ويقدمون القرى للضيف، ويضعونه بين يديه ولا يكلفونه أن يتقدم هو للطعام، وذلك مبالغة في إكرامه، وإدخال الأنس والبهجة على قلبه، هذا ما كان من إبراهيم، فماذا كان من ضيفه؟

إنهم لم يمدوا أيديهم إلى الطعام لأنهم ملائكة، وما كان إبراهيم يدري أنهم ملائكة ولذا فإنه رغبهم في الأكل فقال: ﴿أَلاَ تَـأْكُلُونَ﴾ حرضهم بكل أدب واحترام وبدون إلزام لأن الكريم يسره أن يأكل الضيف طعامه، فلما كفوا عن الأكل أوجس منهم خيفة، خاف منهم أن يكونوا جاءوا للبطش به لأن المعروف عند الناس منذ القدم أن الضيف الذي يأكل طعام مضيّفه لا يخدعه ولا يغدر به، فإن كان أراد به شرا فإنه يقبض يده عن طعامه، فأوجس إبراهيم منهم خيفة ولكن ملائكة الله الكرام سرعان ما طمأنوه ولم يتركوه في حيرته وخوفه.

﴿قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ﴾.

لم يطمئنوه فحسب بل زادوا على ذلك فبشروه بغلام عليم يولد له من زوجه العجوز، فالبشارة تحمل خبرين سارين: ولادة الغلام الذكر وأنه يكون صالح يكرمه الله بالعلم المتمكن في عقله وقلبه، فلما سمعت سارة امرأة إبراهيم البشارة تعجبت من الأمر فصاحت وضربت وجهها لفرط دهشتها.

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

أقبلت زوجة إبراهيم في صرة، أي رافعة صوتها بالتعجب والاندهاش وصكّت وجهها وقالت أألد وأنا عجوز عقيم! روي أنها كانت يومئذ بنت تسع وتسعين وكانت عاقرا لم تلد قط، وكان زوجها شيخا، قيل كان عمره مائة وعشرين عاما، فسبحان الله الفعال لما يريد الذي أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ .

قالت الملائكة لسارة عليها السلام: كذلك قال ربك، أي كما بشرناك قال ربك الذي خلقك وخلق كل شيء وهو الخلاق العليم، رب كل شيء ومليك كل شيء، إنه هو الحكيم يقدّر الأشياء بمقتضى حكمته، العليم الذي يعلم أمرك وأمر زوجك، لا يخفى عليه شيء، العليم بأمر الخلق بدءاً وإعادة، فلا تعجبي من أمر الله الحكيم العليم، وسبّحي لجلاله بحمده، وقدّسيه وأبشري بحفاوته بكم آل بيت خليله إبراهيم.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ، أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾.

بعد الفراغ من أمر البشارة وبعد أن عرف إبراهيم أنهم ملائكة الله وأنهم لابد نزلوا لأمر وهم لا يتنزلون إلا بأمر الله، سألهم عن شأنهم سؤال مستأنس بهم ومتطلع إلى معرفة خبرهم، فأجابوه إلى سؤاله لأن الله أذن لهم بذلك وما كانوا ليبوحوا له بسرهم لولا أن الرب الجليل أمرهم بذلك، وفي هذه الحكاية كرامة عظيمة لأبينا إبراهيم عليه السلام.

﴿قَالُوا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾.

قال ملائكة الله لإبراهيم عليه السلام: إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين، وهم قوم لوط، وهم ليسوا بعيدين، فهم في سدوم وعمورية، وإبراهيم في فلسطين قريب منهم، أجاب الملائكة إبراهيم على سؤاله لأن الله أذن لهم بذلك، ووصفوا القوم الذين أرسلوا إليهم بالمجرمين؛ لأنهم إلى كفرهم بالله ورسوله، وتمردهم على نبيهم لوط، كانوا مصرين على إتيان الذكور شهوة من دون النساء، وهو من أعظم الفواحش، فوعظهم نبيهم لوط وأنذرهم بطشة الله، فما أغناهم الإنذار، وتمادوا على كفرهم وعنادهم وإسرافهم في فعل الخبائث، فلما جاء أجلهم المحدود أرسل الله ملائكته بالعذاب الذي يستأصل شأفتهم ويقطع دابرهم، وهي ثلاثة أنواع من العذاب: الصيحة المهلكة، وإرسال

الحجارة المسومة عليهم، وجعل عالي ديارهم سافلها، ولم يذكر الملائكة هنا إلا إرسال الحجارة، وقد ذكرت الأنواع الأخرى في غير هذا الموضع من القرآن، وفي هذا الموضع جاء عرض خبرهم مختصرا، ولكل أسلوب وقعه في النفوس الواعية.

ذكرت الملائكة أن الحجارة التي أعدت لإهلاك قوم لوط من طين، وأنها مسوّمة أي معلمة موسومة على كل حجر اسم صاحبه الذي أرسل إليه لا يخطئه، قيل إنه يدخل من أعلى رأسه ويخرج من دبره، وذكر أنها حجارة من طين مسجور عليها في النار، لا يعلم إلا الله مقدار الألم الذي يذوقه من تصيبه، وما ذاك إلا جزاء على إسرافهم في المعاصي والإجرام، نسأل الله السلامة والعافية.

وذكروا أن هذه الحجارة مسومة عند الله للمسرفين، قد خلقها وأودعها عذابه وأمر بإرسالها في الأجل المحدود إلى أصحابها المستحقين لها، وأمر الله لابد واقع. قال الله تعالى:

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُومِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْاَلِيمَ﴾.

الأفعال هنا كلها مسندة إلى نون العظمة، والمقام مقام إجلال وتعظيم، لقد حفت عناية الله بعباده المؤمنين فتولى أمرهم، والله ولي المؤمنين، قال الله تعالى:

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُومِنِينَ﴾.

فأخرجنا بأمرنا وتيسيرنا من كان فيها من المؤمنين وهو لوط وآل بيته.

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

فما ألفينا فيها أي في قراهم كلها غير بيت واحد من المسلمين، و الإيمان هو التصديق بما يجب به التصديق ثم العمل بمقتضاه، والإسلام هو الخضوع لأمر الله باطنا وظاهرا، فليس في قوم لوط إلا بيت واحد أهله مؤمنون مسلمون وهو لوط وأهله إلا امرأته فإنها كانت كافرة، فأصابها ما أصابهم من العذاب. قال تعالى:

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾.

أي وتركنا في إهلاكهم آية باقية يعتبر بها الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويخافون عذاب الله الأليم، ولا يزال موضع تلك القرى الخاوية موضع اعتبار للمارين به، وهي واقعة على سبيل مقيم، عبرة للمعتبرين، وما يذكر إلا أولوا الألباب.

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذَ اَرْسَلْنَاهُ، إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ اَوْ مَجْنُونٌ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

لا يزال الكلام مستمرا في التذكير بأخبار السالفين من الأنبياء والرسل مع من كذبوهم من أممهم وكيف كانت عواقبهم وخيمة، وفي استعراض أخبارهم لون من ألوان الإنذار، ويصرّف الله آياته للناس لعلهم يتذكرون.

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذَ اَرْسَلْنَاهُ، إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

وفي إرسال موسى إلى فرعون آيات بينات حين أرسله الله إلى فرعون ليدعوه إلى عبادة الله وحده، أرسله الله إليه بآيات متتابعات، منها آية العصا وآية اليد، وغيرها من الآيات التي جاء ذكرها في القرآن في غير هذا الموضع، ويعرفها قريش وسائر العرب، ويتناقلون أخبارها ولا ينكرونها، وجاء التعبير عن الحق الواضح المؤيد بالمعجزات بالسلطان المبين ؛ لأن للحق سلطانا على القلوب الواعية، والحق نور يبين الرشد من الغيّ، فلا عذر لمن أنكر الحق المبين.

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ اَوْ مَجْنُونٌ﴾.

فتولى فرعون، أي فأعرض ونأى بجانبه أو أعرض بقومه الذين يعتز بهم فلم يتركهم ليستمعوا إلى موسى ويستجيبوا للحق لكنه أبى واستكبر وطغى وقال أنا ربكم الأعلى، وقال لقومه : إن هذا لساحر مجنون، يريد أن يخرجكم من أرضكم، وقد علم أن السلطان الذي جاء به أعظم من السحر كما أدرك ذلك السحرة أنفسهم واعترفوا به علانية وآمنوا برب موسى وهارون، ولكن فرعون الطاغية أصر على الكفر وأبى وأراد

أن يموّه على الناس فقال للسحرة حين أعلنوا إيمانهم برب موسى: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، قال هذا وقد أدرك الأمر واضحا جليا، ولكنه كان طاغيا لم يتركه طغيانه أن يخضع لسلطان الله المبين فأهلكه الله وقومه.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

لقد كان فرعون سبب شقاء قومه التابعين له، فأوردهم الهلاك في الدنيا بالغرق في اليم والنار في الآخرة، فما هو إلا أن أخذه الله وقومه أخذ عزيز مقتدر، لما جاء أجلهم فنبذهم في اليم من البحر، وأغرقهم فما أهونهم على الله، وما أدلّ هذا التعبير القرآن البديع على ضعفهم وهوانهم وحقارتهم، وفي خبرهم عبرة للمعتبرين، وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين الملومين، وهو ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾. أي فاعل ما يلام عليه هو وقومه الخاضعون له، وإن يستعتبوا فما هم بمعتبين.

لقد أجمل في هذه الآيات الثلاث خبر موسى وفرعون من أوله إلى آخره في أسلوب مؤثر بديع معجز، له سلطان على نفوس السامعين، لا يقل تأثيره على الآيات المسهبة التي بسطت خبرهم في مواضع أخرى من القرآن، ولكل وقعه في النفوس، وتأثيره في القلوب، وكذلك يصرف الله الآيات لقوم يعقلون.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾.

وفي عاد قوم هود آية بيّنة إذ أرسل الله عليهم الريح العاتية المهلكة العقيم، لقد كانت هذه الريح عقيما ليست من الرياح اللواقح المبشرات، بل كانت عقيما مدمرة، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، أي دمرته فأصبح كرمّة العظم باليا مفكك الأوصال، الناس والحيوان والديار والأشجار، لقد كانت الريح صرصرا عاتية لا تبقي ولا تذر، أبادت عادا ومصانعهم وجناتهم فأصبحت مساكنهم خاوية لا داعي فيها ولا مجيب، وهذا جزاء كفرهم وتمردهم وعتوهم وطغيانهم، فليعتبر المعتبرون.

وهكذا يطوي خبر أمة عاتية ذات حضارة وعمران في سبع ليال وثمانية أيام، ونجّى الله هودا والذين آمنوا معه برحمة منه، ويوجز الله الكلام هنا عنهم في آيتين، وفي هذا الإيجاز تعبير عن قدرة الله وبطشه بأعدائه، فلا يعجزه شيء ولكل أجل كتاب.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾.

وفي إهلاك ثمود قوم صالح بالصاعقة آية من آيات الله للمتوسمين المعتبرين، فقد قال الله لهم على لسان رسوله حين تمردوا وعقروا الناقة، قيل لهم: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب، عتوا وطغوا وأعرضوا عن أمر ربهم، فحقت عليهم كلمة العذاب فأخذتهم الصاعقة وأهلكهم بصيحة عظيمة مدوّية انخلعت لها أوصالهم وزهقت أرواحهم، أخذتهم وهم ينظرون، أي على حين انتظارهم لها وعلمهم بمجيئها، وقرب وقوعها، وفي انتظار العذاب المحقق عذاب آخر قد يكون أشد منه، وقد كانوا يظنون أن بيوتهم في الجبال مانعتهم من عذاب الله، فلا ريح تدمّرهم، ولا حجارة تحصبهم، وما علموا أن لله أصنافا من العذاب، ومكر الله شديد، وما يعلم جنود ربك إلا هو. قال تعالى:

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾.

أي فما استطاعوا من حراك للهروب من عذاب الله ولا من قيام لدفعه لما نزل، والأمر أعجل من ذلك وأقوى وأعظم، وما كان لهم من قوة ولا ناصر ينصرهم، وأنى لهم وهم أذلّ وأضعف من ذلك! وهكذا تطوى قصتهم في هذا الأسلوب الموجز المعجز، وفيها إنذار لقريش لأن عادا وثمودا عرب مثلهم، فليس كفارهم خيرا من كفار غيرهم، فليعتبر المعتبرون.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

يطوي الله تبارك وتعالى خبر رسوله نوح عليه السلام وقومه الفاسقين في آية واحدة في إيجاز بديع ، يختم به خبر الأنبياء المذكورين في هذه السورة ، بيد أنه المقدم في الزمن كما أشار إلى ذلك بقوله ﴿من قبل﴾ والقرآن كتاب وعظ وتذكير، وليس كتاب ترتيب لوقائع التاريخ ، والحكمة قد تقتضي في بعض المواطن البداية بذكر الأدنى قبل الأقصى زمنا وموضعا ، والأدنى يكون أشد تأثيرا في النفوس ، ولذا قد تكون له الصدارة لهذا الاعتبار ، قال تعالى : ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي ولقد أهلكنا قوم نوح من قبل بما علمتم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾. أي خارجين عن طاعة الله ، كافرين برسل الله وآياته فاستحقوا بكفرهم وفسقهم الهلاك ، فأغرقوا وأدخلوا نارا ، ونجى الله نوحا ومن معه من المؤمنين ، وفي قصة نوح وقومه عبرة للمعتبرين.

وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾
وَالْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ الْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾
وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾
كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾
أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾
وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ * وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ
وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ
أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ
لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ
﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

يعود البيان القرآني البديع إلى التذكير بآيات الله في السموات والأرض وما بينهما وما في الأرض، هذا بعد ذكر السماء والأرض من قبل، والإلفات إلى آياتها وبعد القسم برب السماء والأرض إن وعد الله حق مثل ما أنكم تنطقون، يلفتنا الله تبارك وتعالى إلى التدبر في السماء وما بناها والأرض وما طحاها ومهدها، والأزواج وما سوّاها لعلنا نتذكّر ونراجع عقولنا، فندرك أن الذي خلق هذه المخلوقات العظيمة ولم يعي بخلقهن قادر على أن يحيي الموتى بعد فنائهم، والإعادة أهون من البدء، وقدرة الله صالحة لكل شيء وهو الواسع العليم.

﴿وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾.

قدم ذكر السماء للاهتمام بها وإلفات الانتباه، وهي مفعول به لفعل مقدر يفسره الفعل المذكور وتكرار الفعلين، المضمر والمذكور يفيد التأكيد الذي يُفيده تكرار الجملة، وقد أسند البناء إلى السماء لأنها تبدو للناظرين كالقبة المبنية المرفوعة بغير عمد، فسبحان من رفعها بقدرته، والأيد هنا هي القدرة لا الأيدي التي هي جمع يد، وقد جاء نظيره في القرآن الكريم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ١٧)، ويقال: فلان أيّد، للرجل القوي.

يقول الله تعالى: انظروا إلى السماء فوقكم كيف بنيناها بقدرتنا **﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾** أي لقادرون، أي على ذلك وعلى بنيان أمثالها وما مسّنا من لغوب، والوسع هو القدرة، قال الله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)، أي طاقتها وقدرتها، ومن المفسرين المحدثين من يعطي الكلمة معنى آخر وهو الزيادة في سعة هذا الكون، وقالوا: إن الكلمة تدل على هذا المعنى، وقد دلّت الاستنتاجات العلمية الحديثة أن أجرام السماء تتوسع قليلا ويبتعد بعضها عن بعض، فالكون لا يزال يتّسع ويمتد.

﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾.

ويجيء ذكر الأرض مفعولا به لفعل مقدر يفسره المذكور، هذا على غرار ما تقدم في ذكر السماء وتكرار الفعل كتكرار الجملة في إفادة التوكيد والاهتمام.

انظروا إلى الأرض التي أنتم منها وتعيشون فيها، وتمشون في مناكبها، وقد مهدناها، أي فرشناها لكم، فنعم الماهدون نحن، ولو شئنا لجعلناها نتوءات وحفرا فلا تتيسر المعيشة عليها، فتفكروا في خلقها ومهادها، واشكروا الله الذي ذللها ومهدها لكم، تبنون وتغرسون وتمشون وتستقرون حيث شئتم منها، أليس ذلك من فضل الله ونعمته عليكم وعلى أنعامكم!.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ومن كل شيء من الحيوان والنّبات والجماد مما تبصرون وما لا تبصرون خلقنا زوجين، أي نوعين الذكر والأنثى، ومن الطاقة الكهربائية السالب والموجب، ومن الذرّة النواة والاليكترون، وحتى من الماء الأوكسجين والهيدروجين، فسبحان خالق الأزواج، أي الأنواع مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون.

وفي التفكر في هذا الخلق ما ينبئ عن قدرة الخالق على إعادة الأجساد بعد بلاها وفنائها وإعادة الحياة إليها، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأحقاف: ٣٣).

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ـــ اخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

فإذا تذكّرتم ووجدتم أن أمر البعث والإعادة أهون من الخلق الأول لا محالة ففروا إلى الله وحده، ولا تلتجئوا إلى المكابرة والإنكار، فلا ينفعكم ذلك عند الله بل يضركم، ففروا إلى الإيمان بالله واتباع صراطه المستقيم، إني لكم من الله رسول مبين،

أنذركم عذابا أليما واقعا لابد، لمن أعرض عن ذكر الله وكذّب بآياته، والنذارة الإخبار بعذاب مقبل مع الدعوة إلى ما يتوقى من هذا العذاب قبل حلوله.

﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

إنه نذير مبين مفصح بنوع هذا العذاب، ومقدار عظمه وإنه عذاب دائم لا مخلص منه، وليس نذيرا مغمغما لا يفصح كغمغمة الكهّان، فلا عذر بعد هذه النذارة لأحد أن يقول إني كنت عن هذا غافلا.

﴿وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ـــ اخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

بعد الأمر بالفرار إلى الله يأتي النهي عن اتخاذ إله مع الله، والشركُ ظلم عظيم، وهو مفتاح للظلم وارتكاب الإجرام والموبقات، وأنواع الفجور، فيأتي النهي مؤكدا لمدلول الأمر كما تأتي جملة النذارة مكررّة مؤكّدة لسابقتها، والأمر جد وخطير، فليس هناك مطمع في النجاة من عذاب الله إلا بالفرار إلى الله وإخلاص العبادة له وحده، والأمر بالفرار إلى الله يشمل المشركين وأهل التوحيد المصرّين على الكبائر استعدادا للقيام لرب العالمين للحساب.

أما النهي عن اتخاذ إله مع الله فيختص بالمشركين الذين يتخذون أندادا من دون الله يحبونهم كحب الله، ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله، هذا هو المعنى الذي نختاره نحن الإباضية حتى تتسع الآية لإنذار المشركين والعصاة من أهل التوحيد.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى الذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ اِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ اَوْ مَجْنُونٌ﴾.

فُصل بين الجملتين بكذلك، وهي كلمة يؤتى بها لفصل الخطاب، وذلك عند الانتقال من موضوع إلى موضوع آخر، وقد جيء بها هنا للانتقال إلى تسلية النبي ﷺ والمؤمنين مما يسمعونه من أذى الكفار وسخريتهم واستهزائهم، فهذا شأن الكفار في كل زمان، وصدّرت الجملة بعد الخبر بالاستفهام التعجبي.

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو قالوا مجنون، قوم نوح وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والموتفكات، وقوم هود وقوم صالح، وكذلك فرعون وقومه، آلاف السنين بين الأولين والآخرين، ومقالتهم في رسل الله واحدة، كأن الأولين أوصوا الآخرين، وكأن الآخرين أخذوا العهد من السالفين أن يقولوا مثل مقالتهم، أكثرهم معرضون، تشابهت قلوبهم في الطغيان والصدود والإعراض عن الحق فقليل منهم من يقبل الحق ويؤمن به، وما منعهم من قبول الحق إلا طغيان نفوسهم وقساوة قلوبهم، فهم قوم طاغون، ولما كان هذا طبعهم أمر الله نبيه بالصبر والصفح الجميل.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤمِنِينَ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى مخاطبا نبيه، ويصلح الخطاب لكل الدعاة إلى الله المجتهدين في دعوتهم الناس إليه، فتولّ عنهم، أي أعرض عنهم ودع أذاهم ولا تبال بهم إذا آذوك وأعرضوا عن دعوتك، ولا تهتم بإعراضهم، ولا تبخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين، فما أنت بملوم، أي لا تلام على عدم استجابتهم، فقد أدّيت واجبك ولا عليك، وليس معنى الإعراض أن يترك دعوتهم ويغسل يديه منهم ؛ لأنهم لا يستجيبون بل الإعراض والتولي عن أذاهم واستهزائهم وسخريتهم، أما تذكيرهم فهو واجب لا ينقطع إذ ربما يستجيب له من أراد الله بهم خيرا فيؤمنون، كما أنه ينتفع بتذكيره المؤمنون، والذين علم الله أنهم سينتفعون بالذكرى فيؤمنون، وليس العبرة بكثرة المنتفعين إنما العبرة بجودة النوع، ولو كان قليلا فإن للمؤمنين شأنا عند الله ؛ ولأن يهدي الله رجلا على يديك خير لك مما طلعت عليه الشمس، خير من الدنيا وما فيها.

فالآية الثانية مكملة للآية الأولى موضحة لمعناها، فليس التولي هنا هو الإعراض عن تذكيرهم بل هو الإعراض عن أذاهم وترك الهم لعدم إيمانهم ؛ لأن النبي ﷺ كان يهتم كثيرا لعدم إيمانهم، فسلاه الله بهذه الآية وطمأنه أنه غير ملوم على ذلك ﴿فَذَكِّرْ

إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ ، فعلى كل داعية بعد رسول الله ﷺ أن يكرر الدعوة ولا ييأس فإنه سينتفع بدعوته المؤمنون ، وسيؤمن من أراد الله به خيرا ، فكفاه أجرا وكفاه معذرة إلى ربه.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالانسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

في أثناء الإنذار والتخويف بما أصاب المكذّبين الأولين من العقوبات ، وما سيصيب المتأخرين من الظلمة الكافرين ، وبعد ذكر آيات الأمر بالفرار إلى الله والنهي عن جعل الأنداد آلهة مع الله ، وأمر الله نبيه أن يتولى عنهم ويعرض صفحا عن أذاهم ، فليس عليه إلا البلاغ والتذكير ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين.

في هذا السياق من المواعظ البليغة ، والقوارع الزاجرة يبيّن الله لنا الحكمة من خلق الإنس والجن في هذه الأرض ، وقد يتساءل العقلاء منا ومن الجن لماذا خلقنا في هذا الوجود؟ وماذا يريد منا خالقنا وخالق الوجود رب العالمين؟ فجاء الجواب المفصح من الله ربنا ورب العالمين.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالانسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى : وما خلقت هذا الخلق الذين ميزتهم بالعقل المدرك إلا ليعرفونِ ويعبدون ، أي يوحدون ويطيعون ، فليست حياتهم إلا لعبادة خالقهم ، فمن عبده أثابه وكرم مثواه ورضي عنه ، ومن أشرك به وعصاه عذّبه وسخط عنه ، وهكذا اقتضت حكمة الله العلي القدير الفعال لما يريد أن يخلق هذا الخلق للابتلاء والامتحان ، ويبين لهم الحكمة من خلقهم حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيي عن بيّنة.

ولعل أحدا يظن أن الناس إنما خلقوا فقط للصلاة والصوم وتلاوة القرآن ، وللمساجد وزوايا العبادة بهذا المعنى ثم لا يخرجون لكسب الرزق لمعاشهم ، كلا ! هذا

خطأ في فهم كلام الله ، بل الآية تدل على عكس ما يظن الجاهلون والمتنطعون الذين يشككون الناس في وسطية الإسلام وسماحته وواقعيته وعدالته ، ربما يسوغ هذا الفهم لو لم يرد في القرآن إلا هذه الآية ، لكن قد ورد في القرآن آيات وآيات تأمر الناس بالعمل والكسب وتقرهم على البيع والشراء ، وترشدهم في بيعهم وشرائهم وتجارتهم ، وكسبهم للرزق الحلال ، وجاءت أحاديث صحيحة تبين ما للعامل المكد في عمله من الأجر ، وإن الكادّ في طلب الرزق له أجر الصائم القائم ، بل أجر المجاهد في سبيل الله ، وأن من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفورا له ، ففي يوم الجمعة الذي هو يوم العبادة يأذن الله بالبيع حتى يسمع الناس نداء الجمعة ، فحينئذ يتركون البيع ويسعون إلى ذكر الله ، ثم إذا قضوا الصلاة ينتشرون في الأرض يبتغون من فضل الله ، إن الله لم يمنع البيع والتجارة إلا عند النداء للصلاة من يوم الجمعة ، وكذلك المؤمن يستجيب لله في كل الصلوات ، ويدع البيع ويسعى إلى ذكر الله في بيوت الله ، ثم يقول الله تعالى :

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ يُّطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

يقول الله تعالى : ليس الغرض من خلق الجن والإنس أن أجلب بهم الرزق كما يفعل الناس ، يتخذون العبيد والإماء لخدمة المال وتنميته ، فإني لم أخلقهم لأستكثر بهم من قلة ، ولا لأعتز بهم من ذلة ، أو لأكتسب بهم الرزق أو يطعمون ، فإن الله يُطعِم ولا يُطعَم ، وإن خزائنه لا تنفد ، ولله خزائن السموات والأرض ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، هو الرزاق يرزق جميع مخلوقاته بأنواع الأرزاق ولا يضيعها ، وهو ذو القوة المتين ، والوصف بهذه الصيغة أبلغ من الوصف بالقوي ، فهو مالك القوة وصاحبها وغيره الضعفاء المحتاجون إليه ، فلا قوي إلا من قوّاه الله القوي المتين ، والمتين الشديد المحال الذي لا يرد بأسه ولا تطاق سطوته ، من كان كذلك فهو أحق أن يعبد

ويوحد ولا يشرك به غيره، ويذكر ولا ينسى، ويطاع ولا يعصى، و يشكر ولا يكفر، ويخاف بأسه وعقوبته، ويتقى سخطه، وما يذكّر إلا أولوا الألباب.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَّوْمِهِمُ الذِي يُوعَدُونَ﴾.

تختم السورة بمثل ما بدئت به، وهكذا يقتضي الأسلوب أن يكون فيها عود على بدء حتى لكأنها حلقة يردّ أولاها على أخراها، فقد بدئت بالذاريات ذروا فالحاملات وقرا، فالجاريات يسرا، فالمقسمات أمرا إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع، وفي الختام يقول الله: فويل للذي كفروا من يومهم الذي يوعدون، وهو اليوم الحق الذي هو آت لا ريب فيه، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ﴾.

ذلك لأن الذين كفروا يكذبون بوعد الله ويقولون: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، ويستعجلون وقوعه سخرية واستهزاء، فأخبر الله نبيه والمؤمنون أن لهؤلاء الذين ظلموا بالشرك وما دون الشرك من الإجرام أن لهم ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم، أي حظا ونصيبا من العذاب مثل أسلافهم المكذبين الضالين، والذّنوب هي الدلو الكبيرة ذات الذنب التي يزجر بها ويغرف بها من البئر.

إن الله تعالى قد أعد لهم ذنوبا من عذابه كذنوب أصحابهم، وجعل لهم أجلا لا ريب فيه، فلا تستعجلوه، فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، والويل لهم من يومهم الذي يوعدون، وما أعظم وقع هذا الوعيد الشديد في القلوب الواعية! إنه تهديد عظيم، تهتز له النفوس، وترتجف له القلوب، نسأل الله العلي الكبير أن يجعلنا من المتعظين بكلامه البليغ، المزدجرين بوعيده المبين، وأن يجنبنا عواقب الظالمين في الدنيا والآخرة، آمين والحمد لله رب العالمين.

تم تفسير سورة الذاريات بما تيسر وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الطور مكية

وآياتها ٤٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾
وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ
﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ
مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ
﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ
جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾
أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوٓا أَوْ لَا تَصْبِرُوا
سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾
إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ
وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم
بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا
بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ

رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾
يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ
عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ
ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ
نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ
رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ

تبتدئ هذه السورة الكريمة بمثل ما ابتدأت به سابقتها بالقسم والزواجر الصاعقة حتى لكأنهما سورة واحدة، وما ذلك إلا لشدة ما بين سور القرآن من التناسق والتناسب، فهي سلاسل ذهبية متينة الترابط، حلقاتها متداخلة متماسكة، فتبتدئ سورة الذاريات بالقسم بأربعة أشياء على تحقق وقوع يوم الدين، وهو يوم الجزاء، وتبتدئ هذه السورة بالقسم بخمسة أشياء على وقوع عذاب الله يوم القيامة، ويوصف يوم القيامة بأوصاف عظيمة، تصعق لها قلوب أولي الألباب، وتلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله.

وقد رويت في هذا المعنى حكايات عجيبة عن بعض السلف ممن لهم إيمان ويقين وبصائر، من ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان ذات ليلة يطوف بشوارع المدينة يحرس ويتفقد أحوال المساكين كعادته رضي الله عنه، فمر ببيت من بيوت المسلمين كان صاحبه يقرأ سورة الطور فوقف يستمع، فأخذته حالة مدهشة غريبة، فنزل عن حماره وجلس متكئا على حائط يتدبر الآيات، وقد انخلعت أوصاله لشدة الذهول حتى إذا آنس من نفسه بعض القوة عاد فركب حماره ورجع إلى بيته، فمكث شهرا كاملا لا يخرج من بيته ولا يقوى على القيام من فراشه لما أصابه مما يشبه المرض

من شدة الهول والفزع والناس يعودونه ولا يدرون سبب مرضه، واستمع بعض السلف لتلاوة هذه السورة فأغمي عليه من شدة الفزع.

ويروى عن جبير بن مطعم أن هذه الآيات من أوائل سورة الطور كانت سبب إسلامه، وذلك حين قدم إلى المدينة لمفاداة أسرى بدر فصادف أن دخل المسجد وقت صلاة المغرب والنبي ﷺ يقرأ سورة الطور، فلان قلب جبير فأسلم، وللنفوس حالات تصفو فيها يتجلى لها نور الحق فتبصر ويهدي الله لنوره من يشاء، ويروى عن بعضهم أنه رأى في المنام خمس واوات كتبت في يده، فلما انتبه من نومه ذهب إلى ابن سيرين يسأله عن تفسيرها، فقال له: استعد لما لا يَسُر، فأحيط به بعد يومين أو ثلاث، وقد أخذ ابن سيرين تعبيرها من هذه السورة ذات الواوات الخمسة في القسم بخمسة أشياء.

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ الذينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَذَآ أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أقسام متتالية بخمسة أسماء لها شأن عظيم، وهي آيات تنبئ عن عظمة ربها وخالقها، وهي كلها مُنصبة على تحقيق عذاب الله الموعود للمكذبين بيوم الدين، فويل لهم يومئذ من الله.

أقسم الله تبارك وتعالى بالطور، وهو الجبل الذي اختاره الله موضعا لميقات عبده ورسوله موسى عليه السلام، كلمه الله وأنزل عليه التوراة هدًى له ولقومه بني إسرائيل؛ والطور اسم للجبل باللغة العبرية، والمراد به هنا هذا الجبل الخاص الذي ناجى الله فيه نبيه موسى عليه السلام.

﴿وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾.

ثم يقسم ربنا تبارك وتعالى بالكتاب المسطور في رق منشور، هو الكتاب الذي يلقاه منشورا كل إنسان ويقرؤه ويجد فيه كل صغيرة وكبيرة، وهو من شؤون يوم الحساب الواقع، وقيل: الكتاب هو القرآن الذي أنزله على خاتم أنبيائه محمد عليه السلام، أو هو جنس الكتاب، أي كل كتاب أنزله الله على رسول من رسله الكرام، وهذا الكتاب مسطور بالقلم ليقرأه الناس مكتوبا في رق منشور، أي في جلد مرقق مبسوط مفتوح غير مختوم ولا مكتوم، وهو أيضا مسطور في لوح محفوظ مكنون، يقرؤه الملائكة المكرمون في السماوات، والكتاب ينبئ بالحق ويهدي إلى صراط مستقيم.

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾.

قيل هو بيت في السماء السابعة يطوف به كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يرجعون إليه آخر ما عليهم، وهو حيال الكعبة التي في الأرض، وهو من آيات الله الكبرى التي رآها النبي ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، وسمي معمورا لأنه لا يزال معمورا بطواف ملائكة الله الكرام، وقيل البيت المعمور هو الكعبة البيت الحرام، المعمور بالطائفين والعاكفين والركّع السجود من الإنس والجن والملائكة.

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾.

قيل هو السماء التي فوقنا؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٢)، هذه السماء العظيمة التي بناها الله وأحكم بنيانها، ورفع سمكها فسواها، والسموات التي فوقها رفعها بغير عمد، وأسكنها ملائكته المقربين، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، هذه السموات ذوات الأسرار والعجائب، وهذه النجوم ذوات البروج والمشارق والمغارب، يقسم خالقها وبانيها بها على حقيقة قيام الساعة، ووقوع يوم الدين.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾.

أما البحر فهو هذا المخلوق العظيم الذي يملأ ثلاثة أرباع هذه الكرة الأرضية، والذي يحتوي على ما يحتوي عليه من الكنوز والأرزاق، ومنه تنشأ السحب التي تحمل آلاف آلاف الأطنان من المياه رحمة للناس، ورزقا للعباد والحيوان، وأما السجر ففيه معنيان، معنى الاشتعال، ومعنى الامتلاء، فأيهما المراد من كلام الله تعالى؟ أو كلاهما! قد يراد البحر المسجور، أي المشتعل عند قيام الساعة، وذلك عند قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ (التكوير: ٦)، أي اشتعلت وأوقدت نارا، ولعل بحار البترول والغاز تنفجر يومئذ من تحتها فتشتعل بركانا، وهنالك اليوم براكين في البحار تشتعل نارا لا تطفئها مياه البحار، وقد يراد المعنى الثاني للسجر وهو الامتلاء، فيكون الله تبارك وتعالى أقسم بهذه البحار المملوءة ماء في هذه الأرض المكوّرة، لولا قدرة الله التي أمسكتها لفاضت على هذا الربع الباقي من الأرض فأغرقته، وفي كلا المعنيين آية من آيات الله تدل على قدرة الله العلي الكبير.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾.

يأتي المقسم عليه وهو العذاب الواقع حقا لا دافع له، يأتي في عبارة قاسية زاجرة لهؤلاء المكذّبين الذين هم في خوض يلعبون، وقد جاء مثل هذا القسم في السورة السابقة والمقسم عليه عام وهو صدق وعد الله وتحقق إتيان يوم الدين، وهو يوم الجزاء الذي يعم جزاء المحسنين والمسيئين، وهنا ينصب القسم خاصة على وقوع العذاب لتقريع القلوب القاسية التي تكفر بيوم الدين، وتكذب بالجزاء، وللقلوب القاسية من الموحدين الذين لا يكذبون بيوم الجزاء وإنما ينسونه ويرتكبون من الذنوب ما لا ينبغي أن يصدر ممن يؤمن بيوم الحساب.

إن عذاب ربك لواقع لا محالة وإن كذب به المجرمون ما له من دافع، وهذه العبارة تأتي مؤكدة بالنفي لما تقدم فيه الإثبات تأكيدا للمعنى وتثبيتا له في القلوب الضعيفة التي

ربما يخالجها الشك في وعد الله، وإذا كان عذاب الله لابد واقعا بالمكذبين، فثوابه لا محالة واقع للمؤمنين الذين يوقنون به.

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ الذينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾.

المور هو الاضطراب والتموج والحركة العنيفة، كذلك تمور الأرض بأمر ربها عند قيام الساعة، وتسير الجبال سيرا حقيقيا، تلك الجبال التي نحسبها جامدة راسية تمر يومئذ مر السحاب، وينحل تماسكها فتكون كالعهن المنفوش، أي كالصوف المندوف يعبث به الريح فيتلاشى هنا وهناك.

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ الذينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾.

جاء ربط إثبات الويل بالفاء للإيذان بالعلّيّة، أي فلهم الويل بسبب تكذيبهم بيوم الدين، والويل هو العذاب الشديد الذي لا يطاق، الويل يومئذ واقع بالمكذبين بعذاب الله الواقع، والتكذيب يكون بالإنكار والجحود، ويكون أيضا بارتكاب المخالفات والإصرار عليها مع الاعتراف، وهو نوع من الاستهزاء بوعيد الله، ولذا يردف الآية بقوله:

﴿الذينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾

الخوض هو الإمعان والتوغل في الغمرات والأشياء بغير معرفة بكنهها وحقيقتها، فهم إذا تكلموا في آيات الله ووعده ووعيده ورسوله يقولون بغير علم، ويسخرون بوعيد الله ويستهزئون بالنذر، ذلك هو دأب المكذبين.

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

يأتي وصف آخر لمشهد فظيع من مشاهد ذلك اليوم الرهيب، وهو وصف حالة أهل الشقاء حين يساقون إلى النار الحامية لا يذهبون إليها طائعين بل يدفعون دفعا عنيفا في السلاسل والأغلال وهم كارهون، ثم ينبذون فيها نبذا، ويقال لهم توبيخا وتبكيتا: هذه النار التي كنتم بها توعدون وكنتم تكذبون، أفسحر هذا، هكذا على صيغة الاستفهام التوبيخي لأنهم كانوا يصفون آيات الله بالسحر ويقولون للنبي حين ينذرهم ساحر فيقال لهم:

﴿أَفَسِحْرٌ هَذَآ أَمَ اَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ﴾.

يقال لهم ذلك لأنهم كانوا في الدنيا يبصرون الحق وينكرونه ويقولون: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ (الحجر: ١٥)، فخوطبوا بهذا الخطاب تبكيتا وتوبيخا، وهذا القول قدّر تقديرا ولم يذكر فيه من القائل وهم الملائكة خزنة جهنم، ذلك لأن العبرة بالقول لا بالقائل.

﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا سَوَآءٌ عَلَيْكُمُ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

اصلوها أي ذوقوا حرها الشديد والصليّ هو الاحتراق بالنار، ثم يخاطبون بالصبر الذي هو المقصود منه المساواة بين الصبر وعدمه، فهم لا ينتفعون بالصبر كما ينتفع أهل الدنيا بالصبر على المصائب؛ لأن صبرهم يفضي إلى الفرج لكن صبر أهل النار لا ينفعهم، وكذلك صراخهم وجزعهم لا يعطّف عليهم قلوب الزبانية القائمين على تعذيبهم، وقد أخبر الله عنهم في موضع آخر من القرآن أنهم يقولون: ﴿سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ (إبراهيم: ٢١)، وذلك أنهم يجربون الجزع والصبر فلا يخفف عنهم جزعهم ولا صبرهم شيئا من العذاب، وهذه تذكرة وموعظة للمؤمنين في الدنيا حتى يصبروا على طاعة الله ويصبروا على بلاء الله في الدنيا فينفعهم ذلك قبل

أن يكون الصبر في عذاب الله لا ينفع، فيا لها من جُمل قصيرة شديدة الإيقاع في القلوب الواعية! إنها زواجر قوارع كبرى لها في النفوس أثر عجيب ثم يأتي قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

في هذه الآية الكريمة تتجلى عدالة الله ولا أحد أحب إليه العذر من الله، فلا ظلم في أصل تعذيبهم، ولا ظلم في مقدار العذاب، إنما يجزون ما كانوا يعملون في الدنيا جزاء وفاقا، وما عملوه إلا مختارين غير مجبرين، ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ (فصلت: ٢٤)، ثم ينتقل الأسلوب القرآني البديع من الوعيد الموحش إلى الوعد المؤنس، والقرآن مثاني كما وصفه الله، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ فَاكِهِينَ بِمَآ ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

يتحول الكلام من الوعيد إلى الوعد، فيصف حال أولياء الله المتقين عند ربهم، إن المتقين في جنات النعيم المتقون هم الذين يتقون الله ويحذرون سخطه، ويتركون ما نهى الله عنه، وإذا مسهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون، إنهم في جنات كثيرة ذات نعيم، لا يبلى ولا يفنى، وإذا كانت القصور في وسط جنات وأنهار فذاك غاية المطلوب، ونجد الملوك والمترفين في هذه الدنيا الفانية يتخذون قصورا في جنات يجرون فيها السواقي حتى تبقى على روائها ونضارتها، ولكن نعيم الدنيا يزول سريعا ويفنى أما نعيم الآخرة فهو دائم لا يفنى ولا يفنى أهله ولا يموتون، ثم زاد فوصفهم فقال:

﴿فَاكِهِينَ بِمَآ ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

منعّمين مسرورين فرحين بما آتاهم ربهم الذي هداهم لهذا المصير وأعانهم للوصول إليه، ووقاهم ربهم، أي نجاهم من عذاب الجحيم بتكفير سيئاتهم التي تابوا منها قبل الممات، وهذه منّة عظيمة لا تقل عن منّة إدخالهم جنات النعيم، فقد عاملهم بعدله فلم ينقص من عملهم شيئا، ثم عاملهم بفضله فكفر عنهم سيئاتهم وضاعف لهم حسناتهم، وهذا في الوعد يقابله في الوعيد دعُّ المكذبين في النار دعا وصليهم فيها، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، ويعظم نعيم أهل الجنة في أعينهم حين يذكرون أن الله قبل ذلك قد وقاهم عذاب الجحيم، فاللهم عاملنا بفضلك بعد عدلك يا أرحم الراحمين، ثم قال تعالى:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

كلوا من مطائب مآكل الجنة، واشربوا من مطائب أشربتهم هنيئا، أي أكلا مريئا وشربا هنيئا لا تخشى عواقبه، وليس فيه أذى ولو في إخراجه فهم فيها لا يبولون ولا يتغوطون، وليس كطعام الدنيا وشرابها الذي وإن لذّ وطاب ولكن كثيرا ما يسبب آلاما وربما تخمة فموتا، ورب أكلة منعت أكلات، أما أكل الجنة فهو هنيء العواقب ليس فيه أذى، وهذا الخطاب لأهل الجنة في هذا المقام، يقابله خطاب أهل النار حين يقال لهم: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا..﴾ الآية، وبضدها تتميز الأشياء، ثم إن الله يشكر لهم أعمالهم التي هي في حقه قليلة لا تساوي شكر نعمة واحدة من نعمه التي لا تحصى، وذلك تكريما لهم فيقول لهم:

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ففي هذا تكريم لأهل الجنة وتحريك لهمم المؤمنين حتى يعملوا ولا يغتروا بمجرد النطق بكلمة الإيمان، فلابد بالعمل والإحسان في العمل والإخلاص فيه، ورحمة الله قريب من المحسنين، وقد ورد أن أهل الجنة يدخلونها برحمة الله ويقتسمونها بأعمالهم.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

إنهم حال تمتعهم بالأكل والشراب يكونون متكئين، وهذا حال أهل الترف والنعيم، وهو مكروه في الدنيا لكنه مباح لأهل الجنة، وهم حال اتكائهم متقابلون، مزوجون بنساء حور عين كأنهن بيض مكنون، عيناوات، أي واسعة العيون، دعجاواتها غزيرات الأهداب، وهن الزوجات الصالحات في الدنيا، ومعهن زوجات من نساء الجنة، خلقن من مسك الجنة وغذين بنعيمها يمتع الله بهن أولياءه الذين أعد لهم مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

لقد أتم الله نعمته على أهل الجنة وذلك باجتماع الأحبة، فهم على سرر متقابلين مزوجون بحور عين، وليتم أُنسهم جمع الله بهم ذرياتهم الذين ربوهم على الإيمان واتبعوهم على صراط الله المستقيم، ولكنهم قصرت بهم أعمالهم عن درجة آبائهم وأمهاتهم فجبر الله نقصهم ورفعهم إلى منزلة والديهم تفضلا منه من غير أن ينقص من عمل آبائهم شيئا، كل امرئ بما كسب رهين، وهذه الجملة المعترضة هنا حكم عام لأهل المحشر كلهم، برّهم وفاجرهم، كل نفس محبوسة على عملها لا تظلم شيئا، سواء كان العمل خيرا أو غير ذلك، والله تبارك وتعالى يمنّ بفضله على من يشاء من عباده ولا ينقص من حسناتهم شيئا، هذا حتى لا يظن أحد أن الله لما جمع الذرية بآبائهم جبر نقصهم بحسناتهم بل زادهم من فضله وما ألاتَ الآباء من عملهم شيئا، والله ذو فضل على المؤمنين، وفي قوله تعالى:

﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾.

معنى دقيق لمن يفقه القول ويتدبّره، عبّر بالإلحاق ولم يقل أدخلنا معهم ذرياتهم حتى لا يطمع أحد في دخول الجنة إذا قصر به سعيه، فإن من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، أما حين يكونون من أهل الجنة ويتخلفون عن درجة آبائهم فإن الله يمنّ عليهم

بإلحاقهم برتبة آبائهم وأمهاتهم حتى يكتمل أنسهم بهم نعمة من الله وفضلا، ثم قال تعالى:

﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾.

إن الله تبارك وتعالى يمد أولياءه في الجنة بأنواع الفواكه المشتهاة، ولحم الطير المشوي اللذيذ المشتهى، ولفظ المدد ينبئ بالكثرة والتكرار والمداومة بكرة وعشيا، كذلك كانوا يسبحون ربهم في الدنيا بكرة وعشيا، وما ذاك إلا بمدد من عونه وتوفيقه، فالفضل والحمد والشكر له في كلا الدارين، وسيأتي التعبير على هذا المعنى في الآيات القريبة القادمة.

﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾.

يصف الله مشهدا من مشاهد الأبرار في مجالس أنسهم وهم يتنازعون كؤوس الرحيق كما يصنع الندماء المتصافُون في الدنيا، فهم يتنازعون الكؤوس تنازع المرح والأنس، لا تنازع المخاتلة والمغالبة، يتنازعون تلك الكؤوس الذهبية والفضية وهي في أيديهم كالكواكب في أيدي الأقمار، ثم إن الله تعالى يصف هذه الكؤوس بأنها لا لغو فيها وتأثيم، واللغو هو الكلام الساقط الخارج عن حدود الأدب والحكمة، والتأثيم هو اللّوم، ونسبة الإثم إلى المخاطب وهو كلام يدخل الغم على القلوب، ويوقع الوحشة بين الأحباب، وهذا مالا يوجد ولا ينبغي أن يوجد في مجالس الشراب والمتعة في الجنة، ونسب اللغو والتأثيم إلى الكأس والمراد أصحاب الكؤوس المتنازعون لها، وهذا على طريق المجاز العقلي في التعبير البلاغي البديع.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾.

هذه الجملة عطفت على سابقتها وذلك أنهم في حال هي غاية اللذة والنعيم، فكل ما حولهم جميل حتى الغلمان الذين يسقونهم كأنهم لؤلؤ مكنون في الحسن والجمال

والصفاء، فهم غلمان مخلوقون لهم ليكونوا لهم خدما في الجنة، يطوفون عليهم ويسكبون لهم الماء والخمر في الكؤوس، ومن عادة المترفين والملوك في الدنيا يتخذون غلمانا يشترونهم ليكونوا لهم خدما في الموائد وغيرها، فمتع الله أولياءه بخدم غلمان كأنهم لؤلؤ مكنون، واللؤلؤ المكنون يكون أشد صفاء ولمعانا وبريقا.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ أَنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

لا يزال المشهد مستمرا لهؤلاء السعداء المتقابلين الجالسين في مجالس الرفاهية والنعيم، إنهم حال جلوسهم على الأرائك متكئين عليها متقابلين يتساءلون ويتجاذبون أطراف الحديث في مواضيع يتم أنسهم بالتحدث والتساؤل فيها، ومن جملة ذلك تحدثهم بنعمة ربهم وأفضاله عليهم.

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾.

قال بعضهم لبعض: إنا كنا قبل أي في الدنيا، كنا في أهلنا في وسط أهالينا ووالدينا وذرياتنا، كنا مشفقين من عذاب الله، لقد كانوا مؤمنين حقا، حتى إن ذكر عذاب الله يعكر صفو أنسهم وهم في وسط أهاليهم فلا ينبسطون في حالة الأنس كل الانبساط، وكذلك المؤمن ينبغي أن لا يغفل ذكر الموت وما بعد الموت من أهوال يوم القيامة، بل ينبغي أن يشفق من عذاب الله، والإشفاق هو شدّة الخوف مع الحذر، إنهم كانوا يحذرون ويتقون ما يؤدي إلى عذاب الله ويدعون الله البر الرحيم، والبر هو الإحسان في رفق، والرحمة هي معاملة المرحوم بالحسنى والعفو، وجاءت الصيغة هنا بالفعيل لدوام رحمته لأوليائه فهي لا تنقطع، وكذلك صفة البر، جاء بالصفة المشبهة للمبالغة في البر،

وأوتي بضمير الفصل ليفيد القصر، فهو البر حقا، وهو الرحيم حقا، لا اعتبار لبر غيره ورحمته إلى برّه ورحمته الواسعة.

﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ أَنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

لما علم الله إيماننا وإشفاقنا في أهلنا رحمنا فمنّ علينا ووقانا، أي جنبنا عذاب جهنم، وسمي السموم لأن حرها يخترق مسام الجسد كلها، إنا كنا نتضرع له بالدعاء لأنه هو البر الرحيم بعباده، هذا بعض ما يتحدث به أهل النعيم في نعيمهم، يذكرون منن الله عليهم فيزداد النعيم حسنا وعظمة في أعينهم ويعظم شعورهم بالسعادة، وفي ذكر هذا الحديث موعظة وذكرى للمؤمنين ليكونوا في دنياهم وفي أهاليهم على هذه الحال، ويتشبثوا بالدعاء مع الإشفاق، والدعاء مخّ العبادة.

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ﴾.

فذكر الناس، والتذكير هو الدعوة إلى شيء معروف توافقه العقول السليمة، وتنتفع به، ولذا جاء في سورة الذاريات بعد ذكر أيام الله وآيات الله، قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُومِنِينَ﴾ (الذاريات: ٥٥)، وهنا بعد ذكر الوعد والوعيد يقول لنبيه: فاستمر في دعوتك وتذكيرك ولا تبال بإعراضهم وسخريتهم واستهزائهم، وتولّ عنهم، وواصل تذكيرك ووعظك إياهم إنك على الحق المبين. **﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ﴾** حدث بنعمة ربك فلست كما يقولون كاهنا ولا مجنونا، ولتأكيد النفي جيء بالباء المتصلة بالخبر، وذلك تطمين لقلب النبي وقلوب الدعاة من بعده أنهم بفضل الله على الحق وما أبعدهم عن الكهانة والجنون.

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ
ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ
بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ
﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ
أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ
مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾
أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ
فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾
أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ * وَإِن يَرَوْا كِسْفًا
مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا
يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ
شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

الاستفهامات المرادة بـ"أمْ" ، هنا للإضراب الانتقالي لا يفارقها معنى "بلْ" وقد روي عن الخليل بن أحمد الفراهيدي أنه قال: كل ما في سورة الطور من "أمْ" فاستفهام وليس بعطف، وأقول الاستفهام مفهوم بعد الإضراب لا محالة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾.

اجتمع ملأ قريش في دار الندوة فخاضوا في أمر النبي ﷺ وتحيّروا في أمره وأخيرا قال قائلهم: هو شاعر نتربص به الموت كما مات الشعراء من قبله: زهير وامرؤ القيس والنابغة الذبياني والأعشى وغيرهم، فتموت دعوته بموته، والمنون يطلق على الموت، وقد يطلق على الدهر، والريب هنا هو الحدثان، والمراد الموت هنا، قال الله تعالى لنبيه:

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾.

قل تربصوا ما ترجونه من ريب المنون فإني معكم من المتربصين، ولا تدرون أيضا من يصيبه ريب المنون أولا، وربما يكون أسرع إليكم مني، وهذا ما وقع بهم في غزوة بدر، فقد أودى الهلاك فيها بأغلبهم ولم يخطئ أبا لهب حظه فقد سبقهم إلى النار والعياذ بالله، ثم قال تعالى:

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

أم تأمرهم أحلامهم بوصف الأمين بالكهانة والجنون والشعر، وبالتقول على الله بغير علم، وهذا تهكم بهم وسخرية بعقولهم، وهم يعتبرون أنفسهم في مستوى رفيع من الأحلام والنهى، فهل تأمرهم أحلاهم بهذا الهراء وتدفعهم إلى التهوك في أمر الصادق الأمين؟ قال تعالى:

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

أي بل هم قوم طاغون قد تأصل فيهم الطغيان في أحكامهم ومعاملاتهم حتى كان من مقوماتهم، والطغيان تعدي الحدود، وهو هنا تعدي الحدود أي حدود العقل والحكمة والصواب، وحين يستولي الطغيان على النفوس فلا حكم للعقل والنظر السليم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

أم يصفون نبيهم بالافتراء على ربه، فيقولون تقوله على الله تكلفا وزورا وبهتانا فإن كان كما يقولون فليأتوا بكلام يتقولونه يكون مثل القرآن في بلاغته وإبداعه إن كانوا صادقين في دعواهم وإلا فما يعجزهم وهو بشر مثلهم، فإذا عجزوا أن يأتوا بسورة فليعترفوا إذن أنه كلام الله وليس من تقول محمد ﷺ فتبيّن كذبهم في نسبة التقول إليه، والأمر الموجه إليهم بصيغة لام الأمر للإعجاز لأن الله يعلم أنهم لا يستطيعون ذلك ولن يفعلوه.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ اَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾.

هلا تفكروا في خلق أنفسهم من الذي خلقهم، أم خلقوا من غير شيء أم هو الخالقون، وكلاهما مستحيل، فبقي أن يعترفوا بالخالق ويؤمنوا به، فهل يخلقهم ثم يتركهم سدى، وهل يخلقهم أول مرة ثم يعجز عن إعادتهم للحساب والجزاء، فأي الأمرين أهون أفلا يعقلون، أفلا يؤمنون! وما دعوة محمد إياهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، ويؤمنوا بالبعث بعد الموت.

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾.

أفلا ينظرون في خلق السموات والأرض إن غفلوا عن خلق أنفسهم أهم الخالقون للسماوات وأفلاكها وبروجها ونجومها، أم هم الخالقون للأرض وجبالها وبحارها وأنهارها وأشجارها ودوابها، إنهم يؤمنون أن الله خالق السموات والأرض ولكن لا يوقنون؛ لأن اليقين درجة فوق الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُوفَكُونَ﴾ (العنكبوت: ٦١)، فهم يعترفون بذلك لكنهم يفقدون اليقين الذي يوزعهم أن يشكروا الخالق ويرهبوه ويعقلوا أمره ونهيه، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الاَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلَ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٣).

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾.

إنهم ينكرون أن يُنزل الله كتابه على رجل منهم ويقولون: ﴿أأنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنا﴾ (ص: ٨)، ويقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١)، وهنا يأتي الاستفهام الإنكاري: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ أم يملكون تصريف الأرزاق أم هم المصيطرون عليها، والسيطرة بالسين والصاد هي الاستيلاء والقهر، كل ذلك ليس بأيديهم فلِم ينكرون أن ينزل الله ما يشاء على من يشاء من عباده، وهذا من الله تبكيت لهم وتثبيت لقلب نبيه والمؤمنين.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَاتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

لا يزال أسلوب التبكيت بهؤلاء الكفار مستمرا مظهرا لباطلهم فهو يقول: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي ألهم سلم يصعدون فيه فيستمعون أخبار الملأ الأعلى، والسلم آلة الصعود والعروج، وأنى لهم ذلك وهم أحقر من ذلك ومعزولون عن السمع فإن كان لهم سلم يعرجون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين، أي يبين صدق دعواهم في إنكار رسالة محمد أو قرب وفاتهم ابتداء ريب المنون به قبلهم، والسلطان هو العلم الذي تقوم به الحجة، فلا استماع ولا سلطان وأنى لهم ذلك.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾.

ينتقل الأسلوب إلى مخاطبتهم مخاطبة لا يفارقها التهكم بهم وتسفيه دعواهم، وإنكار قولهم الباطل في نسبة الولد إلى الله، ثم جعل هذا الولد أنثى تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، تعالى ربنا لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، أتقولون على الكذب، تنسبون إليه الولد من ملائكته الكرام ثم تسمونهم تسمية الأنثى وأنتم تكرهون الإناث وتختارون لأنفسكم الذكور، كيف تكرهون البنات وتنسبونها لله العلي الكبير، ما أسخف عقولكم وأبعد في الضلال، ففي هذه العبارة التي جعل لهم الخطاب فيها تبكيت لهم وسخرية بسخافة عقولهم وإبطال لدعواهم ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ (مريم: ٩٢).

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾.

أم يمنعهم من الإيمان سؤالك إياهم مغرما يؤدونه إليك فيكون لهم بعض العذر في الامتناع من هذا المغرم الذي يثقل كواهلهم، فهم لا يطيقونه، والمغرم ضريبة يفرضها الجبابرة في أموال رعاياهم يأخذونه بدون مقابل، وهذا ما لم يطالبهم به النبي ﷺ، وما من نبي ورسول بعث في قوم إلا قال لهم: ﴿لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾، فما الذي يدعو هؤلاء إذن إلى الإعراض والكفر والعداوة والمكر؟ أليس خيرا لهم أن يفهموا دعوته ويؤمنوا به ويتبعوه، ثم قال تعالى:

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾.

هذه الآية في مقابل قولهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ أم عندهم علم المغيبات فهم يُسجلونها في الكتب وُثوقا بها، هل وجدوا في غيبهم أن أمر محمد ليس بشيء أو أنه يموت قريبا فتموت دعوته بموته! طبعا لا شيء من ذلك يملكونه ولا حتى يدعونه، ما لهم عن التذكرة معرضين!.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾.

أم يريدون بك كيدا فكيدهم راجع إليهم، ومكرهم محيق بهم، فالذين كفروا بالله ورسوله هم المكيدون المغلوبون، والله غالب على أمره، وقد كتب الغلبة لرسله فلا يكون النصر آخر الأمر إلا لهم، ولا يكون البوار إلا على أعدائهم، هذا حكم الله لا معقب له ولا راد لقضائه، فليتيقن هؤلاء الكفار أنهم هم المكيدون. ثم قال تعالى:

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

يختم الله بهذا الاستفهام الإنكاري العجيب هذه الاستفهامات الخمسة عشر، وهي قاطعة لأعذارهم الواهية، فاضحة لطبائعهم الجاهلية، كاشفة عن حقيقة نفوسهم المستعلية، فلا عذر لمن يغتر بهم من أقوامهم الضعفاء.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾.

ألهم إلاه يعبدونه من دون الله أنبأهم أن أمر محمد باطل، أو مجيرهم من عذاب الله، كلا.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

تعالى الله وتنزه وتقدس عما يشركون، إنهم يعبدون ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ولا يشفع لهم، ولا يجيرهم من عذاب الله إذا نزل بهم، سبحان الله عما يشركون.

﴿وَإِنْ يَّرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾.

في هذه الآية الكريمة يضرب الله مثلا لعناد هؤلاء الكفار وتكذيبهم بالنذر، ولجهلهم المطبق بالغيب وغفلتهم وإعراضهم عن آيات الله، فإنهم أمنوا مكر الله، وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم، الكسف هو القطعة، إنهم حتى ولو يرون قطعة من السماء ساقطة عليهم ينكرون نزول العذاب ويظنونه سحابا كما قال قوم هود لما رأوا العذاب: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ (الأحقاف: ٢٤)، وما ذاك إلا لجهل الأولين بغيب الله، وأمنهم من مكره، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، أما السحاب المركوم في الآية فمعناه السحاب المجتمع المتراكم بعضه على بعض، وهذا النوع من السحب يكون داكن اللون يقوي طمع الناس في غيثه، وفي الآية تهكم بالكفار، وعود على قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾. فلا علم ولا كتابة، بل هو جهالة وقول بلا علم وعناد وتمرد.

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الذي فِيهِ يَصْعَقُونَ يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: فذرهم، أي فاتركهم وأعرض عنهم ولا تبال بتكذيبهم وسخريتهم وعنادهم، وليس معنى الإعراض ترك وعظهم وإنذارهم، فهذه الكلمة نفسها: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ من جملة الكلمات التي تلقى عليهم وينذرون بها، ولها وقعها الشديد في نفوسهم، وفي الآية تهديد لهم ووعيد باليوم الذي ينتظرهم وهو آت لا ريب

فيه، وهم ملاقوه لا محالة، وهو يوم يصعقون فيه، أي تأخذهم الصعقة فيه، صعقة الموت فلا ينتصرون.

﴿يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

إنهم يكيدون وليس كيدهم يومئذ بنافعهم فلا يغني عنهم شيئا من دفع الأمر النازل ولا هم ينصرون، فلا أحد ينصرهم وينافح عنهم، ولا مطمع لهم في ذلك، وهيهات ما أضعفهم يومئذ وما أذلّهم وأحقرهم، وما أبعدهم عن شفاعة الشافعين، ونصر الناصرين.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

يخبر الله نبيه عليه السلام والمؤمنين تسلية لهم ويؤكد الخبر أن لهؤلاء الظالمين بالشرك وغيره عذابا دون العذاب الأكبر، أي قبله وأقل منه، ولكن أكثرهم لا يعلمون، ألا يتوسمون وقوعه جزاء على ظلمهم واعتبارا بالماضين، وقال: أكثرهم، ولم يعمم الحكم لأن منهم من يعقل ويعتبر ويرجع إلى الإيمان، ومنهم من يدرك ويتوقع العذاب، ولكن تغلبه نفسه المتعالية، والله يعلم ما في نفوس عباده.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾.

هذه الجمل معطوفة على قوله: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ والجملة التي بينهما معترضة لتفيد عاقبة الظالمين في الدنيا والآخرة، فأعرض عنهم واصبر لحكم ربك، أي لقضائه وقدره، ولو شاء لآمنوا كلهم ولكن حكمه وحكمته قضى أن يكفر من يكفر، ويمسّكم منهم أذى فاصبروا على أذاهم فإن صبركم خير لكم، ولا تنالون الدرجات العلى عند الله إلا بالصبر، وبعد أن أمر بالصبر قال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ والمعنى فاصبر لحكم ربك الذي يكلؤك ويحفظك ويرعاك، ولا تخش مكرهم فإنك بأعيننا نرعاك بحفظنا

وكلاءتنا، ولا يخفى عنا شيء مما يمكرون، وياما أعظم وقع هذه الكلمة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ ما أعظم وقعها في قلب النبي ﷺ وقلوب المؤمنين.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾.

التسبيح هو التنزيه، تنزيه الخالق عن النقائص، وأداته سبحان الله وما يشاكل هذه الكلمة، والمراد به النطق بالتسبيح في كل وقت، وقوله حين تقوم، أي حين تقوم من النوم أو حين تقوم إلى الصلاة، أو حين تقوم من مجلس من مجالسك، وكل ذلك مراد، وقد يراد به صلوات النوافل، وقد يراد الفرائض، مثل قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (الروم: ١٧).

وقد ورد في الحديث أن من جلس مجلسا كثر فيه لغطه ثم قال قبل أن يقوم منه: «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك».

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ أي وسبحه في أجزاء من الليل، في أوله ووسطه وآخره، لا سيما في الثلث الأخير منه.

﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ وحين تدبر النجوم الطوالع أول الليل للغروب وآخر الليل، وذلك قبيل الفجر، وحين تدبر النجوم كلها بهجوم ضوء الفجر عليها فتختفي، وذلك هو إدبارها، وهو وقت الفجر نسبح الله في ركعتي الفجر وفي صلاة الصبح، وبعد صلاة الصبح، ونحمده بإسناد الكمال إليه، وفي ذلك تجارة رابحة لن تبور، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النجـم مكية إلا آية (٣٢ فمدنية)

وآياتها ٦٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ
عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ (٥)
ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨)
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ (١٠)
مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ (١١) أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَءَاهُ
نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ (١٥)
إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ
رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ (١٨) أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ (١٩)
وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ (٢٠) أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا
قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ (٢٢) إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم
مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى
ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ (٢٣) أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ
(٢٤) فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ (٢٥) * وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى
شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ (٢٦)

سميت هذه السورة باسم النجم المقسم به في أولها، وقد يقال سورة "والنجم" على الحكاية، وهي من السور المكية المعروفة بجزالة اللفظ وإيجاز الآيات، وهي مكية إلا الآية الثانية والثلاثين منها، روي عن ابن عباس أنها مدنية وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَآئِرَ الاثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ...﴾ الآية، والسورة فيها تقوية الاعتقاد بصدق النبي فيما يدعو إليه من وحدانية الله تعالى والإيمان بالوحي النازل بواسطة جبريل عليه السلام، والرد على شبه المشركين الذين يقولون بالظن، وإن ظنّهم لا أساس له من الحقيقة، وكذلك تثبت السورة عدالة الجزاء يوم القيامة، وإن كل إنسان مرهون بسعيه، فلا تزر وازرة وزر أخرى، وليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى.

ثم تختم السورة بتقرير العقيدة الصحيحة والإيمان بالخالق القاهر وبيوم القيامة، وبهذا الحديث أنه حقا من الله، فله وحده فاسجدوا وإياه فاعبدوا، وروي أنه لما قرأ رسول الله ﷺ هذه السورة الكريمة على الناس في مكة سجدوا كلهم مؤمنهم وكافرهم إلا أمية بن خلف فإنه صدف عن السجود وأخذ حفنة من الحصا في يده فجعل عليها جبهته وذلك تعبيرا عن تأثره بسلطان بلاغة القرآن وعلوه على سائر الكلام، ولكن كبرياءه منعته عن انحناء ظهره للسجود، ولله في خلقه شؤون.

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالأُفُقِ الاَعْلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوَ ادْنَىٰ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾.

يقسم الله تبارك وتعالى في بداية السورة بالنجم إذا هوى ، وهو الكوكب النير حين يهوي للغروب ليذكرنا بآية عظيمة من آياته التي تتجلى في مشارق النجوم ومغاربها وبروجها، وفيه إشارة إلى سفاهة نظر عبّاد النجوم التي تأفل وتهوي للغروب، وفيها

يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ (الأنعام: ٧٦)، وفي ذكر هوى النجم تذكير بنزول جبريل عليه السلام بنجوم القرآن التي فيها هدى للناس كما في النجوم هدى لهم، ففي القسم اعتبارات وإلفات للأنظار إلى آيات الله في الآفاق وفي السموات.

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

أما المقسم به فهو النجم الذي هو واحد من هذه الملايين والملايين من نجوم السماء المضيئة، وأما المقسم عليه فهو صدق نبوءة رسول الله ﷺ وأن ما جاء به وحي من عند الله وليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا افتراء، فما هو إلا الوحي المنزّل من عند الله، ينزل به جبريل عليه السلام على قلب محمد ﷺ.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾.

ينفي الله تبارك وتعالى في هذه الآية عن نبيه ثلاثة أوصاف: الضلال والغواية والنطق عن هوى، والضلال المنفي هنا غير الضلال المثبت في سورة الضحى، فإن الضلال المراد في سورة الضحى هو مجرد الحيرة والتردد، لقد كان رسول الله ﷺ متحيرا كيف يهدي قومه إلى الرشد، وقد أنكر ضلالهم عن الصراط السوي وعلم أن الذي هم عليه من أمر الجاهلية ليس هو دين إبراهيم، فحار في أمرهم ولم يدر كيف يرشدهم فأزال الله حيرته بإنزال الوحي عليه، أما الضلال المراد هنا فهو الانحراف عن الطريق الهادي إلى النجاة، وقد وصفه قومه بأوصاف هي كلها من الضلال، فقالوا: ساحر، وقالوا: شاعر، وقالوا: مجنون، وقالوا: إن هذا إلا اختلاق، وقد عرفوه بالصدق وسموه بالأمين، فقال الله تعالى مخاطبا إياهم:

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾.

وجاء التعبير بالصاحب لأنهم عرفوه وعرفوا نسبه ونشأته وعاشروه وعاملوه، فليس غريبا عنهم، وتطلق المصاحبة للملابسة ولمجرد الملابسة، والغواية فساد العقيدة

وزيغها، وهي ضد الرشاد، وهي دلالة على فساد الرأي وطمس البصيرة، وهي أشد من الضلال، ثم قال تعالى:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾.

الهوى ميل النفس إلى رغبتها وشهوتها ولو خالف الحق، وهذا ما نزه الله تعالى نبيه عنه، فهو لا ينطق عن الهوى في جميع أقواله ما كان منها تبليغا عن ربه وما كان من أحاديثه وأحكامه، فهو تعليم من الله العلي الكبير، لا ينطق إلا بالحق.

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

فكل ما يبلغه عن ربه قرآنا أو غيره وكل ما يبينه مما نزل عليه من الذكر وحي يوحِي به إليه ربه تبارك وتعالى يجب علينا تصديقه واتباعه.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوَ اَدْنَىٰ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ﴾.

اتفق المفسرون أن هذه الأوصاف تنطبق على جبريل عليه السلام، فقد رآه الرسول ﷺ مرتين على هيئته الملكية، مرة في الأفق الأعلى، ومرة أخرى عند سدرة المنتهى ليلة الإسراء والمعراج، نزل جبريل عليه السلام بإذن الله فبلغ وحيَ الله محمدا ﷺ وبلّغه من علم الله ما بلغه، وقد قوّاه الله تبارك وتعالى على تبليغ رسالته إلى أنبيائه ورسله من السماء إلى الأرض، فهو شديد القوى كما وصفه الله.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ﴾.

علمه القرآن شديد القوى وهو جبريل عليه السلام، ذو مرّة، المرة هي الحصافة العقلية، فهو ينقل إليه القرآن بكل أمانة لا يُضيع منه شيئا، وهو الملك الذي أعده الله للقيام بتبليغ الوحي إلى رسله والقيام بالأعمال العظيمة التي فيها تنفيذ ما يأمر به الله تعالى، فهو قوي الذات، قوي العقل.

﴿فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ﴾.

استوى جبريل عليه السلام على هيئته الملكية وهو بالأفق الأعلى بين السماء والأرض، وهو خلق عظيم، له ستمائة جناح، وقد بسط أجنحته وغطى ما بين الخافقين.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾.

ثم دنا جبريل عليه السلام من محمد ﷺ فتدلى نازلا من السماء حتى كان قاب قوسين، أي مقدار قوسين منه، والقوس معروف عند العرب، عود مقوّس طوله نحو ذراع، يشد عليه الوتر، وترمى من وسطه النبال في الحرب والصيد، فهو مقترب منه قدر قوسين أو أدنى من ذلك لا أكثر.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ﴾.

فأوحى الله تبارك وتعالى بواسطة جبريل إلى عبده محمد عليهما السلام ما أوحى.

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾.

أي لقد رآه رؤية حقيقية لا ريب فيها، ما كذب قلبه فيما رأى، ورؤية الفؤاد أثبت من رؤية البصر؛ لأن البصر قد يكون فيها خداع، فيرى الشيء شيئين، أو الكبير صغيرا كما نرى نجوم السماء صغيرة وهي كبيرة، أما رؤية الفؤاد فهي أثبت وأصح.

﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰٓ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰٓ﴾.

أفتجادلون صاحبكم وتحاولون تشكيكه فيما جاءه يقينا من عند ربه وعلمه إياه جبريل تلقينا، ولقد رآه نزلة أخرى فوق سبعة سماوات عند سدرة المنتهى، قيل سميت كذلك لأن الأمور الصاعدة تنتهي إليها لا تتجاوزها، والأمور النازلة من العرش تنتهي إليها، وهي شجرة لا يعلم إلا خالقها مدى عظمتها، وما يغشاها من الأنوار والأسرار.

﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰٓ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾.

أخبرنا الله تبارك وتعالى أن عند هذه السدرة جنة المأوى، روي أنها جنة يأوي إليها أرواح المؤمنين والمؤمنات في أشكال طيور ترعى في شجرها حتى يرجعها الله إلى أجسادها يوم البعث، وإن من بينها أرواح الشهداء، تتميز عنها بأنها تكون طيورا خضرا تبيت في قناديل معلقة بالعرش، وأخبرنا أن هذه السدرة يغشاها ما يغشى، وقد أبهم الأمر للإشعار بعظمته كما أبهمه في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ﴾ وقد قيل عن هذه السدرة أنها تغشاها أنوار، وقيل جراد من ذهب، وقيل ملائكة أبرار، والله أعلم، ثم قال تعالى:

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾.

الزيغ هو الازورار عن الحق وهو الميل والضلال، ما ازور البصر وما مال، وما ضل وما تجاوز حد الرؤية اليقينية، والطغيان هو تجاوز حد الصواب إلى الخطأ والحق إلى الباطل، لقد رأى رؤية واضحة لا وهم فيها ولا زيغ، وصدقها فؤاده تصديقا لا يقبل المراء والجدل.

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنَ ءايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰٓ﴾.

ما أعظم وقع هذه العبارة في النفوس، إنها كلمات توحي بجلال المقام، يؤكد الله تبارك وتعالى أن نبيه ومصطفاه من خلقه رأى من آيات ربه الكبرى، ربه الذي أعده لهذه المنزلة العظيمة، وأرسله رسولا أراه آيات كبرى من آياته، منها سدرة المنتهى، ومنها جنة المأوى، ومنها جبريل على هيئته الملكية العظيمة، ومنها ومنها...

﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰٓ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰٓ﴾.

أفرأيتم، تأتي هذه العبارة في صيغة استفهام، ولا يراد بالرؤية هنا رؤية البصر بل رؤية العقل والفكر، أي ماذا تقولون في هذه الأصنام؟ خبروني عن حقيقتها وعن علة عبادتها واعتقادكم شفاعتها، خبروني عن اللات وهو صنم بالطائف تعظمه قريش وثقيف، والعزّى صنم ببطن نخلة بين مكة والطائف، ومناة صنم بالمشلل بين مكة والمدينة تعظمه الأوس والخزرج، وكذلك قريش، وقد سميت هذه الأصنام الثلاث باسم الإناث، يرمزون بها إلى الملائكة زورا وبهتانا، وذلك لاعتقادهم أن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. ﴿وَإِنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً﴾ (الجن: ٣)، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَأَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف: ١٩)، وفي هذه السورة في سياق ذكر آلهتهم التي يعبدونها من دون الله ويرمزون بها للملائكة يقول الله تبارك وتعالى وهو خالقهم:

﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾.

أتجعلون لأنفسكم البنين وتجعلون لله الإناث وأنتم تكرهون الأنثى! تلك إذن قسمة ضيزى، وهي القسمة الجائرة، وضيزى وزن فِعلى، من ضاز يضيز وضازه حقّه، أي نقصه حقه، يضيزه بمعنى ينقصه ويمنعه.

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾.

يقول الله تبارك وتعالى في شأن هؤلاء الطواغيت التي تعبد من دون الله: **﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾** ما هذه الأصنام والأوثان إلا أسماء، مجرد أسماء لا حقائق لها فيما تزعمون من النفع والضر والشفاعة، فما هي إلا حجارة أو أخشاب صنعتموها بأيديكم ثم عكفتم على عبادتها

واتخذتموها آلهة، سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، والسلطان العلم المستند إلى الحجة والبرهان، وهذا النوع من الشرك لا يزال منتشرا في مشارق الأرض ومغاربها في بلاد المسلمين، ينصبون قبابا على أضرحة يبنونها ثم يقدسون أصحابها ويتقربون إليها بأنواع القرابين، ويطلبون عندها قضاء الحاجات، ويتخذون لها أعيادا يعكفون عندها الليالي والأيام، وكثيرا ما تجد أصناما وقباباً مبنية في مواضع لا شيء فيها، إن هي أسماء لا وجود لمسمياتها، وهكذا أضلهم الشيطان فأصمهم وأعمى أبصارهم، ولئن سألتهم ليقولن: نزورها ليقربونا إلى الله زلفى، وتلك مقالة أهل الشرك في أوثانهم، كما جاء في القرآن الكريم، وما عندهم من علم بما يقولون:

﴿انْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الاَنفُسُ وَلَقَدْ جَـآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾.

ليست معتقداتهم إلا أوهام وخيالات لا حقيقة لها، فهم لا يتبعون فيها إلا الظنون وما تهوى أنفسهم، والنفس لا تهوى إلا الشهوات وحب الرئاسة والعلو، وتقليد الآباء والأجداد، فهم يهوون عبادة الأصنام لأنهم يهوون الشهوات، ويزعمون أنها تشفع لهم، ويهوون تقليد ما ورثوه عن الآباء الأولين، بل يقدسونهم ويفضلونهم على ما جاءهم من الحق على ألسنة الأنبياء والمرسلين.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾.

ولقد جاءهم من ربهم كتاب هو الهدى والنور والفرقان فلا عذر لهم مطلقا في ضلالهم بعد أن جاءهم الهدى من الله، ويا عجبا لمن آثر الظلمات على النور والضلال على الهدى، فالآية الأخيرة للتعجيب من حال هؤلاء الذين ضلوا بعد أن جاءهم الهدى من ربهم وكذبوا بالحق لما جاءهم واتبعوا الأهواء.

﴿أَمْ لِلانسَانِ مَا تَمَنَّى فَلِلَّهِ الاَخِرَةُ وَالأُولَى﴾.

الاستفهام إنكاري، فهو ينكر عليهم أن يكون للإنسان ما يتمناه من شفاعة هذه الآلهة المزعومة التي لا حقيقة لها، والإنسان هنا يراد به جنس الإنسان كله، أي هل للإنسان ما تمنى، كلا ليس له ذلك فلله وحده ملك الآخرة والأولى، وقد بدأ بذكر الآخرة لأهميتها وإنها هي الحياة الباقية ولأنهم يزعمون أنها تشفع لهم في الآخرة على ضعف إيمانهم بالآخرة، ومنهم من لا يؤمن بها، فذكرها أولا لتثبيت أمرها وإنها هي الدار الحق، وفي تأخير الأولى أيضا رعاية الفاصلة، وفي تقديم الجار والمجرور إرادة الحصر، أي فلله وحده الآخرة والأولى وليس لأحد معه فيهما أدنى إرادة أو تصرف إلا من بعد إذنه وتيسيره، فآمنوا بالله وحده وتوكلوا عليه واعبدوه ولا تشركوا به شيئا.

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾.

يريد الله تبارك وتعالى بهذه الآية الكريمة أن ينفي طمعهم الفارغ في شفاعة هؤلاء الأصنام الثلاثة التي اتخذوها رمزا للملائكة زورا وبهتانا، ويزعمون أنها تشفع لهم عند الله، وتقربهم إليه زلفى، فنفى بهذه الآية شفاعة ملائكة السماوات كلهم إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، فإذا كان الملائكة بأنفسهم لا يملكون من أمر الشفاعة شيئا فكيف بهذه الأصنام التي رمزوا بها إلى الملائكة الكرام بغير سلطان من الله فما أبعدهم عن الصواب، وما أخيب ظنهم وظن من يزعم الشفاعة في أهل القبور من هؤلاء الطرقيين الذين يطمعون في شفاعتهم وقد اتخذوا على قبورهم معابد يتخذون لها أعيادا، إنهم يرتكبون كبائر الذنوب ويزورونها ويتخذون عندها البدع من اللهو والرقص والفجور والشرك، ويزعمون أنها تشفع لهم عند الله، فما أشبه زعمهم هذا بزعم النصارى من قبلهم في شفاعة المسيح عليه السلام وهم يزعمون باطلا أن صلبه كفارة لذنوب أمته الذين يؤمنون بقضية الصلب والفداء، وهكذا يريد الشيطان أن يحتال

الناس عن صراط ربهم المستقيم، ويضلهم ضلالا بعيدا، ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ (النساء: ١٢٠).

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ
(٢٧) وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى
مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ
إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ
ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى (٣١) ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ
وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ
أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ
فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢)

يخبر الله تبارك وتعالى عن المشركين في كل زمان ومكان أنهم يجعلون ملائكة الرحمن إناثا، أي يسمونهم تسمية الإناث، وينسبونها إلى الله زورا وبهتانا، ويقولون بنات الله، وما لهم بذلك من علم وما أشهدوا خلقهم يوم خلقوا وما اتخذ الله صاحبة ولا ولدا، وما أجرأهم على الله، وما حملهم على هذا القول العظيم إلا كفرهم بالآخرة فهم لا يؤمنون بالآخرة مطلقا، وكذلك كل من لا يؤمن بالآخرة الإيمان الصحيح لا يرجى منه خير ولا تنفع فيه الذكرى، ولا يرعوي عن غيه، قال الله تعالى:

﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ اِنْ يَّتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾.

ما يتبعون إلا أهواءهم المبنية على الأوهام والظنون، ما لهم بما يقولون أثارة من علم، وإن الظن لا يغني من الحق شيئا، وهنا يأتي الإظهار وكان يكفي الإضمار لو أضمر، ولكن لنكتة بلاغية عظيمة ولتجري هذه الكلمة مجرى المثل يريد الله أن يقرر هذه الحكمة التي تنسف كل الظنون نسفا، هذا في باب الاعتقاد، أما في باب الأحكام والأعمال فقد كلفنا أن نحكم بما ترجح في ظننا صدقه وصوابه، وكذلك في الأعمال نقبل الأخبار الآحادية التي تفيد الظن وتوجب العمل دون العلم، وهذا أمر يعرفه الأصوليون في الأحكام وفروع الشريعة، أما الاعتقادات فلا تثبت إلا بالعلم اليقيني الثابت، والحق الجلي وهو ما نزل به كتاب الله تعالى وثبت بالسنة المتواترة أو بإجماع علماء المسلمين، ولا عبرة بما يقول أهل الظاهر أن إيمان العوام المقلدين غير صحيح بل هو ثابت وصحيح؛ لأن اعتقادهم مبني على التصديق الراسخ لما ثبت من الدين بالضرورة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهو إيمان العجائز الذي لا يقبل الريبة ولا التشكيك.

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدِ الاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾.

يأمر الله تعالى نبيه أن يعرض عن هؤلاء الكفار الذين تولوا عن الذكر وهو القرآن الذي أنزله الله على عباده هدى للمتقين، والإعراض هنا هو الصفح عن جهالتهم وليس الإعراض عن وعظهم لأن الله جمع له بين وعظهم والإعراض عنهم حيث قال له: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ (النساء: ٦٣)، وقال له: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَامُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩)، ذلك لأنهم

أعرضوا عن ذكر الله فأمر الله نبيه بالإعراض عنهم وجعل الإظهار موضع الإضمار ليجري الكلام مجرى المثل، ولتظهر علة الأمر بالإعراض عنهم في توليهم وإعراضهم عن الذكر.

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدِ الاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾.

تولوا عن ذكر الله لأنهم لم يريدوا إلا الحياة الدنيا، فهم لا يؤمنون بالآخرة ولا يريدونها، وما لهم فيها من قصد، **﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾** إنما يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وذلك نهاية مبلغ علمهم، فكل علوم هؤلاء الكفار وإن بلغت شأوا بعيدا فحدّها حد هذه الحياة المادية الفانية، وليست هي العلوم التي يسعدون بها ولا تنفعهم ليوم القيامة لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، أولئك الأخسرون أعمالا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، إنهم يظنون بعلومهم واختراعاتهم أنهم المهتدون، وأن المؤمنين الذين لا يحسنون هذه العلوم يظنونهم ضالين متأخرين رجعيين، ولذا يأتي التعقيب المناسب بقوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾.

فليس مقياس الهداية والضلال عند هؤلاء الكفار ولو بلغوا من علوم الدنيا ما بلغوا بل الله هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى، لقد وضع للناس سبيل الهداية، فمن سلكه فهو مهتد، ومن تنكّب عنه فهو ضال غاوٍ وإن زعم أنه من عباقرة العلم وبلغ من علوم الدنيا ما بلغ، هذا ميزان الهداية والضلال وإن أخطأ فيه أكثر الناس في هذه الدنيا وذلك حكم الله لا معقب لحكمه ولا مهدي إلا من هداه الله ولا ضال إلا من أضله الله، والله عليم بالمهتدين.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الاَرْضِ لِيَجْزِيَ الذِينَ أَسَآءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى الذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَآئِرَ الاِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ

اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ، إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ، أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾.

ولله وحده ما في السموات وما في الأرض ملكا وتصرفا وقهرا، خلقهما وما فيهما بالحق ولم يخلقهما عبثا، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا من الإساءة لا أكثر، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى وزيادة، والحسنى مؤنث أحسن، أي بالمثوبة التي هي أحسن من أعمالهم أضعافا مضاعفة، وذلك تفضلا منه على عباده المحسنين المؤمنين الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، مثل القتل والسرقة والظلم وشرب الخمر والزنى والسحر وتضييع الفرائض.

﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾.

استثنى ربنا تبارك وتعالى صغائر الذنوب والإثم ما دون الكبائر، مما يلم به أكثر الناس ولا يسلم منه إلا القليل، وذلك مثل: النظرة والكلمة والاستماع ولمس اليد، ومشي الرجل، وهي السيئات التي تكفر باجتناب الكبائر، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾ (النساء: ٣١)، وفي الحديث الشريف: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»، وهذا من فضل الله على عباده المؤمنين.

وقد روي في نزول هذه الآية أن رجلا من الصحابة يسمى نبهان التمار كان له دكان يبيع فيه تمرا فجاءته امرأة تشتري تمرا فقال لها: إن داخل الدكان ما هو خير من هذا، فلما دخلت راودها على نفسها فأبت، فندم فأتى النبي ﷺ وقال: ما من شيء يصنعه الرجل إلا فعلته إلا الجماع، فنزلت هذه الآية، والمعنى أن الله تجاوز له لأجل توبته، وتلك هي سعة مغفرة الله، وفي رواية أن النبي ﷺ قال له: «هل صليت معنا الفجر؟ قال: نعم، قال: قد غفر الله لك».

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ، إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ، أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾.

امتن الله على عباده المؤمنين بسعة مغفرته تحريضا لهم للمسارعة إلى التوبة والاستغفار، وقد علم ضعف نفوسنا واستيلاء الشهوات عليها، ووسوسة الشيطان لها، وكأن هذا معجون في جبلّتها، فقال: هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض من ترابها، وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ولا يكون الجنين إلا في بطن أمه، وإنما ذكر بطون الأمهات لنتفكر في خلقنا الأول، وفي تطورنا في أرحام أمهاتنا، فنوحد الله ونسبحه ونشكره ولا نكفره، ونذكره ولا ننساه، ثم قال:

﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾.

فإذا كان علم الله بما جبلكم عليه من النقص والقصور والضعف فلا تزكوا أنفسكم، أي لا تنسبوا الزكاء والكمال إلى أنفسكم، لا يزكي أحدكم نفسه، ولا يزكي أخاه بالمدح إلا بما يعلم عند الحاجة إلى ذلك مثل تزكية الرواة والحكام والشهود، وإن فعل ذلك فليقل: ولا أزكي على الله أحدا، فإن المدح والثناء كثيرا ما يغر الممدوح ويقصم ظهره، ولا يجزم بالحكم بالسعادة على ميت ولو كان معروفا بالصلاح والتقوى، لأن التألّي على الله محظور، وقد روي أن أم عطية رضي الله عنها قالت حين مات عثمان بن مظعون في بيتها، ودخل عليه رسول الله ﷺ قالت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال لها رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟ فقالت: إذا لم يكرمه الله فمن يكرمه الله، فقال رسول الله ﷺ: أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير وإني والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به»، قالت أم عطية: فلا أزكي أحدا بعدما سمعت هذا من رسول الله ﷺ، وهكذا كانوا يتحرزون من التزكية والجزم بالحكم، وكانوا يقولون إذا أثنوا على أحد: لا أعلم عليه إلا خيرا ولا أزكي على الله أحدا. قال الله تعالى:

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾.

أي الله أعلم بمن اتقى من عباده وبمقدار تقواه، وهذا سرّ لا يطلع عليه أحد ولا يعلمه إلا الله تعالى، وربما يخطئ الإنسان في الحكم على نفسه ويغتر، فنهانا الله عن المسارعة بالحكم والعلم الحقيقي عند الله.

﴿٣٢﴾ أفرءيت الذي تولى
﴿٣٣﴾ وأعطى قليلا وأكدى ﴿٣٤﴾ أعنده علم الغيب فهو يرى ﴿٣٥﴾ أم
لم ينبأ بما في صحف موسى ﴿٣٦﴾ وإبراهيم الذي وفى ﴿٣٧﴾ ألا تزر
وازرة وزر أخرى ﴿٣٨﴾ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴿٣٩﴾ وأن سعيه
سوف يرى ﴿٤٠﴾ ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴿٤١﴾ وأن إلى ربك المنتهى
﴿٤٢﴾ وأنه هو أضحك وأبكى ﴿٤٣﴾ وأنه هو أمات وأحيا ﴿٤٤﴾
وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ﴿٤٥﴾ من نطفة إذا تمنى ﴿٤٦﴾
۞ وأن عليه النشأة الأخرى ﴿٤٧﴾ وأنه هو أغنى وأقنى ﴿٤٨﴾
وأنه هو رب الشعرى ﴿٤٩﴾ وأنه أهلك عادا الأولى ﴿٥٠﴾
وثمودا فما أبقى ﴿٥١﴾ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى
﴿٥٢﴾ والمؤتفكة أهوى ﴿٥٣﴾ فغشاها ما غشى ﴿٥٤﴾ فبأي
ءالاء ربك تتمارى ﴿٥٥﴾ هذا نذير من النذر الأولى ﴿٥٦﴾ أزفت
الآزفة ﴿٥٧﴾ ليس لها من دون الله كاشفة ﴿٥٨﴾ أفمن هذا
الحديث تعجبون ﴿٥٩﴾ وتضحكون ولا تبكون
﴿٦٠﴾ وأنتم سامدون ﴿٦١﴾ فاسجدوا لله واعبدوا ۩ ﴿٦٢﴾

﴿أَفَرَآيْتَ الذِي تَوَلَّى﴾

الاستفهام تعجبي إنكاري يدعو إلى إنكار حالة من أحوال هؤلاء الكفار المكذبين المبطلين، والآية يبدو أنها نزلت في شخص معين، وقد روى المفسرون ذلك غير أنهم اختلفوا في هوية هذا الشخص، ولا يهمنا ذلك كثيرا ما دام العبرة دائما بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وقد قيل: إنها نزلت في الوليد بن المغيرة أنه لما ظهر منه ميل إلى دين محمد ﷺ عاتبه على ذلك بعض الكفار، وقالوا له: سفهت أحلام قومك وضللت آباءك وأجدادك، فقال: أخاف من عقاب الله، فقال الذي عاتبه: أثبت على دين قومك وعليّ إثمك على أن تعطيني كذا وكذا وأتحمل عنك وزرك فأعطاه، ثم طلب منه الزيادة فأبى أن يزيده وذلك هو الإكداء، وهو المنع وأصله من عثور الحافر على كدية وهي الصخرة الصمّاء، فقد تولى وأعرض عن الذكر بعد إذ جاءه، وأعطى قليلا من المال ثم أكدى، أي بخل لما طولب بالزيادة وهو مذموم في بخله غير محمود في إعطائه، ولا منتفع به في شيء، وقد عاب الله حاليه ووبخه على إعطائه في هذا الشأن وبخله وإكدائه، ثم قال تعالى:

﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾.

الاستفهام الثاني هذا يأتي أيضا في صيغة الإنكار، أعنده علم الغيب فهو يشاهد المغيبات أم يقول بغير علم، وإلا فمن أنبأه أن أوزاره يحملها عنه غيره، وهذا ما لا يُعلم إلا بسلطان مبين ووحي من الله.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الذِي وَفَّى أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَن لَّيْسَ لِلاِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَآءَ الاَوْفَى﴾.

تـأتي أم هنـا للإضـراب الاستفهامي بمعنـى بـل، ألم ينبـأ بمـا في صـحف موسـى وإبراهيم، والنبأ هو الخبر ذو الـشأن والأهمية، ألم يخبر بما أنزلـه الله في الـصحف الـتي أنزلها على عبده ورسوله موسى وعلى عبده ورسوله وخليله إبراهيم الذي وفّى بما عهد الله به إليه، وهي الكلمـات الـتي ابتلاه الله بهـا فـأتمهن، والـصحف الـتي أنـزل الله عليـه فوفّى بما فيهن، وهذه شهادة عظيمة من الله تعالى لنبيّـه إبراهيم بالوفـاء، ويامـا أعظمهـا من شهادة من العليم الخبير، أما الحُكم الذي في صحف إبراهيم وموسـى فهـو قـضاء الله العادل.

﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَأَن لَّيْسَ لِلانسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَآءَ الاَوْفَىٰ﴾.

حكـم الله أن كـل نفـس بمـا كـسبت رهينـة، وإنهـا هـي وحـدها تحمـل أوزارهـا لا يساعدها في حملها غيرها ولو كان ذا قربى كما أنـه لا ينفعهـا في عملـها عامـل، فهـي لا تجزى إلا بسعيها، وليس لها من سعي غيرها نصيب، ولـو كـان ذا قربـى، وأخبرنـا بهـذا الحكم حتى لا يتكل قريب على قريبه، ولا حميم على حميمه، ولا يطمع أن ينـال مـن كسبه شيئا ولو كان ذا قربى، وهذا الحكم وإن كان نزل في الصحف الأولى ولكن حكـاه الله لنا على صيغة التـصويب والتقرير، فهـو حكـم جـار في جميـع الملـل، جـار علينـا لا يستثنى من ذلك إلا ما استثناه الحديث الـصحيح مـن الـدعاء والـصدقة، يتـصدق قريـب عن قريبه، أو يدعو له، ويدعو المؤمن لأخيه المؤمن.

وقد أمر الله بذلك نبيّه والمؤمنون له تبع، قال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (محمـد: ١٩)، والملائكـة في الـسموات وحملـة العـرش ومـن حولـه يـستغفرون لمن في الأرض، يـستغفرون للـذين آمنـوا، والحـديث الـصحيح الـوارد: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولـد صـالح يدعو له»، أما الصدقة الجارية والعلم الذي ينتفع به فهـو مـن كـسبه وأمـا ولـده فهـو مـن

كسبه، يدعو له ويتصدق له، هذا كل ما ورد في الأثر مما يستثنى من هذا الحكم، كما وردت أحاديث صحيحة في الحج عن الغير، وفي الصوم: «من مات وعليه صوم فليصم عنه وليه».

هذا ما اتفق عليه علماء الأمة حتى كاد يكون إجماعا، واختلفوا فيما سوى ذلك من الصلاة وتلاوة القرآن، يصلي ويقرأ القرآن ويتعبد ويهدي ثوابه لوالديه، أو من شاء من المسلمين والمسلمات، قال بهذا بعض العلماء وأنكره الإمام مالك والإمام الشافعي وجمهور العلماء، وأنا أؤيد جمهور العلماء فيما ذهبوا إليه أنه لا ينفع سعي أحد غيرَه ولا ينالُه لأن هذا الزعم يبطل معنى الآية ومعنى الاستثناء في الحديث الصحيح الذي ذكرناه، وشرع من قبلنا شرع لنا إذا حكاه الله على وجه الإقرار والاعتبار، لا سيما ما كان في صحف إبراهيم من الديانة ومكارم الأخلاق، فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ١٦١).

وهذا الحكم الذي يحمل هذا النبأ من ملة إبراهيم وموسى هو حكم لنا لا سيما وقد ألفتنا الله إليه وتعجب من يجهله ويزعم خلافه، فأنا أصوب رأي الجمهور لما عليه من برهان واضح، وأنكر أن يصلي أحد عن أحد أو يقرأ أحد عن أحد، وأشدد الإنكار في القراءة التي تكون بعوَض، دراهم أو طعام، فأي ثواب لهذه القراءة التي أخذت عنها الأجرة في الدنيا، هذا في الأعمال البدنية أما في العبادة المالية كالحج والعمرة فهذا تثبته الأحاديث الصحيحة أنه يحج أحد عن أحد، ويعتمر أحد عن أحد، والأجرة التي يأخذها مقابل ما يصرف في الحج والعمرة من مصاريف والجهد تابع للمصاريف، وما لا يجوز بالاستقلال يجوز بالتبع والله أعلم. وقوله تعالى:

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَآءَ الأَوْفَىٰ﴾.

ويقرر الله تعالى في هذه الملة أن سعي الإنسان غوياً كان أو رشيدا سوف يعرض عليه عرضا جليا ويراه الناس ثم يجزاه الجزاء التام فلا ظلم يومئذ، فلينظر الإنسان ماذا يقدم لذلك اليوم فإنه يقدم على ما قدّم ويلاقي جزاءه، فيا طوبى لمن يشهر عليهم بسعي الخير، ويا ويل من يشهر عليهم بالسيئات ﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ (غافر: ٩)، وهذه الجمل كلها من مشمول ما أثبت في الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾.

وأن إلى ربك المنتهى، أي نهاية الأمور كلها، ونهاية الحكم، ونهاية المسير إليه لا إلى غيره ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ (الشورى: ٥٣)، فمنه وحده المبدأ وإليه وحده المنتهى، وكل شيء مرجعه إلى الله، ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، ومهما تفكر الإنسان في بدايته وأصل نشأته فيلتفكر في نهايته، وليعلم علم اليقين أن نهايته إلى ربه، وأن مرجعه إليه ليستعد للقاء الله، ﴿يَا أَيُّهَا الإنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ﴾ (الانشقاق: ٦)، فالكلمة عظيمة حقا لمن تدبر معناها، وإنما الأمور بنهايتها وخواتيمها ونهاية الحكم إلى الله، ويوم القيامة يتمحض ملكه، فهو ملك يوم الدين ويوم القيامة يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فلا يستطيع أحد يومئذ أن ينازعه الملك، وما أحقر الملوك والرؤساء يومئذ، وما أذلّهم، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد،

فيجيب الله نفسه بنفسه فيقول وقوله الحق وله الملك: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، انتهى المُلك والمِلك لله الواحد القهار.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾.

انتقال من الاعتبار بيوم القيامة إلى الاعتبار بأحوال الدنيا التي فيها مظهر لآية من آيات الله تبارك وتعالى، أنه هو الذي أضحك وأبكى، وهذان الوصفان يختص بهما بنو آدم دون الأجناس الأخرى، وهما أثر لسرور النفس أو حزنها، فالإنسان لا يزال يتقلب في هذه الدنيا بين أسباب الضحك وأسباب البكاء، والناس يوم القيامة فريقان، فريق في السرور والاستبشار والضحك، وفريق في الحزن والحسرات والبكاء، فالله هو الذي أضحكَ الضاحكين، وأبكى الباكين، وأوجد أسباب الضحك وأسباب البكاء، فسبحان المضحك المبكي، العليم القدير.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾.

وأن الله وحده هو المميت المحي، خلق الموت والحياة، ولا أحد غير الله يحيي ويميت، حتى القاتل يقتل ولكن المميت هو الله، فقد يقصد القاتل قتل إنسان أو حيوان ولكن الله إذا لم يرد إماتته فإنه لا يموت حتى يحين أجله، فالمحيي المميت في الحقيقة هو الله، ولا يزال العلماء حيارى في خلية الحياة، وسيبقون كذلك ما بقيت الحياة؛ لأن الروح من أمر الله، وهي سر من أسراره التي استأثر بها، فسبحان المحيي المميت، وهو حي دائم لا يموت.

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ﴾.

ثم ألفتنا الله تبارك وتعالى إلى آية الحياة في الخلق الأول للإنسان، هذا الكائن الذي فضله الله على كثير ممن خلق تفضيلا، وحمّله الأمانة العظمى، فلينظر الإنسان إلى

أصل تكوينه وخلقته نظرة تأمل واعتبار، وليتفكر بعد خلقته في معاده ليزداد إيمانا بخالقه.

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ﴾.

خلق الله الزوجين، أي النوع الذي هو ذكر والنوع الذي هو أنثى من نطفة إذا دفقت في الرحم والتحمت ببويضة المرأة، فيخلق الله بمشيئته وحده الزوجين الذكر والأنثى، ولو كان هذا بيد العباد لاختل التوازن الذي تقتضيه الحكمة الإلهية من تواجد الذكور والإناث في كل عصر ومصر، ثم إن هذه الشعيرة الدقيقة تحمل خصائص الأبوين بل حتى خصائص الأجداد والجدات، وألوانهم وأشكالهم وأصواتهم، وفي ذلك عبرة للمعتبرين، وذكرى للذاكرين.

وفي الخلق الأول عبرة للنشأة الآخرة عند البعث بعد الموت ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، فنحن نؤمن بالبعث بعد الموت، وأن الله على كل شيء قدير، وهذا أمر كتبه على نفسه فلا نشغل أفكارنا بكيف وكيف، قال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ (الأنعام: ١٢)، فالذي أنشأ الخلق من العدم قادر على أن ينشئهم النشأة الأخرى، والرحمة تقتضي ذلك لينصف بعضهم من بعض، وليجزيهم بما عملوا في يوم قال ربنا فيه ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ (النبأ: ٣٩)، وفي ذكر الخلق الأول تمهيد لإثبات عقيدة الإيمان بالنشأة الأخرى في اليوم الآخر، فلا ينكره إلا عنيد مكابر، ثم قال تعالى:

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾.

يبدو أن معنى أغنى وأقنى من المتضادات حتى يتم التقابل والطباق كما تم بينهما في قوله: أضحك وأبكى، وفي قوله: أمات وأحيا، وفي قوله: الذكر والأنثى، وهو المعنى الذي أختاره، أن يكون أقنى ضد أغنى، وقد قال به بعض أهل التفسير، يعني جعل

من يشاء غنيا ومن يشاء فقيرا، وهذا من أقنى بمعنى أخدمَ أي جعل من يشاء من الفقراء خدما للأغنياء، ومنه القَنُّ وهو العبد الذي يولد مملوكا فينشأ خادما لمولاه ولا يملك في حياته شيئا، وقد يكون أقنى معناه أزال القنية أي أزال الغنى ورفعه، وقد تزاد الهمزة لإحالة الشيء إلى ضده، ومنه أقسط أي عدل، وأزال الظلم، وقسط بمعنى ظَلم، ومنه أشكاه، تقول شكوت إلى فلان فأشكاني، أي فرفع عني ما به أشكو، وهذا المعنى الذي أختاره ليتم الطباق وتظهر العبرة بمقابلة الأضداد، وفي مقابلتها الذكر والاعتبار.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾.

الشعرى كوكب عظيم عرفه الناس منذ آلاف السنين وعبدوه، وقد عظمته خزاعة وعبدوه وعلقوا على مطالعه السعد والنحس، وتقربوا إليه بأنواع القرابين يرجون نفعه ويخشون ضره، عبدوه من دون الله وغفلوا عن الله الذي هو ربهم ورب الشعرى وخالقها، رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، وما الشعرى إلا كوكب من كواكب السماء التي تطلع وتأفل، وهي مسخرة في مسارها، ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠).

وضرب الله المثل بالشعرى لأنها كوكب عظيم قال فيه علماء الفلك هو أثقل من الشمس عشرين مرة، وضوؤها يفوق ضوء الشمس خمسين مرة، هذا مع العلم بأن الشمس أكبر من هذه الكرة الأرضية بنحو مليون ونصف مليون مرة، وتظهر الشعرى أصغر من الشمس مع أنها أكبر من الشمس وما ذاك إلا لشدة بعدها عنا، فهي أبعد من الشمس بمليون مرة من بعد الشمس من الأرض، وليست الشمس أكبر من كواكب السماء، ولكنها تظهر كبيرة ونورها قويا لأنها أقرب نجوم السماء إلينا، والمسافة الضوئية بيننا وبين الشمس ثمان دقائق، وهي مسافة قريبة جدا بالنسبة لسائر النجوم، فسبحان خالق الشمس والقمر والشعرى، رب السماوات ونجومها والأرضين وتخومها، لا نعبد

إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، ثم يذكر الله بعض آياته في إهلاك الذين خلوا من قبل فيقول جل من قائل:

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ وَثَمُودًا فَمَآ أَبْقَىٰ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ وَالْمُوتَفِكَةَ أَهْوَىٰ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾.

وأن الله هو الذي أهلك عادا قوم هود بما أهلكهم به، وسماها عادا الأولى وهي عاد إرم، لأنها سبقت ثمود التي هي عاد الثانية في قول بعض المفسرين، ومنهم من يقول: إن عادا الثانية هم الجبارون الذين ملكوا بيت المقدس، وقيل لمجرد سبقهم في أمم العرب سماهم عادا الأولى، وكان إهلاكهم كما هو وارد في القرآن بالريح الصرصر العاتية، ثم جاءت بعدهم ثمود في الحجر ما بين الحجاز والشام وهم قوم صالح، فكذبوا رسل الله وعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم فأهلكهم الله بما لم يكن في حسبانهم، وقد كانوا اتخذوا بيوتا نحتوها في الجبال حتى لا تهلكهم الرياح وأنواء السماء، وما علموا أن لله جنود السموات والأرض، وإن عذاب الله إذا نزل لا يرد، فأهلكهم بصيحة واحدة فما أبقى منهم أحدا إلا صالحا والذين آمنوا معه، والله ينجي من يشاء ولا يرد بأسه عن القوم المسرفين.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾.

لقد كان نوح وقومه أقدم من عاد وثمود ولكنه بدأ بهما لأنهما في الجزيرة العربية، فمنازلهما أقرب للاعتبار للسائرين إلى اليمن والشام، ورغم قدم قوم نوح فإن أخبارهم لا تخفى عن قريش وغيرهم؛ لأن قصة الطوفان الذي غمر الأرض لا تخفى على أحد من الناس، وهي عبرة للمعتبرين، وقد وصفهم الله أنهم كانوا هم أظلم وأطغى لكثرة ظلمهم، وطول أمد طغيانهم، فقد يهلك عليه الكبير وينشأ عليه الصغير منهم، يتواصون بالتمرد والطغيان حتى أيس نوح عليه السلام من إيمان تلك الأجيال المتعاقبة

فدعا عليهم ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾ (نوح: ٢٦- ٢٧)، ويبدو أن يأسه منهم كان بعد إيحاء الله إليه بخبرهم: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ (هود: ٣٦)، دعا عليهم فأهلكهم الله بالطوفان فبعدا للقوم الظالمين.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾.

المؤتفكة والمؤتفكات هي قرى سدوم، وهم قوم لوط، والائتفاك هو الانقلاب؛ فلأن الله قلبها وجعل عاليها سافلها، ورفعها إلى السماء ثم أهواها أسفل سافلين، هذا ما أمطرت مطر السوء، حجارة من سجين محماة في النار، وذلك معنى قوله: فغشاها ما غشّى من هذه الحجارة، ومن عذاب الله، ففي ذكر هذه الأربع من الأمم الكافرة كفاية للاعتبار، نعوذ بالله من سخط الجبار، وقد أجمل ذلك كله في قوله تعالى في سورة الفجر: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (الفجر: ١٣)، ولما كان إهلاك أعداء الله من أعظم نعمه على رسل الله ومن معهم قال تعالى:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾.

فبأي نعم ربك يشككونك، أي لا تشك في نصر الله، ﴿أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ٢١٤)، ولا تشك أيها المسلم في نعم الله، وأجلها نعمة الإيمان على المؤمنين.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ﴾.

الإشارة إلى النبي محمد ﷺ والقرآن أرسله الله به نذيرا ينذر به قومه، والناس كافة، يخوفهم من عذاب الله، ويبشرهم بمغفرة وأجر كريم لمن اتبعه، وترد النذارة في القرآن أكثر لأن زاجر الخوف أشد تأثيرا في النفوس من تشويق البشارة، ونذارة نبينا من جنس نذارة الرسل من قبله، فما هو إلا واحد منهم: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: ٩)، والدين عند الله الإسلام، فهم جميعا يصدرون عن دعوة واحدة،

وقد قال رسول الله ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء أبناء علات، أبونا واحد، وأمهاتنا شتى»، فأبوهم الإسلام وأمهاتهم شرائعهم، وفي هذه الآية تخويف لقومه الذين كذبوه وآذوه أن يصيبهم ما أصاب أسلافهم ممن كذب بالرسل، فليتعظ من كان له قلب منهم وليخشوا سوء العواقب، وفيما تقدم من صفات الله العظيمة التي لا يشاركه فيها غيره ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، إنه لا نجاة إلا في الاستجابة إلى نذر الله الأولى والآخرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾.

هذه الآيات الكريمة ختمت بها هذه السورة الكريمة، فهي كخلاصة وفذلكة لما تقدم من أول السورة، والآزفة المقصود بها هنا قيام الساعة، وأزفت معناه قربت، وجاء الفاعل من جنس الفعل لتأكيد القرب، ولتذهب النفس مذاهب في تصوير هذه الآزفة التي غدت هي الأخرى أسماء من أسماء يوم القيامة، وقد عبّر عنها بأسماء كثيرة كلها تنبئ عن الهول مثل الواقعة والحاقة والطامة والصاخة والغاشية والقارعة، وهنا جاء التعبير بالآزفة إيذانا بقربها.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾.

يطلق الكشف في لغة العرب على معنيين: أحدهما التجلية وإزالة الستر عن الشيء المغطّى، والثاني دفع الشيء وإزالته عند نزوله، ومنه كشف الضر، ويبدو أن المعنى الأخير هو المراد هنا، وهو الذي أرجحه ويرجحه المحققون من أهل التفسير؛ لأن المقام مقام إنذار وتخويف، فإذا حان وقت الساعة فلا كاشف لها من دون الله، أي لا أحد يدفع مجيئها إذا جاءت، لا أحد غير الله يقوى على ردّها، واستعمل اسم الفاعل مكان المصدر فقيل كاشفة، والمراد كشف، ويرد هذا في كلام العرب كما نقول في داهية

وعافية وخائنة، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الاَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر: ١٩)، أي يعلم خيانة الأعين. ثم قال تعالى:

﴿افَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾.

الاستفهام إنكاري، والمخاطبون هم الكفار من قريش ومن معهم الذين تعجبوا من نبوءة محمد ﷺ ونزول القرآن عليه، وسخروا منه فتعجب الله من تعجبهم ووبّخهم على بطرهم وكبريائهم وإعراضهم، قال تعالى: أفمن هذا الحديث، أي القرآن الذي هو أصدق الحديث، وقد أدركوا حلاوته وبلاغته، وأنه ليس من كلام البشر، ولا يستطيع البشر ولا غيرهم أن يأتوا بمثله ولا بسورة واحدة، أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون، أنكر عليهم ضحكهم وسخريتهم، وأنكر عليهم عدم بكائهم من هذا الحديث الذي لو نزل على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله، وما ذاك إلا لأنهم سامدون، والسمود هو البطر والإعجاب بالنفس ورفع الرأس كبرياء وصلفا، يقال: سمد البعير إذا رفع رأسه، والسمود أيضا هو الغناء على لغة حمير، ولا يبعد هذا المعنى أيضا فقد يرفعون أصواتهم ويلغون فيه، وكان طوافهم بالبيت المكاء والتصدية، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً﴾ (الأنفال: ٣٥)، إنما يجب على من يتلى عليه القرآن أن يبكي فإن لم يبك فليتكلف البكاء من القوارع والزواجر التي فيه، ومن خشية الله، أما الضحك عند تلاوته فكبير، وليس ذلك من طبع المؤمنين الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى. ثم قال تعالى:

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾.

الخطاب لهم، ويدخل المؤمنون في الخطاب من باب أولى، إن الله تبارك وتعالى بعد أن قرع هؤلاء الكفار ووبخهم أمرهم وأمر الناس جميعا بالسجود لله والخضوع له وإفراده بالعبادة، ويراد بالسجود هنا مطلق الخضوع والتذلل لله العلي الكبير، وقد يراد

أيضا السجود الذي في الصلاة لأن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة مكلفون بالإتيان بها، وإن كان ذلك لا ينفعهم إلا بعد الإيمان، وروي أن النبي ﷺ قرأ هذه السورة على الناس فسجد وسجدوا كلهم من كان منهم مؤمنا ومن كان كافرا، إلا شيخا من شيوخ المشركين وهو أمية بن خلف فإنه لم يسجد وأخذ حفنة من الحصا فجعل عليه جبهته، وروي في الصحاح وكتب السنن عن طريق زيد بن ثابت وأبي بن كعب وغيرهم أن النبي ﷺ لم يسجد بعدها في سورة النجم ولا في شيء من المفصل، والنجم من المفصل، وقيل: إن السجود في المفصل منسوخ، والله أعلم.

تم ما فتح الله به من تفسير سورة النجم والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القمر مكية

وآياتها ٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

اقتربت الساعة وانشق القمر (١) وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا
سحر مستمر (٢) وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر (٣)
ولقد جاءهم من الانباء ما فيه مزدجر (٤) حكمة بالغة فما تغن
النذر (٥) فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر (٦)
خشعا أبصارهم يخرجون من الاجداث كأنهم جراد منتشر (٧)
مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر (٨) كذبت
قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر (٩) * فدعا
ربه أني مغلوب فانتصر (١٠) ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر
(١١) وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر (١٢) وحملنه
على ذات ألواح ودسر (١٣) تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر (١٤)
ولقد تركناها آية فهل من مدكر (١٥) فكيف كان عذابي ونذري
(١٦) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (١٧)

السورة مكية وآياتها خمس وخمسون آية، وهي كسوابقها المكيات تعالج قضية العقيدة والإيمان باليوم الآخر، وتهدد الكافرين المكذبين بآيات الله بسوء العواقب في الدنيا وبعذاب الله في الآخرة، وهي شديدة المناسبة بسابقتها سورة النجم، فقد ختمت هذه بالإنذار بقرب قيام الساعة ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾، وفتحت سورة القمر بقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾، ومن المفسرين من يسمي السورة بهذه الآية "اقتربت الساعة"، وصح بذلك الخبر عن الصحابة رضي الله عنهم.

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

الاقتراب هو الدنو وقرب وصول الشيء الآتي، وقد جاء الحديث عن النبي ﷺ قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين، وقرن بين السبابة والوسطى»، وفي رواية: «كادت أن تسبقني فسبقتها»، أما انشقاق القمر فهو انقسامه إلى فلقتين ثم رجع كما كان وذلك ليلة تمامه كما رويت في ذلك أحاديث صحاح، ونحن لا ننكر ذلك متى صحت الأحاديث، ومن المفسرين من يقول: إن انشقاق القمر آية من آيات قيام الساعة يوم تكور الشمس وتنكدر النجوم، ويخسف القمر.

وجاء التعبير بصيغة الماضي لتحقق الوقوع، فكأنه قد وقع، وتأتي هذه الصيغة كثيرا في شؤون قيام الساعة كقوله تعالى: ﴿ونُفِخَ في الصُّورِ..﴾ الآية، وأنا أميل إلى ترجيح هذا القول ولا أنكر أن يكون انشق فعلا بإشارة الرسول ﷺ، وقدرة الله صالحة لكل شيء، إنما الذي ننكره ولا نقبله أن يكون انشقاقه بطلب من المشركين لأن القرآن لا يوافق الكفار على إنزال الآيات التي يقترحونها ويوصد عليهم هذا الباب في غير موضع من كتاب الله، من ذلك قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلِ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمُ، أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمُ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾ (العنكبوت: ٥٠- ٥١).

وقال تعالى في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلآَ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ قُلْ فَاتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ، إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الآيات: ٤٨- ٤٩)، وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِالاَيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الاَوَّلُونَ﴾ (الآية: ٥٩)، وقال فيها أيضا: ﴿وَقَالُوا لَن نُّومِنَ لَكَ حَتَّىٰ تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ الاَرْضِ يَنبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الاَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا اَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا اَوْ تَاتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلآَئِكَةِ قَبِيلاً اَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ اَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَآءِ وَلَن نُّومِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُّومِنُوا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَىٰٓ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً قُل لَّوْ كَانَ فِي الاَرْضِ مَلآَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾ (الآيات: ٩٠- ٩٥). وقال في سورة الأنعام: ﴿وَلَو نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ وَقَالُواْ لَوْلآَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوَ انزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الاَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ (الآيات: ٧- ٩). وقال فيها أيضا: ﴿وَلَوَ اَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الْمَلآَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قِبَلاً مَّا كَانُواْ لِيُومِنُواْ إِلاَّ أَنْ يَّشَآءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (الآية: ١١١).

فهذه الآيات من كتاب الله تبيّن لنا أن الآيات ليس نزولها باقتراح المشركين المكذبين، وإن الله حين يستجيب لاقتراحاتهم ثم لا يؤمنون يهلكهم ويعذبهم عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين، ولقد علمنا أن الله تبارك وتعالى رفيق بهذه الأمة لا يبيدها لأنها آخر الأمم ولا يعذبهم ورسول الله فيهم، قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الآية: ٣٣). كذلك اقتضت حكمة الله ولطفه بهذه الأمة أي أمة الدعوة ألاّ يستجيب لمقترحاتهم في طلب

الآيات، وما يمنعه من ذلك إلا أن يكذبوا بها كما كذب بها الأولين فيهلكهم كما أهلك الأولين. ثم قال تعالى:

﴿وَإِنْ يَّرَوَا ـــ ايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾.

وإن يروا آية من آيات الله من انشقاق القمر أو غيره ينكرونها ويقولوا سحر مستمر، أي معهود متكرر من محمد، وقد سموه ساحرا وأعرضوا عما جاءهم به من الحق وتولوا عنه مدبرين متعامين عن آيات ربهم، متصاممين عن نذره.

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾.

وكذبوا بالقرآن وبالوحي والرسالة وبالتوحيد، وأنكروا أن يكون إله واحد، قالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ (ص: ٥)، وكذبوا بالساعة وباليوم الآخر، كذبوا بالحق لما جاءهم واتبعوا أهواءهم، فهي أهواء كثيرة لا هوى واحدا، فمنها صاحب حبّ الشهوات، ومنها حبّ الرئاسة، ومنها حب التقليد وتقديس ما تركته الآباء الأقدمون وتعظيم أصنامهم، ومنها الكبر والتعالي، وهو ما يمنعهم من الإيمان بهذا الفتى الفقير الضعيف، ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١)، توزعتهم الأهواء، وألبتهم على الكفر فكذبوا بمحمد وبما جاء به محمد من عند الله، ولا تزال الأهواء مانعة من قبول الحق واتباعه.

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾.

عبارة محكمة وجيزة بليغة تجري مجرى المثل، كل أمر من الأمور يجري إلى قراره ويتجه إلى نهايته على نحو ما قضاه الله وقدّره، فمهما حاول هؤلاء المكذبون إطفاء نور الله ومدافعة أمره فإن الله غالب على أمر، ومتم نوره ولو كره الكافرون، فلا راد لأمره ولا دافع لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فهم أحقر وأهون على الله وأضعف من أن يردوا أمر الله.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ الاَنبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾.

الأنباء جمع نبأ، والنبأ هو الخبر الخطير المهم، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، جاءتهم أنباء الأمم الماضية، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ (آل عمران: ١٣٧)، ففي أخبارهم ما يكفي للاعتبار والازدجار، والازدجار من الزجر وهو دفع النفس على المعاصي ونهيها عن الهوى، ففي أنباء القرون الخوالي ما فيه مزدجر لو كانوا يعتبرون، ولكن أكثرهم لا يعتبرون، يمنعهم من ذلك حب الشهوات وقساوة القلوب، ونعوذ بالله من قساوة القلوب، وتلك طبائع النفوس التي غلب عليها حب العُلوّ والفساد في الأرض، ثم قال تعالى:

﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾.

جاءتهم من الله حكمة بالغة أقصى ما يبلغ الوعظ من القلوب الواعية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فما تغني النذر وما ينفع الوعظ في أمثال هؤلاء الجاحدين المكذبين، الصم البكم العمي فهم لا يعقلون.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِي يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

فتول عنهم؛ الأمر موجه إلى النبي ﷺ يأمره ربه أن يعرض عن هؤلاء الكفرة المكذبين بعد إنذارهم وإقامة حجة الله عليهم، فما هو إلا مبلغ ومذكر وليس عليهم بمسيطر، وفي هذا الأمر تسلية لقلب نبيه، فليس عليه بعد التبليغ والإنذار من أمر هدايتهم شيء، وليس إعراضهم لتقصير في التبليغ بل أمر هداهم بيد الله وحده، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ﴾ (البقرة: ٢٧٢)، ثم إن الله تعالى يردف هذا الأمر بالإنذار بيوم البعث والنشور فيقول:

﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾.

الإشارة إلى يوم البعث، فكأن الله يقول لنبيه: ذكّر وانتظر يوم يدعو الداعي إلى شيء نكر، مشهد عظيم وهو أول مشهد من مشاهد يوم القيامة، يعرضه ملك يوم الدين في كتابه الكريم ليعتبر به المعتبرون، ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، وكأن الله تعالى يقول: ويل لهم يوم الداعي إلى شيء نكر، وقد جاء التعبير بشيء للتهويل والإبهام، فهو شيء عظيم لا يحيط به الوصف، ولا تدرك النفوس حقيقته، فهو شيء نكر، والنُّكر في اللغة ما تنكره العقول وتكرهه النفوس، فهو أعظم هولا من المنكر، فيا لهول ذلك المشهد!

﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾.

خاشعة أبصارهم، يبدو فيها الذل والرعب والمخافة، جاء إسناد هذا الخشوع إلى الأبصار لأن العيون مرآة لأحوال النفوس تظهر فيها خلجات القلوب من حزن وسرور، وأمن وخوف، وحب وبغض، يقول الشاعر الحكيم:

والعين تبصر في عين محدثها ... إن كان من حزبها أو من أعاديها

ثم قال تعالى:

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾.

الأجداث هي القبور، فهم عند النفخة الثانية يخرجون من قبورهم أحياء تلفظهم الأرض جميعاً لا يتخلف منهم أحد، يقبلون إلى صوت الداعي ينتشرون في الأرض مسرعين إلى جهة واحدة كأنهم جراد منتشر، وذلك إن فراخ الجراد وهو الدبا يوم يخرج من الأرض يسير إلى وجهة واحدة لا يثنيه شيء، فالتشبيه مطابق في الكثرة والزحف الحثيث، فما أشبهه بمشهد الجراد المنتشر الزاحف.

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِي يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

مهطعين، أي سائرين مسرعين إلى مصدر الصوت خائفين، رؤوسهم مشرئبة وأعناقهم ممتدة وهم لا يدرون ما يراد بهم، أما الكفار فقد عرفوا الخطر المحدق بهم،

فهم يقولون: هذا يوم عسر، أي زمان شديد أحواله عسيرة، لما ينتظرهم من سوء الحساب وشديد العقاب، فالمشهد مؤثر حقا فيه موعظة بليغة لمن كان له قلب حي، يسمع القول ويعتبر، ووصف اليوم بأنه عسر مجاز عقلي لأنه ظرف لأمور عسرة فهو كما وصفه الله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ (المدّثّر: ٩-١٠).

وإلى هنا ينتهي الكلام في وصف يوم البعث، ويستأنف بعرض أنباء الأمم الخالية، وكيف كان مصير المكذبين، يقول الله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ السَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِمَن كَانَ كُفِرَ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

تأتي قصة نوح مطوية في عبارات موجزة مؤثرة بليغة، تأتي بعد قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾، ومن جملة المكذبين بالنذر قوم نوح المشهورون، وخبر نوح والطوفان تعرفه كل الأمم؛ لأنه الجد الثاني وهو شيخ المرسلين، هو الرسول المبعوث إلى أهل زمانه، وفي عرض نبإه موعظة وذكرى للمعتبرين.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾.

كذبت قبل قريش قوم نوح رسولهم نوحا، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ شرفه الله بوصفه بالعبودية ونسبته إليه، وفي تكذيبه وهو عبد لله أرسله الله إليهم، في تكذيبه ظلم عظيم وإثم كبير، ثم إنه لم ينته الأمر عند تكذيبه بل قالوا مجنون، نسبوه إلى الجنون، وكذلك شأن أقوام الرسل ينسبونهم إلى الجنون بهتا منهم وهم أعقل العقلاء وأبعدهم

عن الجنون، ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أي ومنع بالقهر والضرب عن تبليغ رسالة الله، واستمر هذا الزجر طيلة مكثه فيهم، ألف سنة إلا خمسين عاما، وما كان ذلك يثنيه عن تبليغ الدعوة إلى الله بمختلف الأساليب كما ذكر ذلك في سورة نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا...﴾ الآيات، ثم إن نوحا دعا بهذا الدعاء:

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾.

ولم يدع بهذا الدعاء إلا بعد أن أخبره الله أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فدعا ربه أني مغلوب فانتصر، إنهم غلبوني وليس لي بهم قوة إلا قوتك يا رب فانصرني عليهم وانتصر لدينك وحزبك، فاستجاب الله لعبده نوح دعوته، فانتصر منهم.

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ السَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾.

تأتي هذه العبارات البليغة في إيجاز بديع وإعجاز له سلطان على قلوب السامعين، تعبير بديع على تدفق المياه المنصبّة من السماء، وتفجير المياه الغزيرة من الأرض من كل أقطارها.

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ السَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾.

هكذا بنون العظمة وبكُن فيكون، يفتح الله أبواب السماء بماء منهمر متدفق، وفي التعبير بفتح أبواب السماء ما فيه من روعة المشهد، ومثله قوله تعالى:

﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا﴾.

وإسناد التفجير إلى الأرض لا إلى العيون نظير قوله تعالى حكاية عن عبده زكرياء: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾، فالرأس كله اشتعل شيئا، والأرض كلها تفجرت عيونا، فما أروع المشهد، وتمام الروعة في قوله تعالى:

﴿فَالْتَقَى الْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.

وأي شيء يدفع عذاب الله النازل إذا قدّر الله أن تلتقي المياه النازلة من السماء والمتفجرة من الأرض، وقدَر الله لابد واقع ما له من دافع، وحقا يقف الإنسان الضعيف مبهوتا مدحورا أمام هذا المشهد العظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وفي هذا المشهد الرائع تتولى عناية الله عبده نوحا ومن معه من المؤمنين فيقول الله تعالى:

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾.

وبنون العظمة دائما تتجلى عظمة الله وقدرته ورحمته في حمل عبده الشكور نوح ومن معه على سفينة محكمة الصنع بوحي من الله ذات ألواح خشبية ومسامير تجري بأعين الله، أي بحفظه وحراسته وعنايته، ومن ترعاه عين الله فهو المعصوم الذي لا يخشى الهلاك ولا يخاف سوء العواقب، فهو النصر الذي دعا به نوح والذي كان جزاء لمن كان كفر وازدجر، أقر الله عينه بالنصر المبين جزاء له على صبره الطويل على كفر قومه به وبدعوتهم إلى الله الواحد القهار، ولكنهم كفروا بالله وبرسوله وكذبوا بالنذر فجعلهم الله عبرة للمكذبين من بعدهم، ففي ذكر قصتهم تخويف للمكذبين من قريش ومن معهم، كما أن في ذكر إنجاء الله نوحا ومن معه تسلية لقلب النبي ومن معه من المؤمنين المستضعفين، وإرشاد لهم إلى الاعتصام بالصبر والتوكل على الله، ولا تكون عاقبة الصابرين المتوكلين إلا خيرا والعاقبة للمتقين.

﴿وَلَقَدْ تَّرَكْنَاهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: ولقد تركنا قصة نوح آية باقية لمن يتذكر ويعتبر، فهل من مدّكر؟ والاستفهام للحث والتحضيض على الاتعاض والاعتبار، ألا فاتّعظوا واعتبروا واتقوا سوء العواقب يا معشر المكذّبين من قريش وغير قريش، ففي خبر إنجاء نوح وقومه الذين آمنوا به وإهلاك الكفار وإغراقهم عظة وعبرة للمعتبرين، وفي صبره على

أذاهم زمنا طويلا عبرة للمعتبرين وذكرى للذاكرين، وكذلك ينصر الله أنبياءه ورسله ومن قام بالدعوة من بعدهم وينتقم الله من الظالمين، ويفعل الله ما يشاء.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي﴾.

الاستفهام للتعجيب، أي فانظروا إلى عذابي ونذري، وتأملوا فإن الأمر عجيب وعظيم، ليس كمثل عذاب الله عذاب، وليس أصدق من نذر الله، والنذر جمع نذير وهو الرسول المنذر لقوله الذي يخوّفهم بعذاب الله، وقد يراد بالنذير الإنذار، أي مصدر النذارة وهو الإخبار بأمر مكروه مقبل إذا نزل ماله من دافع، فاتقوا الله أيها الناس واخشوا عذابه ونذره، واعتبروا بمن سلف من الأمم، فكفى بأخبارهم عبرة، والعاقل من اتعظ بغيره، والحازم من تجنب سوء العواقب.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: ولقد يسرنا القرآن للذكر، أي جعلناه سهلا ميسورا للتذكر والاعتبار والاتعاظ، وللحفظ والفهم، لا يجد تاليه أو سامعه صعوبة في فهم آية الموعظة والادّكار؛ لأنه نسج على أحسن ما يكون التعبير فصاحة وبيانا، وكل كلام الله في الذروة من البلاغة والإعجاز والدقة في التعبير، إلا أن آيات الأحكام لا يفهم المراد منها إلا العلماء الراسخون في فهم الأساليب، العارفون بأصول التفسير وأصول الفقه، وفقه اللغة وأسباب النزول، فهم يفهمون محكمَه ويقفون عند متشابهه، ويردون علمه إلى الله: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُواْ الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧).

فالله تبارك وتعالى يمتن علينا في هذه السورة الكريمة بتيسير كلامه للذكر، ويحضّنا على التذكر ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فاقرءوا هذا القرآن قراءة تدّبر وتفكّر واعتبار، فهو ميسّر غاية التيسير لهذا الغرض، وميسّر للحفظ أيضا لسلاسة عبارته ووضوحها وحلاوة معانيه، فاقرءوا ما تيسر منه قراءة تدبر، واتعظوا به وادكروا ولا تستمعوا للذين يعقّدون على الناس تفهم كلام الله ويحاولون رفع مستواه عن فهم الناس، فذلك نوع من

وسوسة الشيطان يحاول صدّ الناس عن فهم كلام ربهم، يقول هؤلاء: إن كلام الله يقرأ للتبرك فقط لا للفهم، إن في قولهم هذا خطرا كبيرا في الصدّ عن الانتفاع بالقرآن وتعطيل أفهام الناس عن تدبّره والادكار بما فيه من الأمثال والنذر والزواجر.

يكرر الله تبارك وتعالى هذه الآية في هذه السورة أربع مرات، وفي كل مرة يحضّنا فيها على الادكار ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ وما ذاك إلا ليؤكد هذا المعنى في النفوس ويستنهض همم عباده المؤمنين إلى تدبّر القرآن والادّكار بآيات الذكرى والاعتبار، فكيف يزعم بعد هذا زاعم أن في فهم القرآن صعوبة أو عسرا وقد يسره الله تيسيرا، وذكر لنا ذلك وكرره تكريرا تشويقا لنا للادّكار وتلاوته تلاوة تدبّر وتفهّم واعتبار، وكم فتح الله له قلوب المشركين فتحولت حالهم من الشرك إلى الإيمان، وأخرج الله به أقواما من الظلمات إلى النور.

كَذَّبَتْ
عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا
صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ
مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾

يأتي الكلام في قصة عاد قوم هود على النمط الذي سبق في قصة نوح في إيجاز بليغ وإعجاز رباني بديع، وللإيجاز بهذه الصيغة المؤثرة له وقعه العنيف في النفوس يعجز الواصفون عن وصفه، وهنا تأتي تسمية قوم هود بعادٍ نسبة إلى جدّهم عاد بن شداد، وكانت قبيلة قوية ذات وفرة في البشر والأموال، وذات قوة في الأجساد، فلم تغن عنها وفرتها ولا قوتها لما جاءها أمر الله.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي﴾.

كذبت عادٌ رسل الله لما كذبوا رسولهم هود لأنهم أنكروا أن يكون رسول من البشر، ولم يذكر مفعول "كذَّبت" هنا ليفيد العموم فقد كذبوا الرسل وكذبوا بما جاءت به الرسل وكذبوا بالنذر.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي﴾.

الاستفهام للتشويق إلى معرفة نوع العذاب الذي عذّبهم الله به جزاء تكذيبهم وإعراضهم، وسيأتي وصفه وفيه إشعار بهوله وفضاعته، والمقصود به تخويف المكذّبين للرسل أمثالهم، قال الله تعالى:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٌّ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ، أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾.

تأتي الجملة مسندة إلى نون العظمة لتدل على شدّة وبطش سلطان الله الذي لا يغالب ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين، فقد أرسل الله عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر، ريحا قوية لها صرير، وفيها صر، أي برد مهلك لا تقوى على مقاومتها أجسامهم الضخمة القوية، ولا أبنيتهم الشاهقة، ولا أشجارهم الوافرة الوارفة، فهي تدمر كل شيء بأمر ربها، واستمرت عليهم هذه الريح سبع ليال وثمانية أيام حسوما في أيام نحسات أي مشؤومات، وأسند النحس هنا إلى يوم لأن استمرار العذاب على نمط واحد ثمانية أيام جعلها كاليوم الواحد الذي كان ظرفا لهذا النوع من العذاب، وهو يوم منحوس عليهم ومسعود على هود ومن آمن معه، فهو اليوم الذي نصرهم الله فيه على أعدائهم المهلكين وأنجاهم من مصيرهم المشؤوم.

ووصف الله هذه الريح أنها تنزع الناس نزعا، والنزع هو الاقتلاع بعنف وشدّة، ترفعهم إلى السماء ثم تصرعهم ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ، أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (الحاقة: ٧)، وهنا قال: كأنهم أعجاز نخل منقعر، شبه أجسامهم الطويلة

العريضة بأعجاز النخل المنقعرة التي تأكل جوفها، فهي جذوع خاوية لا لب لها، وكذلك أجسامهم حين تصرعهم الريح العاتية تنفلق بطونهم فترمي بما وعت فتبقى أجسادهم خاوية بالية، فما أبلغ التشبيه! إنه مطابق معبر عن حالتهم أصدق تعبير، وفي وصفهم بهذا الوصف عبرة للمعتبرين وزجر للكافرين ونذير للمكذبين، ينذرهم بمثل مصيرهم إن أصروا على كفرهم وتكذيبهم لرسولهم.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي﴾.

الاستفهام للتعجيب والزجر والتهويل، فانظروا أيها المعتبرون كيف حل عذاب الله بأعداء الله، وكيف صدقت أنباء نذر الله، وكذلك تكون عاقبة المكذبين، ويعظم مقت الله على الكافرين.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

نقول في هذه العبارة مثل ما قلنا في نظيرتها السابقة عقيب خبر نوح، فهل من مدّكر وهل من معتبر.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا
مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ
مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ
﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾
وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ
فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾

تأتي قصة ثمود قوم صالح، وفيها بعض البسط وتذكر خبر الناقة التي هي معجزة صالح عليه السلام، وفيها عبرة للمعتبرين، ومزدجر في عقوبتهم للمكذبين بالنذر المشاقين لرسل الله.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ، إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾.

سميت القبيلة باسم جدها ثمود وهم صالح وقومه كما سمي قومه هود باسم جدهم عاد، وقد كانوا من العرب خلفاء لعاد في جزيرة العرب إلا أن منازلهم كانت في الحجر بين المدينة وتبوك، أرسل الله إليهم أخاهم صالحا فكذبوه وتعلقوا في تكذيبه بثلاث شبه، شأن المكذبين لرسل الله، الشبهة الأولى: كونه بشرا مثلهم، الشبهة الثانية: واحدا لم ينزل معه الملائكة مقترنين، الشبهة الثالثة: كونه من سواد الناس وليس من عظمائهم، كما قالت قريش: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١).

وقد رد الله على هذه الشبهة كلها كما قصّ علينا في القرآن الرد على هذه الشبهة وغيرها، قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ...﴾ (الزخرف: ٣٢)، فالله وحده هو الذي يقسم رحمته بين عباده كيف يشاء كما قسم بينهم معايشهم في الحياة الدنيا والله أعلم حيث يجعل رسالاته، وهو الذي يجتبي من رسله من يشاء، ولا يكون الرسل إلى البشر إلا منهم، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ (الإسراء: ٩٥)، ثم إن الله أقام الحجة على عباده بتأييد رسله بالمعجزات كما آتى ثمود الناقة مبصرة وجعل رسله على جانب عظيم من الأخلاق القويمة، فهم ينشؤون في أقوامهم أمناء صادقين، يعرفونهم كما يعرفون أبناءهم، كذلك أوردت ثمود شبهها في صالح، وهي ليست بشيء.

﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ، إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ا.لْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ اَشِرٌ﴾.

قال الكفار من قوم صالح: أألقي الوحي على صالح من دوننا؟ تعجبوا واستعظموا أن يلقى الله ذكره على شخص من عامتهم وكذبوه فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ اَشِرٌ﴾ قالوا بل هو مدّع في قوله، كذاب أشر، والأشر هو الطغيان والبطر، يعنون إنه يريد أن يتعالى علينا بهذا الأمر ويطغى، رموه بالمبالغة في الكذب والطغيان وحب العلو، واستنكفوا عن اتباع دعوته ظلما وعلوا، وهم الآشرون لو كانوا يعلمون، قال تعالى:

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الاَشِرُ﴾.

سيعلمون قريبا من هو الكذاب الأشر، وقد يستعمل الغد في المستقبل القريب، أي سيعلمون يوم يأتيهم العذاب من الكذاب الأشر، يعلمون ذلك علم اليقين ولا ينفعهم علمهم يومئذ، والعبارة هنا جاءت للتهديد والوعيد، والمقصود بها كفار قريش ومن معهم لأنهم وصفوا رسولهم بالكذب، فخوفهم بعاقبة تشبه عاقبة قوم صالح، وهم الآشرون الذين أبطرتهم النعمة ولكن لا يشعرون، وكذلك شأن كثير من الناس تبطرهم النعمة ويطغيهم المال، قال تعالى: ﴿إِنَّ الانسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ (العلق: ٦- ٧)، وقد يحتمل أكثر الناس البؤس والفقر ويصبرون لهما ولكن قلّ من يحتمل النعمة ويشكر المنعم، ويتواضع ولا يطغى ولا يبطر. ثم قال تعالى:

﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ وَنَبِّئْهُمْ، أَنَّ الْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: إنا مرسلون على قوم صالح معجزة تكون آية لهم على صدقه، وهي ناقة عظيمة تخرج من صخرة وهم ينظرون ثم تكون هذه الناقة فتنة لهم يفتتنون بها، وذلك لأن نبيهم صالحا قال لهم: ذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء ونبأهم أن الماء قسمة بينهم وبينها فلها شرب يوم وحدها ولهم شرب يحضرونه في

يوم معلوم، وأنذرهم بعذاب الله إن مسوها بسوء، وفي هذه المدة أوحى الله إلى رسوله أن ارتقبهم أي راقبهم في امتثال هذا الأمر واصطبر على أذاهم وتكذيبهم وانتظر عاقبتهم، فنبأهم وحذرهم عاقبة العصيان فافتتنوا ولم يمتثلوا الأمر وكذبوا بالإنذار فكان ما كان من التمرد والشقاق.

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

لقد تمالأ قوم صالح على عقر الناقة ونحرها رغم تحذيره إياهم من عاقبة التمرد والعصيان، فلم يصدقوا بإنذاره فاتفقوا على الظلم فنادوا صاحبهم وهو أشقى القوم، وقد قيل: إن اسمه قدار بن سالف، ولا يهمنا أن يكون هذا اسمه حقا أم غيره إنما الذي يهم هو أخذ العبرة من القصة، فتعاطى أي فباشر هذا الشقي أسباب العقر فعقرها، قيل: ترصدها من فج كانت تمر به فرماها بالنبل في ضرعها فرغت فنزل فعقرها ثم نحرها، والعقر هو قطع قوائم البهيمة، وكان معها فصيلها فهرب إلى جهة الصخرة التي خرجت منها الناقة أول مرة فالتقمته الصخرة، وقيل إنهم ندموا بعد ذلك وذهبوا يعتذرون إلى صالح من فعلهم هذا فقال: ادركوا فصيلها فلم يدركوه فحقّت عليهم كلمة العذاب جزاء لهم على كفرهم وظلمهم، وأمر الله لابد واقع.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

هذا الاستفهام من الله جل جلاله للتعجيب والتفخيم والترهيب، أي فانظروا يا أولي الألباب كيف كان عذابي وصدق وقوع إنذاري، واعتبروا يا أولي الأبصار، وخافوا أيها الكفار وقوع مثله بكم إن استمر بكم العناد والتمرد والطغيان، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (البروج: ١٢)، أرسل الله عليهم في الموعد المحدد بعد ثلاثة أيام صيحة واحدة انخلعت لها قلوبهم وارتجفت أوصالهم فكانوا كهشيم المحتظر، والهشيم هو النبات اليابس المتهشم تحت أرجل الحيوانات في وسط الحظيرة، تهشم بقيته بأرجلها فتختلط بأرواثها، كذلك يبست أجسامهم بعد الصيحة العظيمة والرجفة العاتية فما

بقيت إلا صورا وهياكل لو يمسها أحد فإنها تتحطم وتتفتت كالهشيم، فأين ذهبت تلك القوة التي كانوا يطغون بها على صالح ومن آمن معه! حل بهم أمر الله في لمح البصر فإذا هي لا شيء، وإذا بيوتهم خاوية كأن لم تغن بالأمس، وكذلك مصير الطغاة الجبارين، فلا عدوان إلا على الظالمين، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾.

لله بلاغة القرآن، ففي اختصار قصة إهلاكهم إشارة إلى سرعة إنفاذ أمر الله فيهم، فما كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم صرعى جاثين على ركبهم بالية أجسادهم كالهشيم، تلك الأجساد التي كانوا يعتزون ويطغون بقوتها ويتمردون على أمر الله، إن هلاكهم كان كلمح البصر أو هو أقرب، وفي تشبيههم بهشيم الحظيرة المختلط بأزبالها إهانة لهم، وأي إهانة، فما أهونهم على الله! ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا فَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (الشمس: ١٤- ١٥)، فكأن أصوات الرعود والصواعق كلها جمعت في تلك الصيحة العاتية الراجفة بهم، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود: ١٠٢).

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

الذي نقول في تفسير هذه الآية الكريمة هو الذي قلناه في نظيرها عقب خبر نوح وقومه، وما أعظمه من تذييل يعقب الله به خبر أمة يهلكها الله تعالى بعد عصيانها وتمردها على أمر ربها ومشاقتها لنبيه، وهي آية فيها تحريض وتحضيض على الادّكار والاعتبار، ومن أراد الله به خيرا فإنه يدّكر ويرعوي عن غيّه.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا
كَذَالِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ
﴿٣٦﴾ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي
وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا
عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾

ثم تأتي قصة لوط وقومه في عبارة موجزة يبدو فيها وقع المقت والسخط أشد، إذ يبدأ فيها بذكر العذاب ونوعه قبل ذكر كفرهم، ونوع عصيانهم، وذلك لأن القصص القرآني ليس القصد منه سرد الحوادث سردا مرتبا حسب وقوعها الزمني، بل المقصود منها التخويف والزجر والاعتبار، ثم يتكرر فيها قوله تعالى: ﴿فَذُوقوا عَذَابي ونُذُري﴾، مرتين، وما ذاك إلا لمقت الله لما كانوا يفعلون من الخبائث بعد كفرهم وتكذيبهم بالرسل.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَالِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾.

لما كذبت قوم لوط بنذيرهم فكأنما قد كذبوا بجميع النذر لأنهم كذبوا بأصل الرسالة والنذارة، وقد هددوا لوطاً عليه السلام بالإخراج من أرضهم لأنه هو ومن تبعه أناس يتطهرون، فلشدة استهتارهم واسترسالهم في فعل الخبائث أصبح التطهر من الأدناس والأرجاس عيبا عندهم يتحامونه ويبغضون أهل الطهر والعفاف، وكذلك الارتكاس يهوي بأهله أسفل سافلين، ولما بلغوا هذه الدركة وتمردوا على رسولهم حقت عليهم كلمة العذاب فأرسل الله عليهم ريحا تحصبهم بحجارة من سجيل مسومة عند ربك للمسرفين، كان بها هلاكهم كلهم، وقلب الله عليهم أرضهم فجعل عاليها سافلها،

ونجى الله لوطا ومن آمن معه، نجاهم بسحر وهو الثلث الأخير من الليل، أمره الله أن يسري بهم سحرا وأخبره أنهم مهلكون صبحا، فخرج من أرضهم مهاجرا، قال تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾.

أي كذلك تكون عاقبة المؤمنين الشاكرين النجاة من عذاب الله في الدنيا والآخرة، فاتقوا الله واشكروا له يا أولي الألباب، ففي الآية إنذار وتخويف للكفار، وفيها تبشير لمن آمن بالله وشكر إنعامه وصبر على ذلك.

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

أكد الله الخبر بلام الخبر لأنه أمر عجيب أن يراودوه على أضيافه الكرام بعد أن خوفهم عقاب الله وأنذرهم بطشه فلم يردعهم ذلك، فما أن سمعوا بوفود أضيافه حتى أقبلوا إليه مهرعين تدفعهم الشهوة المستعرة كالمجانين يحاولون أن يفحشوا بهم ويدافعون لوطا ليخلي بينهم وهو واقف على باب داره ينهاهم ويقول لهم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ (الحجر: ٦٨- ٦٩)، وقد بسط الله خبرهم في سور أخرى من القرآن الكريم مثل: سورة الأعراف وهود والحجر وغيرها.

علم الله تسلط الشهوة الخبيثة على أنفسهم ففتنهم بأن أرسل ملائكة على هيئة شباب مرد صباح الوجوه فافتتنوا وأقبلوا مسرعين فضاق بهم لوط ذرعا وقال: هذا يوم عصيب، ففرج الله عنه غمّه وقال له الملائكة: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ (هود: ٨١)، فأشار إليهم جبريل عليه السلام بيده إشارة واحدة فطمس أعينهم، أي أذهبها وأعماهم فرجعوا يتخبطون وهم يقولون: ما رأينا أسحر من هؤلاء القوم، ولكن الله ألقى في روعهم أن هذا عقوبة لهم على إجرامهم وتكذيبهم بالنذر، وذلك قوله تعالى:

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

أي فذوقوا العذاب الذي هو جزاء لكم على تمردكم وتكذيبكم بإنذار الله الصادق الذي كذبتم به، فتحقق فيكم ثم قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

هكذا بلام القسم أيضا يؤكد الله خبر نزول عذاب الله عليهم بعد أن أنذروا فتماروا بالنذر، أتاهم العذاب بكرة عند إشراق نور الصباح، محاه الله عليهم فكان ظلاما مؤبدا وعذابا مستقرا ثابتا، لا دافع ولا رافع له، بل هو مستقر مستمر، متصل بعذاب الأبد ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ (غافر: ٤٦)، ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي﴾.

هكذا قال الله، وهكذا ألقى في نفوسهم أن هذا العقاب من الله جزاء لهم على تمردهم وتكذيبهم برسل الله ونذره، ولا شك أنهم علموا ذلك وندموا ولات مندم، ولكن في القصة عبرة للكافرين أمثالهم لعلهم يتذكرون.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

وللمرة الرابعة تتكرر هذه الآية في هذه السورة، وما أشد تمكّنها وأروع دلالتها في مثل هذا الموضع بعد عرض هذا المشهد الفظيع الذي تتجلى فيه عزّة الله وانتقامه من أعدائه الظالمين، ورحمته وحفاوته لأوليائه المؤمنين، فاقرأوا القرآن وادّكروا به واعتبروا يا أولي الأبصار، والذي نقوله في تفسير هذه الآية هو الذي قلناه في نظائرها من قبل، ومن أراد الله به خيرا فإنه يقرأ القرآن ويتدبره ويدّكر بذكره الميسّر المبين، وإنه لميسّر حقا فهل من مدّكر!

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا
فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ
أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ
الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ
﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ
وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾
وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا
أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي
الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ
فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

يقول الله تبارك وتعالى: ولقد جاءت النذر فرعون وآله، وآل الرجل أقاربه وبطانته ومن يسير في ركبه، والنذر جمع نذير، وهو الإنذار المتكرر من موسى وهارون عليهما السلام، أو جمع نذير بمعنى المنذر، ومن كذب بنذير واحد من نذر المرسلين فكأنما كذّب بجميع المرسلين، لقد كذب فرعون وآله برسل الله فلم يعبأوا بإنذارهم وكذبوا بآيات الله وهي المعجزات الخوارق الدّالة على صدق موسى وهارون، قال تعالى:

﴿كَذَّبُوا بِئَايَاتِنَا كُلِّهَا﴾ كذبوا بمعجزة العصا واليد والسنين، أي سنوات القحط والجفاف، وكذّبوا بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وبانفلاق البحر لموسى وقومه فلم يرتدعوا بهذه الخوارق البيّنات ولجّوا في عتوهم ونفورهم وإيذائهم لبني إسرائيل، ومضى على ذلك زمان أمهلهم الله تعالى فيه، فلما جاء أجلهم حقت عليهم كلمة العذاب الذي هو الغرق فعذاب النار، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ كَذَّبُوا بِئَايَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

الفاء للتعليل، أي لما كذبوا بآيات الله ونذره نفذ فيهم حكم الله فأخذهم بالعذاب الأليم أخذ عزيز مقتدر، أي أخذهم أخذا وبيلا فلم يفلتوا من قبضته وهو العزيز القهار الذي لا يغالب، المقتدر القوي الفعال لما يريد، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، فليعتبر المعتبرون، ولله أمثالها ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي الزُّبُرِ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾.

يوجه الخطاب إلى كفار قريش ومن معهم على أسلوب الالتفات ليكون ذلك أبلغ في وعظهم وإنذارهم، يقول الله تبارك وتعالى مخاطبا لقوم النبي الذين كذبوه ولكل كفار عنيد في كل زمان، أكفاركم يا معشر المكذبين خير من فرعون وقومه، وقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط، أم لكم براءة مكتوبة في الكتب المنزلة من السماء، أي هل أنتم مبرءون من عذاب الله وسخطه ولو كفرتم كما كفروا، وكذبتم كما كذبوا، وخضتم كالذي خاضوا "وهذا لعمري في القياس بديع" هذا مثل يضربه الله، فيه قياس محرج لهم لا يستطيعون دفعه، وقد علموا مصير الكفار المكذّبين بالرسل من قبلهم، ورأوا منازل المسخوط عليهم أفلا يعقلون!، ثم قال تعالى مردفا لهم توبيخا آخر قاطعا مزاعمهم واغترارهم بقوتهم:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾.

أم هذه للإضراب، أي بل أيقولون نحن جميع أي جماعة متحّدة متحالفة كثيرة العددِ والعُدد لن نغلب بل سننتصر، قال تعالى: سيهزم الجمع ويولون الدبر، أي سيهزم الله جمعهم ولو كثر وسيولون الأدبار منهزمين مدحورين، لا تنفعهم كثرتهم ولا تغني عنهم شيئا، وهذا إيعاد من الله لهم، وقد تحقق يوم بدر يوم الفرقان يوم التقى

الجمعان، جمع محمد ﷺ ومن معه من المؤمنين، وجمع أبي جهل ومن معه من الكافرين، وما كانوا يظنون يومئذ أنهم مقتولون ومأسرون ومهزومون، وقد تلا رسول الله ﷺ هذه الآية بعد أن صفف جند الله ودعا الله في العريش فخرج يثب في درعه ويقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر»، فكان الأمر كذلك، أنزل الله ملائكته من السماء تظاهر جند الله في الأرض، فقتل سبعون من صناديد قريش وأسر سبعون، وانهزم الباقون شر هزيمة ولله الأمر من قبل ومن بعد، والله لا يخلف الميعاد، فليعتبر المعتبرون، ثم قال تعالى:

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

يرد لفظ الساعة في القرآن الكريم ويراد به قيام الساعة الذي هو نهاية هذه الحياة الدنيا، وقد يراد به البعث والنشور والثواب والعقاب الخالدان، وهذا إطلاق عليهما بالغلبة، وكلا المعنيين للساعة مرادان هنا.

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

"بلْ" هنا للإضراب الانتقالي، أي ليس انهزام الدنيا عقوبتهم فحسب بل عقوبتهم يوم تقوم الساعة فينقلبون إلى عذاب الله المقيم، فإن الساعة تنتظرهم ولها موعد لن يتخلف، والساعة أدهى وأمر، والداهية هي المصيبة العظمى، وهنا جاء التعبير باسم التفضيل في الدهاء والمرارة، وهي عبارة عن شدّة العقوبة واليأس من النجاة، وقد عدل هنا عن الإضمار إلى الإظهار بلفظ الساعة ليكون ذلك أشد وقعا في نفوس السامعين، ولتجري الجملة مجرى المثل كما هو الشأن في هذه الجمل المحكمة المتتابعة في ختام هذه السورة، فلله ما أروع التعبير القرآن المعجز في إيجازه وبلاغته!.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

يتوعد هؤلاء الكفار المكذّبين بعذاب النار، يسحبون فيها على وجوههم، تلك الوجوه التي كانت تستنكف عن السجود لله والإقبال عليه بالدعاء والتضرّع والتذلل، ويخبر عنهم أنهم في ضلال وسُعر إلا أنه يعدل عن الإضمار إلى الإظهار ليلحق بهم وصفا آخر يستأهلونه وهو الإجرام، والإجرام أخو الكفر وصنوه، ولا يردع الإنسان عن الإجرام إلا الإيمان بالله واليوم الآخر، إن هؤلاء المجرمين في ضلال، وهو البعد عن طريق الهدى والوقوع في الحيرة والخسران، وهو أيضا في سعر، والسعُر جميع سعير، وهي النار الموقدة، فهم صالوها يوم القيامة، ويطلق السعر أيضا على الجنون ومزايلة العقل، وقد تقدم قليلا في هذه السورة الكريمة في قول قوم صالح: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ، إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ وكلا المعنيين في وصف هؤلاء الكفار وارد وصحيح، والمعنى الأول هو الأرجح لقوله تعالى:

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

فهم يكبون في النار كباً ويسحبون فيها على وجوههم، والسحب أشدّ نكالا وألصق بالذّل والهوان، ثم يقال لهم: ذوقوا مسّ سقر، أي أحسوا وتألّموا بصُليّ نار جهنم، وسقر اسم من أسماء جهنم، ذوقوا مس: سقر التي كنتم بها تكذبون.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

بعد عرض مشهد أصحاب النار في النار يقرر الله تبارك وتعالى حقيقة من حقائق الملك والملكوت وهي القضاء والقدر بمعناه الواسع فيقول جل من قائل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ يأتي الإسناد إلى نون العظمة، ومن أولى بالعظمة من الله؟ يقول الله تبارك: إنا كل شيء خلقناه بقدر، ومعناه إنا خلقنا كل شيء مخلوق بقدر يجري بمقتضى قوانين وموازين مقدرة له وبحكمة بالغة، ومن بين هذه الأشياء سقر التي أعدها الله لهؤلاء الكفار المجادلين لرسول الله، ولا يمنع نزول الآية في سبب خاص أن يجري معناها على كل المخلوقات، فما على العاقل إلا أن يتدبر في مخلوقات الله، ولا يزال العلم

يكشف عن أسرار مقادير المخلوقات ما يزيد المؤمن إيمانا، ويعطف قلوب غير المؤمنين على الإيمان، والعلم يدعو إلى الإيمان، ومن أحبّ الله أحبّ أن يطّلع على آياته.

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾.

المقصود بالأمر هنا هو الشأن أو الأمر التكويني، والمقصود به سرعة حصول الموجودات حسب إرادة الله تعالى في أوقاتها المقدرة لها، فما هي إلا كلمة واحدة "كن" أي تعلّق إرادة الله بتكوينها فتكون في أسرع من لمح البصر، وهو اختلاس النظر، وهو مثل بديع يضربه الله تعالى لسرعة الوقوع، وذلك كقوله في سورة النحل: ﴿وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ (الآية: ٧٧)، وفيه تحذير وإنذار لهؤلاء الكفار المكذّبين بالنذر والمتمارين بها، فليحذروا المثُلات التي نزلت بالذين من قبلهم، وليحذروا الساعة، والساعة أدهى وأمر، وقد جاءت الجملة تابعة للتذييل السابق، وفيها ما فيها من الوعيد، ثم يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَقَدَ اَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾.

أي حقا قد أهلكنا أمثالكم ونظراءكم في الكفر ولم يُعجزونا، فهل من يتذكر ويتّعظ بإهلاكهم، وما يؤمن المتأخرين أن يصيبهم من عذاب الله مثل ما أصاب المتقدمين، وسنة الله لا تتبدل ولا تتحول، والله قد أحاط بكل شيء قدرة وعلما.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾.

الجملة فيها مبتدأ وخبر، أي وكل شيء فعله هؤلاء الأشياع مكتوب في دواوين الكتب، جاء التعبير هنا بالزبر وهي الكتي حتى يطمئن السامعون إلى شمول التدوين، لجميع أفعال هؤلاء فهي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا تدونها وتحصيها.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾.

أي وكل صغير من أفعالهم وكبير مسطور في الدواوين، فلا يظنن أحد أن الصغائر تهمل لحقارتها وصغرها، بل كل شيء مدون محفوظ، وقد بدأ بذكر الصغير حتى لا يتوهم أحد أنه يهمل أو ينسى، وجاء الفعل مزيدا هكذا "مُستَطَرٌ" لتقوية المعنى في النفس، وهذه الجمل القصيرة المحكمة كلها تجري مجرى الأمثال، فلله ما أروع بلاغة القرآن!.

﴿اِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

هكذا تختم هذه السورة العظيمة بهذه الآية الكريمة التي نطقت بالوعد الصادق المؤكد بما يطمئن المؤمنين المتقين بحسن عاقبتهم عند الله وبما يشبع تشوقات النفوس المتطلعة إلى الوعد الحسن ونوعه بعد ذكر الوعيد بمصير المجرمين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ والقرآن مثاني، فختمت السورة بذكر مصير المتقين ليكون ذكره أوقع في نفوس السامعين.

﴿اِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾.

يؤكد الخبر أن المتقين الذين تزودوا بتقوى الله لآخرتهم، وخير الزاد التقوى أنهم في مقعد صدق يحمل صاحبه حقا، في جنات تجري من تحتها الأنهار مقيمين فيها إقامة دائمة مؤبدة، لا يبغون عنها حولا، مكرمين عند مليك مقتدر، والمليك بمعنى المالك الدائم الملك، وهو الله جل جلاله، والمقتدر هو القادر، والزيادة في المبنى دليل على الزيادة في المعنى، وهكذا تختم السورة بهذين الوصفين العظيمين الملك الدائم والقدرة المطلقة، فطوبى لمن كان له وليا ونصيرا، نسأل الله تعالى أن يجعلنا في معيته مع أوليائه المتقين والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الرحمن مدنية

وآياتها ٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ
(٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ
(٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ
(٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)
وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ
ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ
(١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ الْإِنسَانَ
مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن
مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦)
رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨)

السورة مدنية وآياتها ثمان وسبعون آية، نزلت بعد سورة الرعد، وتسمى سورة الرحمن باتفاق أهل العلم، وهي السورة الوحيدة التي فتحت بهذا الاسم العظيم

"الرحمن" وقد شرّفت بهذا الاسم الكريم، وجاء في الأثر أنها "عروس القرآن" وهي شديدة المناسبة بسابقتها، فقد ختمت باسمين عظيمين من أسماء الله الحسنى ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ وبدئت هذه بالرحمن، فهو المليك المقتدر الرحمن الذي برحمته نالوا هذه الرتبة الرفيعة في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وبتعلم القرآن اتصفوا بصفة التقوى التي استحقوا بها جوار ربهم الرحمن المليك المقتدر في دار كرامته.

﴿الرَّحْمَنُ﴾.

هكذا تنفرد هذه الكلمة بهذه الآية الأولى من السورة، وما أعظم وقعها في نفوس المؤمنين، فهي التي تملأ قلوبهم بالجلال والهيبة والوقار، وتفتح فيها باب الأنس والرجاء، وهو الاسم الذي يلي اسم الجلالة في البسملة، وقد جاء في الأثر «كل أمر ذي بال لا يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر»، وهو مروي عن النبي ﷺ.

﴿عَلَّمَ الْقُرْءَانَ﴾.

الآية الثانية من هذه السورة الكريمة يذكّرنا ربنا تبارك وتعالى بنعمة هي من أعظم نعمه علينا، وهي تعليم القرآن، هذا الكلام الحق المنزل من عندنا، ويقدّم تعليم القرآن على خلق الإنسان؛ لأن نعمة العلم أعظم من نعمة الإيجاد والخلق، ولولا علم القرآن وتعلمه لم تكن لنعمة وجودنا جدوى، فلا خير في وجودنا مع الجهل، فالله جل جلاله أتم علينا نعمته بتعليمنا القرآن، وذلك بتنزيله بلسان عربي مبين وتيسيره للذكر، وفتح قلوبنا وصدورنا لحفظه ووعيه وتفهّمه، وكل السعادة في تعلمه والعمل بما فيه، فهو الذكر الحكيم والصراط المستقيم.

﴿خَلَقَ الانسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.

خلق الله هذا الإنسان من طين وخلق نسلُه من سلالة من ماء مهين، وفي خلق الإنسان آية عظمى من آيات الله لمن يتفكر في آيات الله، وهو نعمة من أجلّ النعم لمن أطاع الله واتبع أوامره واجتنب نواهيه فيكون جزاءه الخلود في الجنة والفوز العظيم

برضوان الله جل جلاله، ومن عصى الله وأطاع الشيطان فقد كفر بنعمة الله وخسر الخسران المبين، ثم يذكرنا الله تبارك وتعالى بنعمة أخرى هي من أجل نعمه على الإنسان.

﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.

علّم الله الإنسان الإبانة والإفصاح عن مكنون ضميره والتعبير عن مراده ورغباته وانفعالاته وشعوره بطرق الإفصاح والبيان، وهذا البيان يمتاز به عن كثير من مخلوقات الله، فإن هذه الوحوش والبهائم والطيور والحشرات وإن كانت تتخاطب وتتفاهم فيما بينها بالنطق الذي أنطقها الله به غير أنها لا تملك البيان الذي علمه الله الإنسان، والذي تتسع دائرة تعبيره حتى تشمل كل حاجاته وتسع أنواع العلوم التي يدركها الإنسان، ولا يزال يتبحّر ويتعمّق في الغوص على أسرارها ومخترعاتها فسبحان الذي خلق الإنسان علمه البيان كما علمه الإبانة بالقلم الذي ينقل علوم الأوائل إلى الأواخر بكل دقة وأمانة ووضوح، وفي ذلك آيات للمتوسمين، وذكرى للذاكرين، وآلاء عظمى للشاكرين.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾.

قال ابن عباس: الشمس والقمر بحسبان، يعني يجريان بحساب ومنازل لا يتعديانها، وفي هذا عبرة للمتأملين وآية للناظرين الذين ينظرون بعقولهم، وقد ذكر الله الشمس والقمر وفي السماء ملايير النجوم والكواكب وكلها تجري بحسبان، ولكن ضرب الله المثل بالشمس والقمر لأنهما الآيتان البارزتان لكل الناس عالمهم وجاهلهم.

ونحن في أرضنا هذه التي نعيش عليها من توابع الشمس، أي تدور حولها وتتبعها، والقمر من توابع الأرض يدور حول الأرض وكل في حساب دقيق، وخط معلوم، وسرعة مطّردة، وكل الأفلاك كذلك ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠)، وفي الكون ملايير وملايير من النجوم المضيئة وأقرب هذه النجوم إلينا هي الشمس، وتقدر

المسافة بيننا وبينها بثمان دقائق بالسرعة الضوئية مع العلم أن الضوء يقطع ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة، أي ثمانية عشر مليون كيلومتر في الدقيقة الواحدة، وتقدر المسافة بنحو مائة وخمسين مليون كيلومتر، ثم إن أقرب النجوم إلينا بعد الشمس نجم تقدر المسافة بيننا وبينه بأربع سنوات ضوئية، ونحن في زاوية من زوايا هذه المجرة التي يسميها الناس طريق التبانين، وفي السماء مجرات كثيرة لا يعلم عددها على التحقيق إلا الله خالقها.

وقال العلماء: إن عدد النجوم في هذه المجرة يتجاوز المليار نجم، وقد جعل الله موازين دقيقة لحجم هذه النجوم وسيرها وجاذبيتها وقربها أو بعدها عن بعضها البعض، وما هذه الجاذبيّة إلا قدرة الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَآ إِنَ اَمْسَكَهُمَا مِنَ اَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾ (فاطر: ٤١).

ويقول علماء الفلك: لو أن الشمس اقتربت منا بعض الاقتراب لاحترق كل ما على الأرض من أخضر ويابس، وهلك كل ما فيها من حيوان، ولو أنها ابتعدت بعض البعد لجمدت البحار وهلك النبات والحيوان، وكذلك القمر وسائر النجوم يكون لاقترابها نتائج عكسية خطيرة ولم تعد تصلح هذه الأرض لحياة إنسان ولا حيوان ولا نبات، فسبحان الذي قدر لهذه الأفلاك سيرها وحسابها وبعدها وقربها، وفي ذلك آيات بيّنات للعالمين، وتبارك الله الذي قد أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا.

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾.

ذكر الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة سجود جميع ما أنبتت الأرض لربها، وسجودها خضوعها الكامل لله ربها يتصرف فيها كما يشاء إنشاء وإثمارا ونضجا وإماتة، وكذلك سجود ظلالها المتفيئة عن اليمين وعن الشمال، والنبات على صنفين: صنف له ساق وجذع، وهو الشجر، وصنف لا ساق له وهو النجم، فإذا كان النجم والشجر يسجدان لله ربهما فما أحرانا نحن العقلاء بالسجود لربنا وخالقنا ورازقنا،

ومالك أمرنا، ولكن كثيرا من الناس يتكبرون عن السجود لله رب العالمين، أولئك حق عليهم العذاب.

﴿وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾.

السماء هي هذه السبع الطباق التي فوق رؤوسنا، رفعها الله بغير عمد، رفعها بما يسميه العلماء بالجاذبية، وما هذه الجاذبية إلا قدرة الله تبارك وتعالى، وفي رفعها آيات لأولي الألباب، وهذا الرفع منه مادي وهو ما ذكرنا، ومنه ربيّ معنوي وهو رفع مقامها وحشوها بالملائكة الكرام يسبحون الليل والنهار لا يفتُرون.

وفي مقابلة الرفع بالوضع هنا روعة بلاغية يتذوقها أهل المعرفة بفنون البيان والبديع، السماء رفعها بقوته ورحمته ووضع الميزان بعدله، ميزان كل شيء في هذا الوجود، ميزان الأحجام، والقرب والبعد والدوران، والحرارة والبرودة، والجاذبية، والمد والجزر، وميزان المواد التي تتركب منها النباتات زروعها وحبوبها وثمارها، وموازين العناصر التي تتركب منها المياه الحلوة والمالحة، وموازين الهواء والسحب والرياح والأثير، والأوزون، وما علمناه وما لم نعلمه، مما نبصر ومالا نبصر ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ، بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: ٨)، وقد قدّم لنا ذكر الميزان في صنعه الذي أتقن كل شيء لنعتبر بذلك، ولنقيم الموازين القسط في معاملاتنا حتى لا نجور ولا نطغى، فقال جل من قائل:

﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾.

أي لا تتعدوا حد الاعتدال في الميزان، ومن عجيب أمر الإعجاز في كلام الله تعالى هذه المقابلة بين الطغيان والخسران، وذكر إقامة القسط بينهما، وهي التوسط والاعتدال كاعتدال لسان الميزان، فالطغيان هو التعدي بالزيادة والمجاوزة، والإخسار هو السرقة بالنقصان، وكلا الأمرين تطفيف، وقد قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ، أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾، والأمر بإقامة الوزن

إقامة إبرة الميزان ولسانه فلا نقص ولا زيادة إلا أن يحسن الوازن فيوفي ميزانه من عنده، وذلك هو العدل والإحسان اللذان أمر الله تعالى بهما، فليتق الله الوازنون في البيع والشراء، والأخذ والقضاء والاقتضاء، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ (الأحزاب: ٥٢).

ومثل الوزن الكيل والمسح وجميع ما يجري به التقدير والتقويم، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «بالعدل قامت السماوات والأرض»، ويقول الله تبارك وتعالى في سورة الحديد: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الآية: ٢٥)، ومن العلماء من تأول قوله تعالى: **﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾** تأوله بميزان يوم القيامة، لا تجعلوا ميزانكم يوم القيامة خاسرا بتهاونكم ومعاصيكم، وذلك لأنهم تسببوا بذلك في خفة موازينهم.

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

بين هذه الآية والآية السابقة التي يذكر فيها السماء بديع الطباق في مقابلة السماء والأرض، وفي مقابلة رفع السماء ووضع الأرض، وهذا الفن يعرفه أهل البلاغة، فبعد أن ألفتنا الله تعالى إلى آية رفع السماء يلفتنا إلى الآية الثانية وهي وضع هذه الأرض للناس وتذليلها لهم يمشون في مناكبها، ويحرثون ويبنون، ويركبون أثباج مياهها في فلك يمخر أمواجها، ثم إن الله يلفتنا إلى ما تخرجه الأرض من أنواع الفواكه اللذيذة الطعوم، المختلفة الأشكال والألوان، ويخص من بين الأشجار المثمرة لهذه الفواكه الكثيرة يخص النخل بالذكر فيقول:

﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾.

النخل هي هذه الشجرة المعروفة التي تنتج التمور والتي تنبت في المناطق المعتدلة التي تميل إلى الحرارة والجفاف، يخصها بالذكر لأهمية ثمرها واشتماله على عناصر

الغذاء المتكاملة ولذّة طعمها وليونة ثمرها، واحتماله للادّخار لسنوات وسنوات، فهو من أجل نعم الله على الأنام، وفي حشفه ونواه وجريده وشماريخه متاع للأنعام فهو كما قال الله فيه وفي سائر ما تخرج الأرض: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾، ويذكر الله في الآية حالة للنخل هي من أجمل حالات النخل وأبعثها للانتعاش والأمل في القلوب وذلك إذا كانت في طور الإخصاب حين تخرج أكمامها وهي جمع كم، والكم هو غلاف الطلع المنضود، ففي خروج هذه الأكمام إيذان بإثمار النخلة، فينبعث الأمل في قلوب الناس طمعا في نضاج ثمرها وإدراكه، وحين لا تخرج هذه الأكمام في موسمها يخيب الأمل ويحل الأسف محل الفرح، ففي الآية الكريمة إلفات إلى آية من آيات الله، وتذكير بنعمة من نعمه العظمى على الأنام.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثم بعد ذكر النخل الذي هو أكرم أنواع الأشجار وأعظمها بركة يأتي ذكر أنواع الحبوب التي تخرجها سنابل الزروع وهي أقوات للأنام والدواب والأنعام، ففيها وفي عصفها آيات للمتوسمين، ونعمة عظمى للشاكرين، وذلك أن الله تبارك وتعالى جعل لكل حبة تخرج في السنبلة غلافا من العصف أو قرنا حديد الشوكة يحميها من الطيور، وبعد حصادها يحميها من التسّوس إذا ترك في سنبله كما جعل لذوات القرون من القطاني قرونا تغلفها من العوادي والتلوث الذي يكون في الجو، فتبقى محفوظة موفورة نظيفة، فسبحان الخالق الرازق الرحيم الذي أتقن كل شيء صنعا، والريحان كل ما له رائحة طيبة من أنواع الزهور والرياحين، مثل الورد والريحان.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

فما أروع هذا التعقيب بهذه الآية بعد تعداد نعم الله الجُلّى على العباد، وقد جاءت هذه الآية في هذه السورة مكررة إحدى وثلاثين مرة، وجاءت بصيغة التثنية، والمخاطبون بها هم الإنس والجن على رأي جمهور أهل التفسير كما دلّ على ذلك ذكر

الجن والإنس مكررا في السورة، والغرض من هذا التأكيد إقامة الحجة بهذا الاستفهام التوبيخي للعباد الغافلين عن آلاء المنعم المدبر الحكيم، وتقرير لهم على الاعتراف بها وبعث لهم على شكر المنعم.

ولما نزلت هذه السورة تلاها رسول الله ﷺ على مؤمني الجن فكان جوابهم بعد كل استفهام من هذه الآية: «اللهم لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد ولك الشكر»، ثم تلاها رسول الله ﷺ على الصحابة فلم تكن منهم إجابة مثل إجابة إخوانهم الجن بل كانوا ساكتين منصتين، فقال لهم: لقد كان إخوانكم الجن أحسن مردودا، فقالوا: وما كان مردود إخواننا الجن؟ فأخبرهم بخبرهم فامتثلوا فقالوا مثل قولهم، ولذا فإني أرى في الموضوع رأيا ولم أره لأحد قبلي، أرى بعد ختم السورة أن نقول مثل ما قال إخواننا الصحابة من الإنس والجن: «اللهم لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد ولك الشكر»، وهذا نظير ما ورد بعد ختم سورة الملك عند قوله تعالى: ﴿قُلَ اَرَآيْتُمُ، إِنَ اَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَّاتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ (الملك: ٣٠)، نقول جوابا لهذا الاستفهام: "الله رب العالمين"، وكذلك ورد بعد ختام سورة "التين والزيتون" عند قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾، نقول: "بلى وأنا على ذلك من الشاهدين"، والآلاء هي النعم جمع آل وآلو، والتكذيب هو الجحود، ونعوذ بالله العظيم المنعم الرحيم أن نكذب أو نجحد نعمة من نِعمه علينا، فلك الحمد ولك الشكر على نعمك التي لا تحصى، وأجلها نعمة الهداية إلى دين الإسلام.

﴿خَلَقَ الانسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

قد أخبرنا الله تبارك وتعالى أن بدء خلق الإنسان من طين لازب ثم من حمإ مسنون، وهنا يخبرنا أنه من صلصال كالفخار وهو طور من أطوار خلقه ثم نفخ فيه من روحه فاستوى بشرا سويا، فسبحان الخلاق العليم، وتبارك الله أحسن الخالقين، وهنا

يخبرنا عن أصل خلقة الجان أنه من نار السموم، أي لهب النار الصافي الذي لا دخان فيه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

كررت الآية لتوبيخ الجاحدين للنعم والغافلين عن شكرها، ويقال فيها ما قيل في سابقتها.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

أي الرحمن هو رب المشرقين ورب المغربين، أي مشرق الشمس ومشرق القمر ومغربهما، وقيل: مشرق الشتاء والصيف ومغربهما، وللشمس مشارق ومغارب، وللقمر كذلك، ولذا جاء في آية أخرى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ (المعارج: ٤٠)، وفي تأمل هذه المشارق والمغارب المتنقلة عبر الأفق طوال العام عبرة للمعتبرين، وذكرى لأولي الألباب الذين يتفكرون في صنع الرحمن البديع، وفي نظام سير الفلك الدقيق، وفي هذا التحول للمشارق والمغارب رفق بالمخلوقات، ونِعم عظمى من رب الكائنات، ولذا حسن التعقيب بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، ويقال فيها ما قيل في سابقتها.

مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

مرج، أي أرسل البحرين البحر العذب والبحر المالح يلتقيان، يصب أحدهما في الآخر ولا يختلطان، بينهما حاجز من قدرة الله لا يبغي أحدهما على الآخر، وهذا من

بديع صنع الله الذي أتقن كل شيء، وفي هذا إلفات للعقول إلى التأمل في تركيب المياه وعناصرها، وفيه معجزة من معجزات النبوة، ولا يعلم هذا إلا الممارسون لخوض البحار والغوص في أعماقها، ولم يكن النبي ﷺ من ركاب البحر ولا من الغواصين الممارسين لخوض مياه البحار.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

فبأي نعمة من هذه النعم تكذبان يا معشر الجن والإنس.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يخرج من البحرين العذب والمالح اللؤلؤ والمرجان، أما اللؤلؤ فمن مصب البحر العذب في البحر المالح، وأما المرجان فمن البحر المالح، وهما الحلية التي امتن علينا بها في قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ (النحل: ١٤)، ولا يزال الناس يستخرجون اللؤلؤ والمرجان والجواهر من البحار، وهي من أعظم آلاء الله على عباده التي يقرُّ بها البر والفاجر، والمؤمن والكافر.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

فاللهم لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد ولك الشكر على آلائك التي لا تحصى.

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

نسب الجواري وهي السفن الجاريات على البحر إليه، لأنهن ملكه، ولأنه الذي سخرهن لذلك وأنشأ تلك المواد التي صنعت منها، وألهم عباده إلى تركيبها وبنائها وتسييرها بالرياح المرسلة والبخارية، فهن من أعظم نعم الله على عباده، تراهن في البحر كالجبال العالية محملات بالأثقال والآلاف من العباد أو الحيوان، وهن يمخرن عباب البحر يقطعن المسافات الشاسعة، يسيرهن البشر وهم عليها دود على عود،

فسبحان منشئهن وملهم العباد إلى تسييرهن، وفي ذلك التسخير آيات للمتوسمين ونعمى للشاكرين.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يقال في معنى الآية وفي الإجابة عليها ما قيل في نظائرها السابقة.

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ
رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ
﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ
﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ
اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا
لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾

يذكّرنا ربنا تبارك وتعالى بالفناء وأنه وحده الباقي لنستعد للقائه في دار البقاء بالتزود بالأعمال الصالحات.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

كل من على هذه الأرض من إنس أو جن أو حيوان في سبيل الفناء، وإنما غلب أداة العقلاء لأنهم المقصودون بالكلام ليعتبروا ويتزودوا من دار الفناء إلى دار البقاء.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾.

والمراد بالوجه الذات لأن الله تبارك وتعالى لا يوصف بالجوارح، لا بالوجه ولا باليد ونحو ذلك، فهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١)، ولهذا نظائر في كتاب الله، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ (الروم: ٣٩)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ (الليل: ١٩- ٢١)، أي ابتغاء الزلفى إليه تبارك وتعالى، ثم قال:

﴿ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾.

أي ذو العظمة والكبرياء، المتفرد بهما، وذو الإكرام، أي الذي يكرم أنبياءه وأولياءه بجواره في دار كرامته التي هي الجنة، والذي أكرم ملائكته والذي أكرم بني آدم في الدنيا وفضلهم على كثير ممن خلقه تفضيلا، وقد جاء عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام»، أي ألزموا في دعائكم بيا ذا الجلال والإكرام، فذلك أرجى لإجابة الدعاء.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يقال فيها ما قيل في سوابقها.

﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يسأله من في السموات والأرض، والسؤال هنا نوعان، سؤال بلسان المقال، وسؤال بلسان الحال، أي يحتاج إليه أهل السموات وأهل الأرض من ملائكة وإنس وجن وغيرهما من الدواب والطير والحيتان في البحار، لا يستغني عنه شيء من مخلوقاته طرفة عين، فهم محتاجون إلى إمداداته وأرزاقه وألطافه ورحمته.

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

الله جل جلاله يخبرنا أنه كل يوم هو في شأن من إحياء وإماتة، وقبض وبسط ورفع وخفض، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويشفي المريض، وينفس عن المكروب، ويفرج عن المهموم والمغموم، فهو في كل وقت في أمور يبدئها ويعيدها، وينشئها ويفنيها، وفي أحوال يبسطها ويطويها، وأحداث يحدثها ويقدّرها ويقضيها.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يقال فيها ما قد قيل في سوابقها، وفي تكرير هذه الكلمة تذكير للثقلين ليجددوا ذكر آلاء الله، وليشكروا المنعم فيجزيهم على شكرهم بما يجزي الشاكرين، جعلنا الله من الشاكرين.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

جاءت هذه العبارة للإنذار والتهديد، وإلا فإنّ الله جل جلاله لا يشغله شأن عن شأن.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾.

وقد أسند الفعل إلى السين التي هي للتقريب، وهي من الله لتحقيق قرب وقوعه، فكأنما واقع، والمقصود هنا أن الله سيخصص يوم الحشر للثقلين: الإنس والجن، ومحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم وأقوالهم ونياتهم واعتقاداتهم، ففي الآية تهديد عظيم وعظيم يعيه أولوا الألباب، والتهديد منصب على أعداء الله الذين يشركون بالله ولا يؤمنون باليوم الآخر، والذين يرتكبون كبائر الإثم ويصرون على الذنوب، وفيه وعظ وتذكير وتخويف للمؤمنين حتى يستعدوا لذلك اليوم ويتزودوا له، ويتأهبوا للقاء الله، والثقلان هما الإنس والجن، وسموا بهذا الاسم إما لثقلهم على الأرض أو لثقلهم بالذنوب والأوزار، أو لثقلهم معنويا، وقد يقال للشيء المعتبر شيء ثقيل، وينبغي أن

نتفكر جيدا في هذه الآية ونتعظ بها ونخاف وعيد الله ونستعد للقاء الله بالتقوى والعمل الصالح.

﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يقال في الآية ما قيل في سوابقها.

﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالانسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ، أَن تَنفُذُوا مِنَ اَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

بعد التهديد في الآية السابقة يأتي الشرط وجوابه الذي هو للتعجيز في هذه الآية، وبين الآيتين صلة وثيقة ومناسبة قوية، ففي هذه الآية يخاطبنا الله تبارك وتعالى: **﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالانسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ، أَن تَنفُذُوا مِنَ اَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾** المعشر يقال للجماعة الكبيرة التي تعد بالعشرات، والخطاب لجميع الجن والإنس يقول: إن استطعتم أن تنفذوا، أي إن استطعتم الهروب من أقطار السماوات والأرض أي من جهاتها الواسعة ولن تستطيعوا ذلك، فانفذوا، والنفوذ يقال للخروج من مضيق، يقال: نفذت الإبرة من الثوب، ففيه إشارة إلى إحاطة هذه الأقطار بنا من كل جانب، فلا سبيل إلى النفوذ منها، ثم قال:

﴿لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾.

أي لا تنفذون إلا بسلطان قاهر وقوة غالبة جبارة، وليس ذلك بأيديكم فأنتم أضعف من ذلك، وقدرة الله هي الغالبة والله من ورائهم محيط، وما هذا الطيران الذي توصل إليه الإنس والجن قبلهم إلا بتسخير من الله تعالى، هو داخل في إطار السماوات والأرض، وليس في استطاعة صواريخهم أن ينفذوا إلى خارجها، فما هي في بحر هذا الجو العريض إلا كالفلك في بحار الأرض مسخرة بأمر الله لا سلطان لها على النفوذ من أقطار السموات والأرض، ولن تقوى على ذلك مطلقا، ثم قال تعالى:

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

الخطاب دائما للجن والإنس، يقول الله تبارك وتعالى: يرسل عليكما شواظ من نار، والشواظ اللهب القوي الذي لا دخان فيه، والنحاس يراد به ذائب النحاس ولا يعلم إلا الله شدّة حرّه، يريد الله تذكيرنا وتخويفنا من عذابه المعد لأعدائه الكافرين الجاحدين لآلائه، المكذبين بيوم الدين، ثم قال:

﴿فَلاَ تَنتَصِرَانِ﴾.

أي فلا ناصر لكم ينصركم من دون الرحمن، ولا مفر لكم من عذابه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يقال فيها ما قد قيل في نظائرها السابقة.

فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً
كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن
ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾
يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾
يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

ينتقل الأسلوب القرآني البليغ إلى الإخبار عن شؤون يوم القيامة، فيحدّثنا الله تبارك وتعالى أولا عن حالة السماء عند قيام الساعة فيقول:

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾.

ذكر انشقاق السماء في غير موضع من القرآن وذلك عند قيام الساعة تنشق السماء وتنثر كواكبها وتكوّر الشمس أي يزول نورها، وهنا يصف لون السماء بعد حادث الانشقاق أنها تكون وردة ما بين الحمرة والبياض على لون الورد، وتكون كالدهان كدردي الزيت وهو المهل الذي ذكر في سورة المعارج، وقد ذكرت هذه الحوادث العظيمة الهائلة في أول سورة التكوير اثنا عشرة آية، وفي أول سورة الانفطار، وهنا وفي سورة الانشقاق، وفي سورة المعارج، وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم، وذلك قيام الساعة وفناء هذه الأكوان العلوية والسفلية، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، يوم الحشر وبروز الناس للحساب.

﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يقال فيها ما قيل في سوابقها.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ(فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

حين يبعثون من قبورهم يهطعون إلى الداعي، ويسرعون إلى الحشر، فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنسي ولا جني، لأن سيماهم في وجوههم، وربما يشكل على بعض الناس تأويل ما جاء هنا أن المجرمين لا يُسألون عن ذنوبهم، وما ورد في بعض الآيات أنهم موقوفون للسؤال، فذلك المنفي سؤال تعريف لأنهم معروفون بسيماهم، وهذا سؤال توبيخ وتبكيت ووعيد، وإلزاما للحجة عليهم، ففي يوم القيامة مواقف ولكل موقف حالة وشأن.

﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يقال فيها ما قيل في سوابقها، مع ملاحظة وقع هذا التكرار وتأثيره على أولي الألباب.

﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُوخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يعرف المجرمون يوم القيامة بسيماهم، أي أمارات وعلامات على وجوههم تلك يعلوها قترة وذلة وسواد وزرقة، وهي انعكاسات لما في قلوبهم من الفزع والخوف والروع؛ لأنهم والعياذ بالله قد أخبروا بشقاوتهم وما سيلقونه من الهوان والعذاب الأليم، فهم يومئذ مبلسون على وجوههم غبرة ترهقها قترة، أولئك هم الكفرة الفجرة، والملائكة يعرفونهم بسيماهم تلك فيأخذونهم بنواصيهم وأقدامهم ويسحبونهم سحبا، وأنى لمن يؤخذ بناصيته أن ينفلت أو يفر، وأنى لمن يؤخذ من قدمه أن يهرب، فما أضعفهم وما أحقرهم، وهم في أيدي زبانية غلاظ شداد.

﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يقال فيها ما قيل في سوابقها.

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ التِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

تأتي كلمة الإجرام مكررة، والقصد من التكرار تكريه الإجرام إلى نفوس المستمعين وتفظيع عاقبته حتى يحذر المؤمنون، ويوم يحشر المجرمون يقال لهم: هذه جهنم التي كنتم بها تكذبون، وهي محيطة بهم، وهم يعلمون أنهم صالوها قريبا، وأنهم يطوفون بين نيران جهنم وبين أوديتها التي هي الحميم الآن، أي البالغ أقصى درجات الحرارة مع ما في أودية الحميم من شدة النتن والخبث لأنها عصارة أهل النار، فهي السيول التي تخرج من بطونهم بعد انصهار أمعائهم وجلودهم، فهم بين صليّ النار وسقي حميم آن، والطواف هنا ليس هو الدوران بل هو التنقل بين شيء وشيء، والتردد بين حالة وحالة كما جاء التعبير في السعي بين الصفا والمروة بالطواف، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ

يَّطَّوَّفَ بِهِمَا...﴾ (البقرة: ١٥٨)، وفي الآيات تصوير فظيع لهول ما يصير إليه المجرمون يوم القيامة، والعذاب الشديد الذي ينتظرهم وهم صائرون إليه وخالدون فيه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يقال فيها ما قيل في سوابقها، مع العلم أن من أعظم نعم الله على المؤمنين تنجيتهم من عذاب جهنم وإلقاء أعدائهم الذين كانوا يؤذونهم في الدنيا بين أطباق النيران، وفي أودية الحميم، ومن نِعم الله تخويفنا من عذاب النار وإنذارنا حتى نتقي الإجرام الذي يؤدي إلى عذاب الله، ونتوب إلى الله قبل فوات الأوان، ثم بعد هذا العرض الفظيع لأهوال يوم القيامة وأحوال أهل الشقاوة فيها يتحول التعبير القرآني البديع إلى عرض أحوال أهل الجنة الأبرار المتقين، ويطول الكلام في بيان جزائهم الحسن إلى ختام السورة فيقول ربنا تبارك وتعالى:

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا
عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ
فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ
فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ
إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾
كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

على طريقة القرآن البليغة في مزج الوعد بالوعيد، والتبشير بالإنذار يأتي ذكر مصير أهل السعادة المتقين بعد ذكر أهل الشقاء المجرمين، ويبسط الكلام في جزاء أهل السعادة أكثر تنويها بشرف أهل التقوى، ومبالغة في إكرامهم وتشويقا لنفوس المؤمنين إلى سلوك طريقهم ولزوم جماعتهم، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

أعد الله لمن خاف ربه جنتين، وهذا المقام هو يوم قيام الناس بين يدي ربهم للحساب، فمن آمن بهذا المقام وخافه ينهى نفسه عن هواها ويترك الشهوات المحرمة، ويفعل الطاعات، ويؤدي الفرائض، ويسارع في الخيرات، لأن الخوف نعم الرادع للنفس عن هواها، ونعم الرقيب لها، وكذلك الرجاء نعم القائد والباعث لها على إتيان الطاعات، ومن العلماء من يفسر هذا المقام بأنه قيام الله على كل نفس بما كسبت، فهو يخاف رقابة الله عليه، فلا يأتي من الأفعال والأقوال والأخلاق إلا بما يرضيه، ولا تناقض بين المعنيين، بل بينهما توافق، ولا مانع أن يرادا جميعا، فهو يخاف مقام ربه، أي قيامه بين يديه للحساب يوم القيامة، ويخاف قيام الله في الدنيا فيستقيم في سلوكه وينهى النفس عن الهوى، وتأتي كلمة الجنة هنا مثناة، وفي مواضع أخرى من القرآن تأتي بالجمع وبالإفراد، والله أعلم بمراد التثنية هنا، ولعله مقابلة بين أهل السعادة الذين يتنقلون بين الجنتين وبين أهل الشقاوة الذين يطوفون بين النار وبين الحميم الآن، ليتم الإنذار والتخويف والتبشير والتشويق.

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾.

أي هاتان الجنتان ذواتا غصون رطبة تحمل أوراقا خضراء تكاد تقطر بالحيا، وثمارا يانعة دانية القطوف، فهذه الأفنان تجمع بين جمال المنظر ووفرة الظلال وكثرة الثمار.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾.

أي في الجنتين نهران يجريان، وهذا أضمن لبقاء اخضرارهما، وأروع في رُوائهما وجمال منظرهما.

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾.

في الجنتين أنواع الفواكه والثمار، ومن كل فاكهة زوجان، أي نوعان، ولعل المراد بالتثنية هنا الكثرة كما جاء في سورة الواقعة: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾ (الآية: ٣٢- ٣٣)، وجاء في سورة البقرة: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ (الآية: ٢٥)، والذي يقال في قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ هو ما قيل من قبل في نظائرها، ثم قال تعالى:

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنِ اسْتَبْرَقٍ وَجَنَا الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

جاء التعبير هنا بالاتكاء وهي حالة بين الاضطجاع والقعود، فيها الراحة الكاملة وذلك ليدل على كمال نعيم أهل الجنة وخلو بالهم من الهموم والأشغال، فهم على سرر مرفوعة، عليها فرش وثيرة، بطائنها من استبرق وهو نوع من الديباج الغليظ الناعم اللين البديع المنظر، فهم عليها متكئون مزوجون بالحور العين، وبين أيديهم موائد فيه ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم، وهذه الأرائك منسوجة بقصب الذهب مزخرفة بالجواهر واللآلئ، عليها فرش بطائنها الاستبرق، وبطانة الشيء داخله مما يلي الباطن، ثم قال تعالى:

﴿وَجَنَا الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾.

أي وثمارها وأشجارها ونخيلها دانية لهم في متناول أيديهم، وليست كثمار الدنيا تكون صعبة الجني، يحتاج الخارف إلى طلوع النخلة، فهو يتعب بذلك وقد يتعرض للسقوط فيتهشم أو يموت، أما ثمار الجنة فهي مذللة كلما أرادوها دنت لهم، والله على كل شيء قدير.

﴿فَبِأَيِّ ءَالآَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يقال فيها ما قيل في نظائرها.

﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ فَبِأَيِّ ءَالآَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثم أخبرا الله تبارك وتعالى أن على هذه الفرش أزواجا من الحور العين، قاصرات الطرف، أي حابسات نظر عيونهن على أزواجهن، حُباً لهم وإعجابا بهم، غير ناظرات إلى غيرهم، وهذا من أعظم أوصاف المدح لهن ولأزواجهن، ولتمام النعمة عليهم قال:

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ﴾.

أي لم يمسسهن إنسي قبلهم ولا جني، فهن أبكار مخلوقات لهم، خالصات لأزواجهن.

﴿فَبِأَيِّ ءَالآَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يقال فيها ما قيل في نظائرها.

﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾.

كأن نساء الجنة في صفائهن وبياضهن وحمرتهن الياقوت والمرجان، وقد تقدم ذكر الياقوت والمرجان في هذه السورة، وهما من الحجارة الكريمة التي تستخرج من البحر، ويتخذها الناس حلية، وتباع بأثمان غالية، ويشبه الناس ما كان حسنا جميلا بهما، ووصف الحور العين وتشبيههن بهما كلام خالقهن وليس من مبالغات الشعراء، فلا يعلم إلا الله مقدار حسنهن ونضارتهن وصفائهن، كيف لا وقد خلقن من مسك الجنة وغذين بنعيمها، وبُرئن من أدران أهل الدنيا، وهمومهم وغمومهم وأحزانهم.

﴿فَبِأَيِّ ءَالآَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يقال فيها ما قيل في نظائرها.

﴿هَلْ جَزَآءُ الاِحْسَانِ إلاَّ الاِحْسَانُ فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ما أعظم وقع الآية على قلوب المؤمنين المحسنين، فهي شكر من الله لهم وتقدير لإيمانهم وإحسانهم، والله غفور شكور، وإلا فماذا يكون إحساننا المنقطع القليل بجانب إحسان الله العظيم الدائم، والإحسان إحسانان، إحسان في العمل الذي يقوم به المؤمن فيما بينه وبين ربه، وإحسان إلى الغير وهو فعل الخير كَبِرٍّ الوالدين والأولاد، والإحسان إلى الأزواج والمعاشرين والجيران، واليتامى، والتيسير على المعسرين، والتفريج عن المكروبين، ورحمة الضعفاء والمصابين، والله لا يضيع أجر المحسنين.

وفي الآية حث وتحريض على الإحسانين: إحسان العمل في العبادة وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وإحسان إلى الناس وفعل الخير لهم، والاستفهام هنا للنفي، ولذا صح بعده الاستثناء بإلاَّ، ويراد به حمل المستعين على التوقيع على المعنى، وهو أنه لا يكون جزاء المحسنين إلا الإحسان عند أهل العقول الحصيفة، والفطر السليمة، ويراد به حمل المستمعين على إقرار ألا يجازى المحسن بغير الإحسان، ومن أوفى بعهده من الله، فقد تعهد أن يجازي المحسنين بالحسنى وزيادة، فالآية دعوة عازمة قوية إلى الإحسان وبشرى للمحسنين.

﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يقال فيها ما قيل في نظائرها.

وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾
فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾

فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾
فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ
مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾
لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

آيات بديعة في عرض أحوال أهل الجنة ختمت بها السورة، وهي شديدة المناسبة لافتتاحها بعد خواتم سورة القمر كما هي شديدة المناسبة لما يأتي في وصف أحوالهم في أوائل سورة الواقعة التي تلي هذه السورة، وهكذا تتناسق سور القرآن كالحلق المتماسكة في سلسلة ذهبية.

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ومن دون الجنّتين المذكورتين بأوصافهما جنتان أخريان لمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، قال بعض المفسرين: ومن دونهما أي ومن غيرهما، والجنات الأربع كلها لكل واحد من أولياء الله المتقين، إنما ذكرتا بعد الأوليين لتنوع أصناف الجنتين، وقال آخرون - وهم الأكثرون- وروي هذا عن ابن عباس: أن الجنتين الأخيرتين دون الجنتين الأوليين وهما لصنف آخر من المؤمنين هم أدنى درجة من أصحاب الجنتين الأوليين، فكأن الأخريين لأصحاب اليمين، والأوليين للمقربين، كما سيأتي ذكر هذه الطبقات في سورة الواقعة، وإلى هذا الرأي أميل لا سيما وهو مروي عن ابن عباس، ويصف الله تعالى هاتين الجنتين بأوصاف حسنة منها قوله:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يقال فيها ما قيل في نظائرها.

﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾.

أي يميل منظرهما إلى السواد لشدة ريّها ورووائهما، ومن ذلك قولهم سواد العراق لأراضي النخيل والأشجار المسقية من نهري دجلة والفرات، فهي تظهر للقادم من الصحراء مدهامة فسموها السواد.

﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يقال فيها ما قيل في نظائرها.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

النضخ هو الفوران من الأرض بقوة وغزارة، وفيها أي في العين النضّاخة جمال وروعة ومتعة، أي متعة، فهي كثيرة النضخ لا تنقطع، ولا تفتر، وبعد النضخ تجري أنهارا بين النخيل والرمان فتعطيها الحياة والرواء، والنضارة والبهاء، وتمتد ظلالها حيث يثوي أولياء الله المتقون، ويتجولون بين سطورها وقصورها، فسلام عليهم ونعم عقبى الدار.

﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يقال فيها ما قيل في نظائرها.

﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

في هذه الجنات ما لذّ وطاب من الثمار، وقد ذكر هنا الفاكهة وأطلقها بكل أنواعها، ما يعرفه الإنسان وما لا يعرفه، وخص بالذكر النخل والرمان، كما سبق وأن ذكرنا أن النخل له فوائد عظيمة، في كل شيء منها من حشف ونواه وسعف، متاعا للإنسان والأنعام، وكما خص الرمان بالذكر فلا شكّ أن الله عز وجل لا يخص شيئا بالذكر إلا لما فيه من فوائد كثيرة وقد اكتشف العلم ولا يزال ما في هذه الثمار من منافع.

﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يقال فيها ما قيل في نظائرها.

﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ فَبِأَيِّ ءَالآَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

في الجنات الأربع الموصوفات بهذه الأوصاف البديعة خيرات حسان، أي نساء حور عين خيّرات النفوس، فاضلات الأخلاق، حسان الوجوه، بديعات جمال الخلقة، أنشأهن الله من مسك الجنة، وجعلهن أبكارا عربا أترابا، فهن قرة أعين لأزواجهن، وهم قرة أعين لهن، والحور هن البيض، والعين هن الواسعات العيون، الشديدة بياض بياضها، وسواد سوادها، والضد يظهر حسنه الضد، وقد وصفهن قبل كأنهن الياقوت والمرجان، ووصفهن هنا بوصف رائع يدل على كمال كرمهن وصيانتهن.

﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ فَبِأَيِّ ءَالآَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

أي مقيمات في الخيام لا يبرحنها، لا إقامة احتباس، بل إقامة صيانة وكرامة وطمأنينة ورضى، والخيام بيوت في الجنة من لؤلؤ يرى ظاهرها من باطنها لا يعلم إلا الله ما أخفى لأوليائه فيها من المتعة والكرامة وقرة أعين.

﴿فَبِأَيِّ ءَالآَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يقال فيها ما قيل في نظائرها.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ فَبِأَيِّ ءَالآَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

تقدم معنى الطمث وهو أنهن أبكار لم يسبق أن مسهن إنس قبلهم ولا جان.

﴿فَبِأَيِّ ءَالآَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يقال فيها ما قيل في نظائرها.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ فَبِأَيِّ ءَالآَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

تقدم الكلام في معنى الاتكاء ودلالته، والرفرف الطنافس والنمارق التي لها حواشٍ من حرير تفرش على الفرش الكبيرة، يجلس أو يتكئ عليها الجالس المنعم فتزيده راحة، ووُصفت باللون الأخضر لأنه اللون التي يختص به الملوك عادة، وهو

لون يبعث السرور والراحة في نفس الناظر، وهو لون الرياض الخضر البهيجة، ووصفت بالحسن، ولا يعلم إلا الله مقدار حسنها والرونق الذي تتحلى به، فهم وأزواجهم يتكئون على هذه الرفارف العبقرية، وقد اعتاد العرب في تعبيرهم إذا وصفوا الشيء البالغ منتهى الحسن والرونق الفائق الوصف أن يصفوه بالعبقري، وقد قيل إن أصل هذا نسبة إلى مدينة من الجن تسمى عبقر، والتعبير القرآني يجري على الأسلوب الذي اعتاده العرب، فقد أنزله الله بلسان عربي مبين.

﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يقال فيها ما قيل في نظائرها.

﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾.

تبارك، أي تعاظم اسم ربك ذي الجلال، ذي العظمة والمجد والملك، والإكرام الذي يكرم أولياءه، والإكرام الحقيقي الدائم هو إكرام الله رب العالمين، ونسبت البركة إلى اسم الله، والمراد به ذات الله، وجاء في موضع آخر: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤)، ولعل المراد بهذا الاسم هو الاسم الذي ابتدئت به السورة وسميت باسمه، وهو "الرّحمن" والبركة هي عموم النفع وعظمة الخير ودوامه، فتبارك اسم ربك يا محمد ويا تالي القرآن الذي يتدبره ويعمل بما فيه، نسأل الله أن ينزل علينا بركته ويديم علينا نعمه، ويغمرنا برحماته، ويؤتينا من فضله، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الواقعة مكية

وآياتها ٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ
(٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥)
فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ
الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ
الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١)
فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤)
عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦)
يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن
مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ
(٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ
الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا
وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦)

اختلف القراء في تعداد آيات هذه السورة، فمنهم من قال: هي ست وتسعون، وآخرون يقولون هي سبع وتسعون، وآخرون يقولون: ثمان وتسعون، واتفقوا على أن اسمها الواقعة لابتدائها بذكر الواقعة، والواقعة هي قيام الساعة، سميت بذلك لأنها لابد واقعة لا ريب في وقوعها ليس لوقعتها كاذبة، أي حين تقع ليس أحد يكذب فينكر وقوعها، حينئذ فلا مكذب بوقوعها، وفتحت السورة بإذا الشرطية وهي لما يستقبل من الزمن، وأبهم جوابها لتذهب النفس مذاهب في تصور هول الواقعة، وليتذكر المشفقون من وقوعها، كل ما ورد في القرآن من أوصافها كالذي في سورة الحج وما جاء في سورة الزمر، وما جاء في سورة طه، وما جاء في سورة القيامة، وما جاء في سورة التكوير، وما جاء في سورة الزلزلة، وفي غيرها من سور القرآن.

وقال بعض المفسرين: إن هذه صلة وليست شرطا فهو إخبار بوقوع الواقعة كأنْ قد وقعت كما جاء في أول سورة النحل ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ...﴾ الآية، وقال آخرون: جواب هذا الشرط ما يأتي في قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ...﴾ الآيات، وهكذا تقوى المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها، فبعد قوله تعالى في أواخر سورة القمر: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ...﴾ الآيات، ووصف أهوال يوم القيامة وأحوال أهل النار وأهل الجنة في سورة الرحمن يأتي تفصيل ما أجمل هناك في هذه السورة، وربما يبسط هنا ما طوى هناك من بعض الأحوال، وهكذا تتكامل السورتان في أسلوب عجيب، له تأثير في قلوب المستمعين، وهذا من تصريف الآيات الذي جاء ذكره في غير موضع، وقد يؤثر في بعض الناس نوع من التعبير بينما يؤثر النوع الآخر في البعض الآخرين كما تفعل الأغذية والأدوية في الأجساد.

ثم يصف الله الواقعة بهذين الوصفين: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ فهي تخفض أناسا أسفل سافلين في دركات الجحيم وترفع أولياء الله في عليين في درجات الكرامة في جنات

النعيم، تخفض الجبابرة العتاة الذين كانوا متعالين في الدنيا فتذلهم يومئذ، وترفع ناسا صالحين كانوا مقهورين محقورين في الدنيا، وقال بعض أهل التفسير: إنها تخفض مواضع من الأرض كانت جبالا فتذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، وترفع مواضع من الأرض كانت أغوارا وبحارا فتُسوّى الأرض وتمد مد الأديم، ولا مانع من إرادة المعنيين والوجوه لا تتزاحم.

﴿اذَا رُجَّتِ الارْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثًّا وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاَثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

يذكر الله تعالى وصفا رهيبا للأرض وجبالها عند قيام الساعة، وذلك أن الأرض ترج، أي تتحرك حركة عنيفة فيها اضطراب وزلزال بحيث تتفتت أجزاءها إلى ذرات، وتنفصل عنها جبالها المرساة التي كانت أوتادا لها.

﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾.

أي صارت صخورها الصلبة ذرات كدقيق البسيسة الناعم.

﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثًّا﴾.

فكانت هذه الجبال هباء منبثا متفرقا متطايرا تمر مرّ السحاب كما وصفها الله تعالى في موضع آخر من القرآن، والهباء هو الذرات المتطائرة في الجو، فهي لا ترى إلا في عمود من نور الشمس يدخل من كوّة صغيرة في بيت مظلم، ذلك هو الهباء المنبث، كذلك تصير الجبال الرواسي، وجاء الوصف بصيغة الماضي لتحقق وقوه كما أكد بالمصدر بعد الفعل في الرج والبس لقصد المبالغة فيه فلا يبقى جزء من الأرض ولا من جبالها متماسكا مهما صغر لأن هذه الجاذبية بين ذرات الأرض إنما كانت بإمساك قدرة الله فإذا زالت بقدرة الله وأمره، تفتت فصارت هباء منبثا وفنيت بأمره، وهذا الفناء يشمل

الأرض والسموات وذلك هو قيام الساعة، وبعد الفناء يكون الحشر يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات، قال تعالى:

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاَثَةً﴾.

أي وكنتم أصنافا ثلاثة يا معشر الجن والإنس، والخطاب للجميع.

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

ثم بعد ذكر أهوال الفناء يذكر الله تبارك وتعالى حالة الناس يومئذ وأنها تنقسم إلى ثلاثة أصناف وهم أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة، والسابقون، ويأتي الوصف هذه المرة على هذه الصيغة العجيبة المؤثرة.

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾.

أصحاب الميمنة هم السعداء الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم واليُمن هو السعد كما أن العكس وهو الشمال ينسب إليه الشؤم والنحس، فالناس يومئذ فريقان فريق هم أصحاب الميمنة وفريق هم أصحاب المشأمة، ومن أصحاب الميمنة يخصص السابقون بالدرجات العلا وبالقرب، وقد جاء الخبر في صيغة الاستفهام والإبهام، وفيه ما فيه من التفخيم والتهويل لتذهب النفس في تصور مصيرهم العظيم مذاهب، فكأنه لما قال:

﴿مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾.

أيُّ وصف يوفي تصوير حالهم المرضية، فليس هناك تعبير يحيط بذلك، فليكن الإبهام خير معبر، وما يقال في إبهام الاستفهام في أصحاب الميمنة يقال مثل ذلك في أصحاب المشأمة، فأيُّ وصف يحيط بما هم فيه من العذاب والإهانة والإبلاس في سخط الجبار.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

يأتي ذكر الصنف الثالث مؤخرا في الذكر وهو الأقرب عند الله والأعلى منزلة، ويأتي وصفهم مكررا ويراد بالتكرار التفخيم، فكأنه لا وصف يعبر عن حقيقتهم إلا وصف السبق هناك يوم القيامة، وكثيرا ما يأتي هذا النوع من التكرار المعبر في كلام البلغاء، فقد قال الشاعر:

أنا أبو النجم وشعري شعري

وقال آخر:

وإني من القوم الذين هم همُ

ولا مانع أن يراد مع سبق هؤلاء في الدنيا إلى أعمال الخير، فيقال: والسابقون يوم القيامة إلى الدرجات العلا هم السابقون في الدنيا إلى أعمال البر والإحسان.

﴿أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

جاء الخبر معرفا ليكون أبلغ في الوصف وأدل على المقصود، فكأنهم الفائزون وحدهم بالتقريب والزلفى والدرجات العلى، والتقريب هنا تقريب مكانة لا تقريب مكان إلا أن يراد تقريبهم في درجات الجنان، كما قال تعالى: **﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾** فهم مقربون في جنات النعيم جنات كثيرة لا جنة واحدة، وهم فيها منعّمون بأنواع النعيم، مخلدون مقيمون فيها لا يبغون عنها حولا.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾.

الثلة هي الجماعة، ويطلق على الجماعة الكثيرة، ولا يقال للقلائل ثلة، فالسابقون هؤلاء جماعة كثيرة من الأولين وقليل من الآخرين، وما المراد بالأولين والآخرين، هل هم من هذه الأمة أو من الخلائق كلهم؟ قال فريق من العلماء: هم جميعا من هذه الأمة أمة محمد عليه السلام، فالأولون هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والآخرون من يأتي من بعدهم حتى تقوم الساعة، وقال فريق آخر منهم: بل الأولون والآخرون من جميع الخلائق، فالأولون هم أتباع الرسل والأنبياء الذين تلقّوا الأذى

معهم وصبروا وما وهنوا لما أصابهم وما ضعفوا وما استكانوا، والآخرون هم هذه الأمة، وهذا القول هو الذي أميل إليه وأرجحه لما سيأتي في أواخر هذه السورة: ﴿قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ...﴾ الآيات، وهو الظاهر من معنى الآية الأولى الموافق لهذه الآية، ولأتباع الرسل الذين تحملوا معهم ما تحملوا من الأذى.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

تعرض علينا هذه الآيات الكريمة مشهدا من مشاهد السابقين المقرّبين في الجنة وهم متكئون في مجالسهم على سرر مرفوعة منسوجة بقصب الذهب الإبريز مبطّنة بالاستبرق، وهم متقابلون في مجالسهم لأنهم متحابون متصافون، قد نزع الله ما في صدورهم، والاتّكاء يدل على النعيم والرفاهية، فهم في راحة وسرور، قد أذهب الله عنهم الحزن وأعفاهم من الأتعاب والمسؤوليات، فهم غير مطالبين بها، فهم كما قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (المطففين: ٢٤)، وفي هذه المجالس يُمتعون بأنواع المآكل والمشارب.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾.

يطوف عليهم ولدان مخلّدون أي يسعون مترددين في خدمتهم قد جعلهم الله خدما لهم، وهم ولدان حسان الوجوه إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا، وهم مخلّدون، أي باقون على هيئتهم البهيّة، لا يمسهم اللغوب ولا تلفحهم الشمس ولا يشيبون ولا يكتهلون، بل هم دائما ولدان كأنهم لؤلؤ مكنون، وقد روي في الخبر أنهم أطفال

الكفار يجعلهم الله خدما لأهل الجنة فهم يطوفون على أولياء الله بأكواب وأباريق وكأس من معين، والكوب هو القدح الذي لا عروة فيه ولا خرطوم، والإبريق هو الذي له يد وخرطوم، والكأس هو القدح الملآن بالشراب، فهي كؤوس وأكواب وأباريق من ذهب ومن فضة، لها بهاء ورونق مليئة بالشراب من أنهار الجنة من الماء والخمر واللبن والسلسبيل والزنجبيل والكافور، توضع بين أيديهم في مجالسهم.

والمعين كل ما يجري عيونا وأنهارا على وجه الأرض وإن كان المقصود به في هذه الآية هو خمر الجنة الذي يمتاز عن خمر الدنيا بطيبة عنصره وخلوه من أربعة أشياء توجد في خمر الدنيا وهي الصداع والنزيف والقيّ والبول، فهم لا يصيبهم صداع ولا سكر ولا قيء ولا بول كالذي يصاب به المعربدون بالخمور الخبيثة في الدنيا، وكثيرا ما تنتهي مجالسهم بالشتائم والمقاتلات نتيجة السكر والعربدة، أما رحيق الجنة ومعينها فهو لذيذ هنيء مريء برئ من عيوب خمور الدنيا، طيب لا خبث فيه، ليس فيه غول.

﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾.

ويطوف عليهم ولدانهم بالفواكه الكثيرة مما يتخيرون، والتعبير بالتخيير أروع وأبلغ معنى من التعبير بالاختيار، وهذا يدركه أهل البيان الراسخون في فقه اللغة وفنون الأدب، فطعام أهل الجنة الفواكه الشهية، ولحوم الطير اللذيذة، مما يشتهون ولا شك أن فيها أنواعا كما في الفواكه أنواع متشابهات في الألوان، متنوعات في الطعوم والروائح، تعرض عليهم وتوضع في صحائف من ذهب ومن فضة على موائدهم يتخيرون منها ما يشتهون.

﴿وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وحور عين معطوف على الولدان، أي يطوف على أولياء الله في الجنة نساء حور عين، وهما صفتان لنساء الجنة، والحوراء هي البيضاء الوضيئة كاللؤلؤة، والعيناء صفة حسن تكون في العين، وهي اتساعها وغزارة أهدابها، وشدة سواد أسودها، وشدّة

بياض أبيضها، وبضدها تتميز الأشياء، والضد يظهر حسنه الضدّ، هذا هو الوصف الذي اختار الله ذكره هنا، وقد وصفهن بأوصاف بديعة في مواضع أخرى من القرآن الكريم، ثم قال تعالى:

﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾.

شبه الله صفاءهن باللؤلؤ المكنون، واللؤلؤ جوهر كريم وضئ لا سيما إذا كان في كن لا تمسه الأيدي ولا يقع عليه الغبار، فهو مصون في حقاقه وخزائنه، وضئ لمّاع، ثم قال تعالى:

﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

كل هذا النعيم نالوه جزاء على إحسانهم وأعمالهم الصالحة، وهذا تكرم من الله تبارك وتعالى على أوليائه، وماذا يكون وزن أعمال عباده بالنسبة لهذه الخيرات المغدقة في جنات عدن، فلا تبلغ أعمالنا أن تكون كفاء لشكر نعمة واحدة لنعم ربنا التي لا تحصى، وإنما يذكر الله الأعمال تكرما منه وتحريضا للعباد على الإتيان بالأعمال الصالحات والإكثار منها، والإخلاص فيها حتى ينالوا هذه الكرامات، وقد ورد في الأثر أن الناس يدخلون الجنة برحمة الله ويتقاسمونها بأعمالهم، ونعم أجر العاملين.

﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَاثِيمًا الاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا﴾.

من تمام نعيم أهل الجنة في الجنة أنهم لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما، واللغو هو الكلام الساقط الذي تمجّه الأذواق السليمة، وتضيق به صدور العقلاء من الناس، ولا طائل تحته، والتأثيم هو اللوم والإنكار، ونسبة المخاطب إلى الإثم، لا يسمعون إلا سلاما سلاما، وهو تحية أهل الجنة بعضهم لبعض، وتحية الملائكة لهم، وتحية الله لأهل الجنة، وهي التحية المختارة للمسلمين في الدنيا، بعضهم لبعض، وقد أمرنا بإفشاء السلام على من عرفنا ولم نعرف، وإفشاء السلام إشاعته ونشره بين المسلمين، وليس المراد فقط بالسلام كلمته، بل المراد به كل ما يدخل الأمن والأنس والسرور في

القلوب، وينشر الارتياح في النفوس، فما أبهج تلك المجالس التي يجلس فيها أولياء الله متكئين على سرر متقابلين، لا يتحدثون إلا بالأحاديث التي هي سلام، وقد كرر الله ذكر السلام، وفي التكرار دلالته ووقعه في النفوس.

وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ
ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ
﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ
﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا
﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾
وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾

الذي قلناه في إبهام الاستفهام في بيان عظمة حالهم في الكرامة في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ نقوله هنا، والتعبير باليمين هنا تصرف للقول، وتنويع للصيغة ليكون أروع في النفس وأحلى في التذوق، واليمين يراد به اليمن والسعادة كما أن الشمال يراد به النحس وسوء الطالع، وبعد هذا الإبهام يصف الله لنا شيئا من نعيمهم تشويقا للنفوس وتحريضا لها على اتباع سبيلهم، وما أروع التعبير لمن يتذوق المعاني وأساليب البيان.

﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾.

ذكر الله تبارك وتعالى هنا نوعين من الشجر لم يرد ذكرهما في سورة الرحمن، وهما السدر والطلح، وبين سور القرآن تكامل وتناسق، والسدر شجر معروف وثمره

النبق، والطلح هو شجر الموز بلغة أهل اليمن، ووصف السدر أنه مخضود أي ليس فيه شوك بل فيه ثمر النبق اللذيذ الطعم، الطيب النكهة، وكذلك ثمر الموز، ولأشجارهما حسن المنظر، ونضارة الخضرة، وقد ذكر للمسلمين أن في الجنة شجر السدر فتعجبوا من وجود شجر شائك في الجنة، فأنزل الله هذه الآية التي عرّفت سدر الجنة أنه مخضود لا أشواك فيه، وليس في الجنة ما يؤذي بل أشجار الجنة بهيجة المنظر، لذيذة الثمار، طيبة الروائح، ثمارها وزهورها، وأما قوله تعالى: ﴿مَّنضُودٍ﴾ فهو صفة لثمار الموز في عراجينها، فهي مرتبة متراصة ليس فيها نقص ولا فلول، كلما أخذت منها حبة نبتت أخرى مكانها حتى تبقى دائما نضيدة على هيئتها الجميلة.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾

أي ظلال ممتدة لا تتقلص كظلال الدنيا، فهم كما قال الله تعالى: ﴿لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا﴾ (الإنسان: ١٣)، فهي ظلال باردة معتدلة وكريمة، ونعيم لأهل الجنة.

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾.

إن أهل الجنة مكرمون منعمون، فهم لا يكلفون حتى سكب شرابهم في الكؤوس بل يسكب الولدان لهم ماءهم وخمرهم، وأنواع المشروبات المتنوعة في الكؤوس وتقدم لهم هنيئة مسلّمة لهم في حفاوة وتكريم، ويقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ (الحاقة: ٢٤). ثم يأتي الوصف الخامس لنعيم أهل الجنة وهو قوله تعالى:

﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾.

تقدم ذكر معنى الفاكهة عند ذكر نعيم السابقين، ووصفت الفاكهة بإثبات وصف الكثرة ونفي وصف القطع والمنع، وهما أبلغ من الإثبات هنا، فهي فواكه متنوعة كثيرة لا تحصى كثرة، وموجودة في كل وقت لا تنقطع كفواكه الدنيا، توجد في فصل وتنقطع

في فصول أخرى، ولا تمنع عن مريدها كفواكه الدنيا، فقد تكون موجودة ولكنها تمنع لأسباب، إما لبسوق النخلة وعدم القدرة على صعودها، وإما لكون أصحابها يمنعونها، وإما لمنع الطبيب من تناولها لما فيها من خطر على صحته وحياته، لكن فواكه الجنة لا تمنع عمن يريدها من أولياء الله، فهي متوفرة ناضجة موجودة دائما، وقطوفها دانية، قد أباحها لهم المنعم بها عليهم وقال: كلوا واشربوا هنيئا، فهي هنيئة مريئة لا ضرر ولا خطر فيها، بل فيها اللذة والراحة والغذاء الكامل.

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ اِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا اَتْرَابًا لِّاَصْحَابِ الْيَمِينِ ثُلَّةٌ مِّنَ الاَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الاَخِرِينَ﴾.

وهذا مشهد من مشاهد الأبرار أصحاب اليمين في مجالسهم متكئين على فرش على سرر مرفوعة، وقد اعتاد المترفون المنعمون في الدنيا أن يتخذوا مجالسهم على فرش مرفوعة على أسرة مترفعة، وقد يراد هنا أنها مرفوعة القدر والشأن، وتتكئ معهم على هذه الفرش أزواجهم من الحور العين، وقد يكنى بالفراش عن الزوجة، ولذا جاء وصف أزواجهم من دون تصريح لمناسبة المقام.

﴿اِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا اَتْرَابًا لِّاَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾.

هكذا يأتي الفعل متصلا بنون العظمة تنويها بشأنهن وتفخيما لنعيم أهل الجنة، فقد أنشأهن الله إنشاء في الجنة كما أنشأ النساء المؤمنات إنشاء آخر بعد فنائهن لينلن جزاءهن الموفور، وليكنّ متعة لأزواجهن المؤمنين، وجعل الله نساء الجنة أبكارا حسانا شوابّ عربا، والمرأة هي المحبة لزوجها والمظهرة له ذلك مع إخلاص مودتها له، وتلك هي قرة عين الرجل، تضحك في وجه زوجها وتتدلل عليه وتمزح معه، وربما تعاكسه دلالا ومرحا لا جدا، والأتراب وصف لنساء الجنة وذلك أنهن في سن واحدة من ريعان شبابهن، قيل في سن الثلاثة والثلاثين وليس هناك لسنوات مضت بل كناية عن اكتمال الشباب والجمال، لأن المرأة في الدنيا إذا بلغت هذه السن فقد اكتمل شبابها، فإذا بلغت

سن الأربعين بدأ النقص يمسها ، ونساء الجنة كلهن شوابّ في مثل هذا السن لا يشبن ولا يمرضن ولا يضعفن ، ولا ييأسن ، فهن قرة عين لأزواجهن أصحاب اليمين كما ذكرن قبل للسابقين ، وقد جاء التصريح بأصحاب اليمين مع أنه لو أضمر لكان المعنى مفهوما واضحا ، وما ذاك إلا للتنويه بأصحاب اليمين ، لمكانتهم عند الله.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾.

تقدم معنى الثلة في اللغة ، وتقدم ترجيح معنى الأولين أنهم من جميع الخليقة ، وكذلك معنى الآخرين ، فهم جماعة كثيرة من الأمم السابقين وجملة كثيرة من أمة محمد ﷺ ، وفي هذه المقارنة بشرى لهذه الأمة أن منها جماعة كثيرة من السعداء الأبرار أصحاب اليمين ، ثم قال تعالى :

وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ
﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ
﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا
أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ * قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ
وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾
ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ
﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾
فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾

الفريق الثالث هم أصحاب الشمال، ويراد بالشمال الشؤم والنحس وسوء الطالع وهم الأشقياء أصحاب النار، والعياذ بالله، وقد جاء الاستفهام بالإبهام لتعظيم أمر شقائهم فكأنه ليس هناك وصف يحيط بحقيقة عذابهم، ثم جاء تبيين بعض ما هم فيه من أنواع العذاب:

﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّنْ يَّحْمُومٍ لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ﴾.

السموم هي الريح الحارة التي تدخل جميع مسام الجسد، ولا يعلم حرارة ذلك السموم إلا خالقها، والحميم الماء البالغ أقصى درجات الحرارة كما جاء وصفه في سورة الرحمن إنه حميم آن، فهم يترددون بينه وبين سموم جهنم، وبين ظل من يحموم أسود خانق شديد الحرارة، ليس كظلال الأشجار الباردة بل هو كما قال الله تعالى: ﴿لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ﴾ ليس باردا يغني من اللهب، ولا كريما كظلال الجنات، فما هو من السموم بأمثل بل هو مثله إن لم يكن شرا منه، ذلك هو مصير أصحاب الشمال، وقد استوجبوه بكفرهم وجحودهم وعصيانهم.

﴿انَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا انَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾.

جاء ذكر كفرهم وتمردهم وإصرارهم على المعاصي في أثناء وصف عذابهم ليزيل ما في نفوس السامعين من التعجب من فظاعة هذه الأنواع من العذاب إذا علمت شدة كفرهم وعتوّهم على الله وإصرارهم على الذنوب العظام من غير توبة ولا إنابة ولا استغفار، إنهم كانوا قبل أن يصيروا إلى هذا المصير المشؤوم مترفين، أي منعمين متبعين لأهوائهم وشهوات نفوسهم المتمردة الطاغية الكافرة، إنهم مترفون منعمون ولكنهم لا يشكرون المنعم، ولكن بدلوا نعمة الله كفرا وطغيانا، وكانوا يكذّبون بالبعث والنشور ويقولون منكرين ليوم الدين:

﴿أَيِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا انَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ ءَابَآؤُنَا الاَوَّلُونَ﴾.

إذا متنا وبليت أجسامنا وكانت ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون بعد ذلك خلقا جديدا نحن وآباؤنا الأولون، ويريدون بهذا الاستفهام التعجبي الإنكار، ولذا ردّ الله عليهم ردا قاطعا فقال تعالى:

﴿قُلِ انَّ الاَوَّلِينَ وَالاَخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ثُمَّ إِنَّكُمُ، أَيُّهَا الضَّآلُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾.

استبعد الكفار أن ترجع الحياة إلى العظام البالية التي صارت رميما ومضت عليها القرون تلو القرون وأنكروا البعث فرد الله بالجزم والتأكيد:

﴿قُلِ انَّ الاَوَّلِينَ وَالاَخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

قل لهؤلاء يا محمد ويا تالي القرآن مؤمنا به: إن الله جامع الناس جميعا إنسهم وجنّهم، وأولهم وآخرهم، وحاشرهم إلى يوم موقوت محدد له أجل معلوم، الله الذي أنشأهم أول مرة يعيدهم بعد الفناء، والإعادة أهون من الخلق الأول، والله بكل شيء عليم، وقد استعمل الميقات توسعا في التعبير بالموضع الذي يساق إليه الناس ويجتمعون فيه، وقد يستعمل الميقات للمكان المحدد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا...﴾ (الأعراف: ١٤٣)، ومنه تسمية الأمكنة التي يحرم فيها الحجاج مواقيت، فالمراد به هنا أرض المحشر يُجمع إليه الناس يوم القيامة، وهو يوم معلوم أجله كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُوَخِّرُهُ، إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ (هود: ١٠٤)، وقد أكد الخبر لتحقيق وقوعه بإنّ واللام حتى لا يخالج النفوس ريب في وقوعه، وفي هذا تهديد للمكذبين المنكرين الضالين.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمُ، أَيُّهَا الضَّآلُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾.

لا يزال الخطاب موجها لهؤلاء المنكرين للبعث، ثم إنكم أيها الضالون المكذبون بالبعث والوعيد إنكم بعد البعث صائرون إلى جهنم وإنكم في جهنم لآكلون من شجر من زقّوم الشائك المر الذي يغلي في البطون كغلي الحميم، فمالئون منه بطونكم كما كنتم تملأونها بالسحت في الدنيا ولا تبالون، فشاربون على أكلكم ماء الحميم الآني، وقد جاء التعبير بالفاء للتعقيب فلا فترة ولا استراحة بين الأكل والشرب، ثم وصف الشرب بأنه شرب الهيم، وهو وصف للإبل التي تصاب بداء الهيام وهو حمى تكون في أمعائها تصاب معها بالعطش الشديد، فلا تزال تشرب ولا ترتوي، فكذلك هؤلاء الكفار يأكلون من شجر الزقوم حتى يملأوا بطونهم ثم يُجرّعون الحميم، ولا يزيدهم شربه إلا عذابا، وهو شراب يقطع أمعاءهم لشدة حره وهو كما قال تعالى: يطوفون بين عذاب النار وبين الحميم الآني، أي يترددون بينهما.

﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾.

النزل ما يقدّم للضيف الوافد من الطعام والشراب، ففي العبارة تهكم وسخرية بهؤلاء الكفار المكذبين بيوم الدين، إنهم صائرون إلى مصير مشؤوم، ويقدم لهم شجر الزقوم وماء الحميم نزلا في دار العذاب وبئس الطعام والشراب وساءت الدار مرتفقا، والعياذ بالله ، وهذا جزاء ضلالهم وتكذيبهم بيوم الدين.

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ
فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ
الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾
عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ
عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ
﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا
فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾
أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ
أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ
﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا
أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ
﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

يقرر الله تبارك وتعالى قضية الخلق الأول بنون العظمة وبدون أدوات التوكيد، لأنه أمر واقع لا مرية فيه، وإنما يذكره لنعتبر بإعادة الخلق بعد الفناء، وهو أهون من البدء، ولذا يقول: فلولا تصدقون، أي فلولا تصدقون بأمر البعث والنشور، ثم يرجع إلى تفصيل أطوار الخلق الأول منذ طور النطفة المهينة المقذوفة في الرحم، فيضرب ذلك مثلا لقدرة الله الخلاق العليم، فيقول جل من قائل:

﴿أَفَرَآيْتُم مَّا تُمْنُونَ ءَآنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾.

أفرأيتم المني الذي تقذفونه في الأرحام، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون؟ وتأتي أم هنا للتقرير بعد هذا الاستفهام التقريري، وبنون العظمة يأتي التعبير ليدل على عظمة

الخالق، وتأتي صيغة الخلق بصيغة المضارع ليدل على التكرار والتجدد، فإن الجنين في ظلمات الرحم يُخلق خلقا من بعد خلق في أطوار متعاقبة حتى يُنشئه الله خلقا آخر، قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (نوح: ١٣- ١٤)، فعلى العاقل أن ينظر في هذه الأطوار منذ النطفة إلى الخلق السوي فيعلم أن الله قادر كما بدأ أول خلق يعيده وهو أهون عليه، ثم يقول تعالى:

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ﴾.

ثم بعد تذكير الله تبارك وتعالى إيانا بالخلق الأول يذكرنا بالموت المقدّر على كل حي، الموت الذي لا يستطيع أن ينكره منكر أو يجحده جاحد كافر.

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾

هكذا يقرر هذا الأمر المحتوم بنون العظمة، وهو حقا مظهر من مظاهر عظمة الخالق جبار السماوات والأرض، قضى على مخلوقاته الموت وقدره بينهم فلا فوت، ومن ذا الذي يفر من الموت أو يقوى على تأخير الأجل إذا حضر! هذا الموت الحق الذي هو نهاية النشأة الأولى ومدخل النشأة الآخرة.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

يقول الله جل جلاله: وما نحن بمسبوقين، أي بعاجزين لو أردنا أن نبدلكم أنتم أو من نشاء من مخلوقاتنا بخلق آخر، لو نشاء ذلك لكان هيّنا علينا، ولا يعجزنا وقدرتنا قاهرة لا يفوتها شيء، وقد جاء التعبير القرآني البديع بقوله تعالى:

﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾

ليدل على كمال قدرته وعلمه، فهو القادر على تبديل أمثالنا وإنشائنا بعد ذلك نشأة أخرى فيما لا نعلم، من الصور والأزمنة والأمكنة والأحوال، كيف لا نؤمن بهذا ونحن نعلم أن الله قد مسخ قوما قردة وآخرين خنازير بعد أن كانوا في أحسن تقويم!

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ﴾.

ولقد علمتم يا معشر الإنس نشأتكم الأولى من ماء مهين، والأطوار التي تقلبتم فيها حتى استويتم أجسادا قوية سوية، فهلا تذكّرتم واعتبرتم بهذا التطور أمر النشأة الآخرة، فما لكم تمارون فيها وتخاصمون في أمرها، وقد نسيتم خلقكم الأول ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾(يس: ٧٧- ٧٩)، فاعتبروا بخلقكم الأول يا أولي الألباب، ولا تنسوا نشأتكم من طين، وتكفروا بالذي سواكم من ماء مهين، فهو القادر على أن يبعث الحياة في العظم الرميم وهو بكل خلق عليم.

﴿أَفَرَآيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ءَآنتُمْ تَزْرَعُونَهُ، أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾.

في هذه الآيات الكريمة يضرب الله لنا مثلا من حرث الأرض وإلقاء البذرة فيها وهو أشبه شيء بإلقاء النطفة في الرحم ثم بعد ذلك يصنع الله صنعه في خلق الزرع وتطويره حتى يصير حبا متراكبا كما يخلق النطفة أطوارا حتى تصير بشرا سويا، فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿أَفَرَآيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ءَآنتُمْ تَزْرَعُونَهُ، أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾.

أفرأيتم ما تحرثون، أي ما تلقون من الحبوب في الأرض بعد شقها أأنتم تزرعونه، أي تنبتون زرعه حتى يصير حبا مشتدا مستويا، أم نحن الزارعون؟ هذا الاستفهام يراد به التقرير، ولذا جيء بأم التي هي للإضراب بمعنى بل، وقرنت بضمير العظمة الذي

هو "نحن" لا شك أن الزارع هو الله وليس للإنسان ولا لغيره أدنى عمل في إنبات الزرع وخلقه حبا متراكبا، إنما قصاراه أن يفلح الأرض ويلقي فيها الحب ثم ينتظر صنع الله طول مدة تطور النبات من طور إلى طور حتى يستوي حبا مشتدا مدركا بمشيئة الله وقدرته، قال تعالى:

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾.

يبين الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة أن الأمور كلها تجري بمشيئته وأنه لو يشاء لجعل أمرا من الأمور المطّردة تجري على العكس كما نرى بعض المعوقين من بني آدم أو الحيوانات تولد ناقصة على خلاف المألوف من صورها المعهودة، كذلك لو شاء لجعل الحرث لا ينبت الزرع أي لو شاء لجعله بعد إدراكه أو قبله حطاما بأن يرسل عليه آفة من آفات السماء أو الأرض تحطمه فلا يؤتي غلته المنتظرة، وهذا ما نشاهده في كل الأزمنة والأمكنة، يرسل الله على الزرع ليلة باردة فتحطمه أو مزنا فيه بَرد يسقط عليه فيحطمه ويجرفه فتصبح الأرض صعيدا زلقا، كأن لم تغن بالأمس، وعندئذ يصبح أحاديث في مجالس السمار يتندّرون ويتفكّهون به، قال تعالى:

﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾.

أي فصرتم تتفكهون بخبره، وذلك أن النفوس تميل إلى سماع الأخبار النادرة الغريبة وتعلق عليها بما يبدو لها من التعاليق، وقد جاء في بعض التفاسير أن هذه الكلمة تستعمل في الأضداد، فكما أنها تستعمل في المسرة فكذلك في المساءة، فيقال تفكه القوم أي تندّموا وحزنوا وتلاوموا، ولذا صح أن يأتي بعده قولهم:

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾.

أي إنا لخاسرون مُهلكون، بل نحن محرومون من ثمرة أعمالنا وجهودنا وإنفاقنا، كل ذلك ذهب ضياعا، وقد يراد المعنيان معا، ففريق يتفكه ويعجب ويتندر ويعلق بما يحلو له، و فريق يتأسف ويتندم ويحزن.

﴿أَفَرَآيْتُمُ الْمَآءَ الذي تَشْرَبُونَ ءَآنتُمْ، أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ﴾.

ثم بعد ضرب المثل بالآيتين المتشابهتين حرث النطفة في الرحم وحرث الأرض وإلقاء البذرة فيها يضرب لنا المثل بآيتين هما من آيات الله ومن آلائه العظمى، وهما الماء والنار، النعمتان اللتان لا يستغني أحد من الناس عنهما في أي زمان أو مكان، وهما قوّتان من قوى هذا الكون.

﴿أَفَرَآيْتُمُ الْمَآءَ الذي تَشْرَبُونَ ءَآنتُمْ، أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾.

أفرأيتم الماء الذي تشربون وبه قوام حياتكم، أأنتم أنزلتموه من المزن، أعندكم قوة على إنزال من السحاب أم نحن المنزلون، ألسنا نحن الذين خلقنا السحاب وأرسلنا الرياح تثيره فنبسطه في السماء كيف نشاء، فننزله على الموضع الذي نشاء بالمقدار الذي نشاء، ألسنا قادرين أن ننزع منه عذوبته ونجعله أجاجا، فماذا يكون حالكم حينئذ؟ هلا تشكرون أنعُمَ الله عليكم وتعبدونه وحده ولا تكفرونه ولا تشركون به غيره، ففي الآية تذكير بنعم الله وتحضيض على شكر المنعم.

﴿أَفَرَآيْتُمُ النَّارَ التي تُورُونَ ءَآنتُمْ، أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

وأخيرا يضرب الله المثل بالآية الرابعة من آياته وهي النار التي يعم نفعها وخطرها، وهي القوة الثانية بعد قوة الماء، فنحن ننتفع بقوتها ونتقي ضررها، ويقل شكرنا لله الذي أنعم بها علينا، قال تعالى:

﴿أَفَرَآيْتُمُ النَّارَ التِي تُورُونَ ءَآنتُمُ، أَنشَأتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾.

أفرأيتم النار التي تورون بقدح زندها، وذلك بحك عودين من نوع خاص من شجر الحرّاق وهو الذي تنقدح به النار، وذلك مثل المرخ والعفار، وقد ينقدح من غيرهما، مثل الشُّعل والكلخ، وقد تنقدع من غير الشجر كحجر الصوان، ولكن ذكر الشجر لأنه الغالب في استعمالهم، وفي ذلك آية توجب الإيمان بقدرة الله الذي يخرج النار من بين عودين أخضرين، من شجر معين، ولذا يقول:

﴿ءَآنتُمُ، أَنشَأتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾.

أأنتم أنشأتم شجرتها وأخرجتم منها النار أم نحن الفاعلون لذلك، فما لكم تغفلون عن آيات الله ولا تشكرون نعمه.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

في هذه الآية يأتي الجواب الذي لا ينكره عاقل وهو أن الله وحده الذي أخرج النار من العودين بقدرته وجعلها تذكرة للعباد يتذكرون بهذه النار المحرقة نار الآخرة التي هي أشد حرا وإحراقا من هذه النار، فيخشون ربهم ويتقونه ويتجنبون سخطه وعذابه، كما جعلها نعمة ومتاعا للمقوين وهم الذين يخرجون إلى القواء وهو البادية، وفي النار منفعة عظيمة لأهل البادية والحضر، وإنما ذكر أهل البادية هنا لأنهم أشد حاجة إلى قدح الشجر وإشعال النار لإنضاج لحمهم وطعامهم، وللاصطلاء في ليالي الشتاء وللإنارة، وكذلك كانوا يورونها ليهتدي بها السائرون في القوّاء فيقصدونها، فهي متاع للجميع وبُلغة لهم إلى حين، ويقال للجائع مقوٍ لأن بطنه قواءٌ أي خالية من الطعام، فالمعنيان مقصودان في الآية، فهذه أربع آيات من آيات الله، خلق النطفة في الرحم خلقا بعد خلق، وإنبات الزرع في الأرض، وخلق الحب المتراكب، وإنزال الماء من المزن، وإخراج النار من العودين متاعا للمقوين وتذكرة للمعتبرين، وهذه أمور تدعو إلى تسبيح الله وتعظيمه وشكر نعمه، ولذا يقول الله تعالى:

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

الأمر موجه إلى كل عاقل يتلو القرآن ويتأمل صنع الخالق العليم، ويتدبر في آياته وآلائه، وقرن التسبيح باسم الله، والمراد التسبيح والتقديس لذاته، وإنما يأتي مقرونا باسمه ليفيد وجوب تلفظ اللسان بذكر الله عند التسبيح فيقول: سبحان الله العظيم، أو سبحان ربي العظيم، ونحوه من التسابيح، والتسبيح تنزيه الله تبارك وتعالى عن أوصاف النقص وتقديسه كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

* فَلَآ أُقْسِمُ
بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾
إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا
ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم
مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ
ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ
وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ
وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ
﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ
﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

بهذه الآيات الكريمة تختتم هذه السورة العظيمة لتقرر قضيتين عظيمتين من الإيمان، أولهما الإيمان بهذا القرآن الكريم أنه تنزيل من ربنا الحكيم، وثانيهما الإيمان باليوم الآخر، وتختم به السورة كما بدئت به ليلتقي طرفاً هذه الحلقة الذهبية البديعة، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لاَّ يَمَسُّهُ، إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ﴾ يريد به القسم بدليل قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وإنما جيء بها لتأكيد القسم يعني بذلك، والله أعلم أن الأمر حق وواضح لا يحتاج إلى قسم وإن كنت حالفا فإني أقسم بهذه الأمور العظيمة وتعرف "لا" هذه عند النحاة بأنها زائدة لأنها لا تفيد معنى النفي الذي وضعت له ولكن المفسرين يقولون أنها صلة تنزيها لكلام الله تعالى عن أن يكون فيه حرف زائد، وهذا تأدب جميل مع الله، فليس في كلامه ما هو زائد، أما الفاء فللتفريع.

ويأتي هذا النوع من القسم المسبوق بِلاَ سبع مرات في القرآن الكريم، والمقسم به هنا أمر عظيم يهدي المتأمل فيه إلى عمق الإيمان بالخلاق العظيم المقتدر العليم، ومواقع النجوم مساقطها عند غروبها ومساراتها في أفلاكها الواسعة هذه الملايين والملايير من النجوم السابحات في مجراتها الكثيرة في نظام محكم بديع لا تخطئ مساراتها ولا يصطدم بعضها ببعض، ففي تأملها وتأمل مشارقها ومغاربها ومواقعها آيات وآيات تدل على بديع صنع الله الذي أتقن كل شيء، أليس الذي خلق هذه الأعداد الهائلة من النجوم وأجراها في مجاريها في نظام محكم دقيق، أليس ذلك بقادر على أن ينزل آياته القرآنية المحكمة من السماء إلى الأرض منجمة ينزل بها الروح الأمين على قلب محمد ﷺ.

﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

جملة معترضة تتضمن في طيّها جملة أخرى لتفيدان مقدار عظمة هذا القسم والمقسم به والمقسم عليه، فما أعجب كلام الله تعالى، وما أروع حلاوته وبلاغته! حقا إنه كلام الخالق يعلو ولا يُعلى وهو معجز لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

إن هذا الذي أتاكم به صاحبكم قرآن كريم، والكريم في كل جنس أجوده وأحسنه وأعلاه حتى إنه يقال في الذهب معدن كريم، ويقال في الخيل فرس أو حصان كريم، وجاء في وصف عرش الله عرش كريم، فكلام رب العالمين قرآن كريم يحتوي على الهدى والرشد والحكمة وهو الحق من عند الله.

﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾.

أودعه الله في اللوح المحفوظ، المكنون المصون عن أن تناله الشياطين، فهو كلام الله حقا، وما هو بشعر ولا سحر ولا كهانة ولا كلام بشر كما يقول الكافرون بل هو كما قال منزله:

﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

لا يمسه إلا الملائكة المطهرون حين يأذن الله بإنزال ما يريد إنزاله، ففي الآية دفع في صدور الذين يقولون: تنزلت به الشياطين وأنى للشياطين أن يعرجوا إلى الملإ العلى، فهو قرآن كريم محفوظ ومكنون في اللوح المحفوظ، ثم في بيت العزة في السماء الدنيا.

﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾.

وفي معنى الآية أيضا أنه لا ينبغي أن يمس المصحف إلا مؤمن طاهر متوضٌ، ولا يقرأ القرآن إلا من كان على وضوء، وهذا استحباب لا إيجاب، ولا يمنع المسلم من

قراءة القرآن إلا أن يكون جنبا فقد صح في الحديث منعه من قراءة القرآن ومس المصحف حتى يغتسل ويزيل حدث الجنابة.

﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

الإشارة بهذا الحديث إلى القرآن الكريم لأنه حديث الله ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٨٧)، فهو كلام الله حقا لا ريب فيه ولا مراء، والإدّهان هو الملاينة والمصانعة، وهو في الدين كفر ونفاق فلا مداهنة في الحق وإنما تكون في أمور الدنيا، وقد تكون محمودة في الحقوق الخاصة الشخصية يصانع الإنسان أخاه ويتسامح في بعض حقه لاستبقاء المودة أو لإصلاح ذات البين أو لدفع شر أهل الشر وهي المداراة المطلوبة في بعض الأحوال كما جاء في الحديث الشريف، قال رسول الله ﷺ: «أوصاني أو أمرني حبيبي جبريل عليه السلام بمداراة الرجال»، وقال أيضا: «من استقصى في حقه لم يترك للشر مطلبا»، وقال الشاعر في هذا المعنى:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة　　　يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

أما المداهنة في أمور الدين فلا تجوز، وقد ودّ الكفار لما أعيتهم الحجة أن يداهنهم الرسول ويداهنوه ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (القلم: ٩)، قالوا للنبي ﷺ: تعبد آلهتنا يوما ونعبد إلاهك يوما، أو تحضر معنا بعض أعيادنا عندها، أو تمسك عنا وتترك ذمها والتنقيص منها، فإن ذلك يؤذينا، ورغبوا من النبي ﷺ أن يبدل بعض ما جاء من القرآن في شأنها وفي شأن البعث والحساب والجزاء وفي الوعد وفي الوعيد بعقاب الله للكفار كما جرى للكافرين من قبلهم، ورغبوا منه أن يداهنهم بعض المداهنة ويسلك معهم حلا وسطا، فنهاه الله عن هذا، وفي مثل هذا نزلت سورة "الكافرون" ونزل قوله تعالى في سورة يونس: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ (الآية: ١٥)، وهذا النهي عن المداهنة مع الكفار ليس خاصا بالنبي ﷺ بل يعم المؤمنين كلهم لا سيما الدعاة إلى الله والعلماء المبلّغين عن رب العالمين، ثم قال تعالى:

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ، أَنـــَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

أي وتجعلون شكر رزقكم من النعم الأربع التي سبق ذكرها من نعمة الهداية، وحكمة القرآن، التكذيب بالبعث وبالقرآن، ومن المفسرين من فسر الرزق بالشكر، ومنهم من قدر معنى الشكر قبل كلمة الرزق تقديرا كما تقدم، فهم عوض أن يشكروا نعمة الخلق والحرث والماء والنار، ونعمة الهداية التي جاءت في هذا القرآن وهي من أجل النعم، عوض أن يشكروها جعلوا شكرهم التكذيب بالقرآن وما جاء به القرآن، وعداوة من جاءهم بهذا القرآن ومن يدعوهم بدعوة القرآن، فما أقبح صنيعهم، وما أجرأهم على الكفر، وما أصبرهم على النار.

﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِـــنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ اَصْـــحَابِ الْيَمِينِ فَسَلاَمٌ لَّكَ مِنَ اَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الـــضَّآلِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ اِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبـــــِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

ثم تختتم السورة بهذا المشهد الرهيب الذي هو غاية كل حي، مشهد خروج الروح من الجسد، مشهد الذين ينظرون إلى جسد هذا المحتضر ولا يستطيعون أن يصنعوا شيئا بل كل حظهم من هذا العزيز الراحل النظر ولا يبصرون شيئا، وهم اليوم مستسلمون.

﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِـــنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾.

فلولا إذا بلغت الروح الحلقوم وقد انسلخت من الجسد كله، و بلغت الحلقوم وهو مدخل مجرى النفس، فكانت الحشرجة وتلك هي ساعة الاحتضار، وأنتم حول ميتكم

تنظرون ولكن لا تبصرون شيئا لا الروح ولا من يقبضها ولا تستطيعون حبسها فيه ونحن أقرب إلى ميتكم منكم ولكن لا تبصرون، والقرب هنا قرب قدرة وعلم لا قرب ذات، وقرب رسلنا الذي يعالجون إخراج الروح من الجسد ولكن لا تبصرون، فما أضعفكم يومئذ وما أعجزكم.

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

فلولا إن كنتم غير مدينين أي خاضعين مربوبين هلا ترجعونها إلى مواضعها من أجزاء الجسد التي فارقتها إن كنتم صادقين في دعواكم أن لا بعث ولا جزاء، ومن المفسرين من فسر قوله: غير مدينين، أي غير مجزيين على أعمالكم يوم القيامة، والمعنى صحيح، وقد ورد في سورة الصافات قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ (الصافات: ٥٣)، أي لمبعوثون فمجزيون على أعمالنا.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾.

يصنف الله تبارك وتعالى هنا عباده يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف كما صنفهم في أول السورة أعلاها، المقرّبون وهم المشار إليهم بالسابقين هناك، قال: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ الروح بإسكان الواو بعد الراء المفتوحة هو الرحمة والريحان هو الطيب، والروائح العطرة التي تنبعث من الزهور والرياحين، ولا يعلم إلا الله مقدار تلك الرحمات والرياحين التي تصحب روح المؤمن وهي صاعدة إلى السماء يصعد بها ملائكة الرحمة، وقد أعد الله لها مأواها في جنات النعيم، وقد أضيفت الجنة إلى النعيم إشارة إلى ما فيها من النعيم المقيم الذي أعدّه الله لأوليائه المقربين نسأل الله أن يجعلنا منهم أو من أصحاب اليمين.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾.

وأما إن كان صاحبكم المحتضر من أصحاب اليمين فسلام لك تحية من نظرائك أصحاب اليمين، وقد تقدم الكلام في جزاء أصحاب اليمين عند ربهم، وذكر السلام

هنا بشارة لأولياء الله أصحاب اليمين، وإشارة إلى أن أرواح المؤمنين يستبشر بعضهم ببعض هناك في حياة البرزخ، وقد ورد مثل هذا في شهداء أحد الذين نزل في حقهم: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ، أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (آل عمران: ١٧٠)، ثم يأتي ذكر الفريق الثالث وهم أصحاب الشمال أو المشأمة المذكورين في أول السورة:

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّآلِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾.

وأما إن كان المحتضر من أصحاب الشمال المكذبين بالبعث الضالين فقد أعدّ لهم نزل من حميم، والنزل ما يهيأ للضيف النازل من الطعام والشراب، وجاء التعبير بالنزل تهكما بهم ونزلهم شراب الحميم وطعامهم الضريع والغسلين، ومقرهم الجحيم، وهو النار المؤججة يصلونها ويعذبون فيها وما هم منها بمخرجين، ونعوذ بالله من مصير المكذبين الضالين.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

إن هذا لهو حق اليقين، أو هو اليقين الحق الذي لا مرية فيه، الإشارة بهذا إلى ما جاء في القرآن، وفي هذه السورة من تصنيف الناس يوم القيامة إلى أزواج ثلاثة، وما أعد لهم من الثواب والعقاب، فليزهق كل باطل يهرف به المكذبون الضالون الذين يقولون هو سحر وكهانة وأساطير الأولين، وقد أكدت الجملة بأربع مؤكدات وهي إنّ واللام وضمير الفصل، ووصف الحق باليقين تقوية لمعناه، وكلام ربنا حق وصدق ويقين.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾

التسبيح هو التنزيه والتقديس أي منزه ربك عما يقول المبطلون، والخطاب موجه إلى النبي ﷺ وإلى كل تالٍ للقرآن الكريم، وقرن التسبيح باسم ربنا لتلهج ألسنتنا بالتسبيح باسمه العظيم، والأمر للوجوب، وقد جاء في الأثر أنه لما نزلت قال رسول الله

ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم، ولما نزلت: ﴿سبِّح اسمَ ربِّك الأعلَى﴾ قال: اجعلوها في سجودكم»، فما بقي بعد بيان حق اليقين إلا أن نقول: سبحان ربنا العظيم وتصديقا بكتابه الكريم وخضوعا لسلطانه القديم، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحديد مدنية

وآياتها ٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ
مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾
هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾
هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ
عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ
السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾
يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

السورة مدنية عند جمهور المفسرين، وقد قيل إن صدرها مكي، وتسمى سورة الحديد لذكر إنزال الحديد فيها في معرض الامتنان بمنافع الحديد وبأسه الشديد، وهو عدة الجهاد في الذبّ عن الإسلام ونصره، والمناسبة شديدة بينها وبين سابقتها، فتلك ختمت بالأمر بالتسبيح لربنا العظيم وهذه فتحت بالإخبار بأن كل ما في الكون يُسبح

لله، وقد جاء الإخبار هنا بصيغة الماضي، كما جاء في سورة الحشر وفي سورة الصف، وربما يجئ بصيغة المضارع كما جاء في سورة الجمعة وفي سورة التغابن، وجاء بصيغة الأمر في سورة الأعلى هذا في أوائل هذه السورة المذكورة، وجاء بصيغة الأمر في آخر سورة الواقع، وروي أنه لما نزل: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾، قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، ولما نزل: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ قال: اجعلوها في سجودكم».

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

التسبيح هو تنزيه الله عن أوصاف النقص كالشرك والعجز والفناء، كما أن الحمد هو وصفه بأوصاف الكمالات كالديمومة والقدرة والحياة والبقاء، وعدم الشريك، يخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن جميع المخلوقات العلوية والأرضية تسبح لله وتقدس له، وهو أهل لذلك وهو العزيز الذي لا يغالب، الحكيم الذي يجل عن العبث، فهو لم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا، ما خلقهما إلا بالحق وأجل مسمى، ويوم يأتي الأجل المسمى يعيد إنشاء هذه الخلائق ليحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم الجزاء الأوفى، فهو العزيز حقا، ومن اعتصم به عز ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُومِنِينَ﴾، وهو الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها، وكل شيء يخلقه لحكمته ويتصرف فيه بحكمته.

هكذا يبدأ السورة بوصفين من أعظم أوصافه هما العزة والحكمة، فلنسبح مع المسبحين باسم ربنا العظيم العزيز الحكيم.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

له وحده ملك السموات والأرض هو خالقهما وما فيهما وما بينهما، ومالكهما وما فيهما وما بينهما، ومن أحق بالملك منه! وهو على كل شيء قدير، قدرته وسعت

كل شيء بدون استثناء كما وسع كل شيء علمه وملكه، فلا يشذ عن قدرته شيء في الأرض ولا في السماء، هو وحده القادر على إحياء الخلائق وإماتتها بعد الحياة ثم بعثها بعد الموت، وهو على كل شيء قدير، وقد جاء وصف الإحياء والإماتة عامة ليشمل كل ما تحل به الحياة والموت مثل الملائكة والإنس والجن والبهائم والوحوش والطيور والهوام والحيتان في البحار وغير ذلك مما نبصر وما لا نبصر، لا يعجزه شيء ولا يشذ عن قدرته شيء.

﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أربعة أسماء من أسماء الله الجليلة مثاني، فيها روعة الطباق، وهو مقابلة الأول بالآخر، والظاهر بالباطن، هو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، الأول ليس قبله شيء، والآخر ليس بعده شيء، الظاهر في آياته البينات، التي تدل على خالقها واجب الوجود

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد   إلا على أكمه لا يعرف القمرا

لقد دلّت عليه سماواته وما فيها من شموس وأقمار ونجوم وأنوار، وظلمات وأرضه وما فيها من جبال وأشجار وبحار وحيوانات وأطيار في الأجواء وحيتان في البحار، ومعادن في أعماق الأرض وما في أعماق البحار ﴿وَفِي الأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمُ، أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢٠- ٢١)، وهو الباطن فلا مطمع في رؤيته في الدنيا ولا في الآخرة ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٠٣)، هو الباطن لا يُدرك بالحواس ولا تناله العقول والأوهام، وإنما نشاهده في آياته المجلوّة في الأكوان وفي أنفسنا.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أحاط علمه بكل شيء، عالم بما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ومن أيقن بعلم الله راقبه في السر والعلانية واستحيا من الله أن يراه حيث نهاه، وتلك هي ثمرة الإيمان.

﴿هُوَ الذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ، أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ثم بعد الإجمال بإحاطة علم الله بكل شيء، يأتي التفصيل ويأتينا قبل ذلك بإسناد خلق السموات والأرض إليه في ستة من أيام الله، ويخبرنا باستوائه على العرش بالمعنى الذي يليق بعظمة ملكه وجلاله، والاستواء المراد به الملك والاستيلاء والقهر، ذلك لأن العرب تعبر عن الاستيلاء والملك بالاستواء، والقرآن نزل بلسان عربي مبين، قال الشاعر العربي:

قد استوى بشر على العراق ... بغير سيف ودم مهراق

وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى في القرآن في مواضع متعددة أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، وليست هي أيامنا هذه لأن أيامنا هي دورة الكرة الأرضية حول نفسها بل هي أيام الله التي أخبر عنها بقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج: ٤٧)، وليس الله تبارك وتعالى بعاجز أن يخلق السموات والأرض وما بينهما في طفرة مرة واحدة كلمح بالبصر، ولكن سنة الله اقتضت تعاقب الأطوار كما نرى ونشاهد ذلك في كل شيء حتى في تطور الأجنّة في بطون أمهاتنا، فتبارك الله أحسن الخالقين، ثم يأتي تفصيل معنى قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يقول الله عز وجل:

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ، أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

علم الله تبارك وتعالى محيط بكل شيء، فهو يعلم ما يلج، أي يدخل من مياه وبذور وهوام وديدان، وحشرات وحتى أشعة الشمس والقمر والنجوم التي تخترق الأرض وبحارها، وتؤثر في نباتها وأسماكها ومعادنها وحيواناتها، ويعلم ما يخرج منها من زروع وأشجار وثمار وحيوانات وأبخرة وغير ذلك مما نعلمه وما لا نعلمه، ومما نبصره وما لا نبصره، ويعلم ما ينزل من السماء من أشعة ومياه ووحي وأخبار وملائكة ورحمات، وغير ذلك مما نعلم وما لا نعلم، ولا علم لنا إلا قليلا، ويعلم ما يعرج في السموات من ملائكة تعرج إليه بأعمال العباد وأرواح الأبرار، وأمور لا نعلمها، وما علمنا في علم الله إلا كقطرة في بحر خضم، فسبحان من أحاط علمه بكل شيء، وكل شيء من خلقه وصنعه ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤)، ثم قال تبارك وتعالى:

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ، أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

هذه المعية معية علم وقدرة وقهر، فهو معنا بعلمه وقدرته أينما كنا لا يعجزه شيء ولا تخفى عنه خافية، والذين يؤمنون بهذه المعيّة ويوقنون بها يستحيون من الله أن يراهم حيث نهاهم أو يفقدهم حيث أمرهم، فهم لا يزالون يراقبون الله في حركاتهم وسكناتهم، وفلتات ألسنتهم، ونظرات أعينهم، وحتى في أحاديث قلوبهم فلا يأتون إلا ما يرضي ربهم، وهذه المعيّة فسرتها الآية التي بعدها، **﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** والله بصير بكم وبأعمالكم فمجازيكم عليها.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾.

له ملك السموات والأرض وما بينهما فهو الخالق المالك المدبر للأمور وإليه ترجع أمور هذا الكون كلها لأنها منه وإليه، فمرجع أمور الخلق بدءاً وإعادة كلها إلى الله، وما أعظم هذا التعقيب بهذه الآية للآيات التي قبلها، وما أنسبها للتي تليها.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

يلفتنا ربنا تبارك وتعالى إلى آية أخرى من آياته العظيمة التي تدل على قدرته وعلمه وحكمته، وهي إيلاج ظلمة الليل في ضوء النهار، وإيلاج ضوء الصباح في ظلام الليل كل واحد منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا لا يفتر، والولوج هو الدخول، وفي معنى الولوج أيضا زيادة أحدهما وأخذه من الآخر مع تعاقب فصول العام فعند الصيف يلج النهار في الليل، وعند الشتاء يكون العكس، ويكون ذلك بحساب دقيق، وفي ذلك آيات للمتوسمين وذكرى للذاكرين فسبحان الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل.

﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

علم الله تعالى بخفايا الصدور كعلمه بظواهر الأمور لا يعزب عنه ما يجيش في النفس من خواطر، ولا يخفى عنه ما تحدّثه الضمائر فعلمه محيط بالبواطن والظواهر ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُم، أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ...﴾ (البقرة: ٢٨٤)، يعلم الله ما تخفي النفوس من الوساوس والهواجس، ويحاسب عباده على ذلك فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، وقد بشّرنا رسول الله ﷺ ببعض الخواطر التي يغفرها الله ولا يحاسبنا عليها، وذلك كالحسد والظن والطيرة، فقد جاء في الحديث الشريف: «إذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض»، وكذلك خاطر المعصية جاء في الحديث أن الله عفا عن الهمّ بالمعصية ما لم يعمل به صاحبُه وأن من هَمَّ بمعصية فتركها ولم يعملها كتبت له حسنة كاملة، أما الذي لا يغفره الله فالشرك ولو كان خفيا مضمرا في القلب فإنه محبط للأعمال، وكذلك العجب والكبر وأنواع النفاق، ومن أيقن بعلم الله بذات الصدور، فهو دوما يحاسب نفسه ويطهر قلبه من دباغ السوء وأنواع الشرك،

ويملؤه بالنوايا الحسنة وإضمار الخير والإخلاص، ويناصح التوبة لربه الغفور الرحيم، وذلك هو أثر العلم والإيمان.

۞ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ
فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ
لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ
إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ
لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾
وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ
أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا
وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا الَّذِي
يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

بعد ذكر أسماء الله الحسنى من أول السورة وثناء الله على نفسه بما هو أهله، وإسناد العظمة والملك لله، وأنه المحي المميت، المبدئ المعيد، وإنه العليم بخفيات القلوب والضمائر، يأتي النداء للمخلوقات أن يؤمنوا بالله ربهم وأن ينفقوا مما جعلهم الله مالك الملك مستخلفين فيه، وسيكون إنفاقهم محمودا ويكون لهم على ذلك أجر كبير.

﴿ءَامِنُوا بِاللَّه وَرَسُوله وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالذينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ، أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

نداء من الله جل جلاله لكل الناس أن يؤمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي أرسله إليهم داعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، يخرجهم من ظلمات الشرك والجهل إلى نور العلم والإيمان يدعوهم إلى ما يسعدهم في الدنيا والآخرة، كيف لا يؤمنون بهذا الرب العظيم، الذي يسبح له ما في السموات والأرض الخالق المحي المميت، المالك المطلق الذي رزقهم وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه، وما أنسب هذا النداء الحق بعد ذكر هذه الأسماء الحسنى والصفات العليا لله الخالق المالك العليم بذات الصدور، فهو يدعوهم للإيمان بالله ورسوله ليسعدهم ويدعوهم للإنفاق من الأموال التي جعلها بأيديهم وجعلهم خلفاء عليها ليؤجرهم على ذلك أجرا كبيرا، ويُخلف عليهم ما أنفقوا وهو خير الرازقين، والله كريم يحب أهل السخاء والكرم، ويبغض أهل البخل.

﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ، أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

يأمر الله عباده بالإنفاق، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه، ويذكّرهم أن هذه الأرزاق التي بأيديهم ما هي إلا عارية وما هم على الحقيقة مالكين لها بل المالك الحق هو الله، فما هم فيها إلا خلفاء وكلاء مدة من الزمن قليلة، وستنزع من أيديهم أو يُقبضون ويتركونها لوارثهم والله هو المالك المطلق والوارث الحق وهو خير الرازقين وخير الوارثين، يرزقنا ويأذن لنا في الإنفاق مما رزقنا ويعدنا على ذلك أجرا عظيما، ونحن نبخل بما هو ليس لنا فلا أعظم بخلا ممن يبخل بما هو مستخلَف فيه، وقد أمره مالكه وواهبه بإنفاقه ووعده عليه أجرا كبيرا، فاعجبوا لهذا البخل، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ، أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

فالذين آمنوا منكم بالله ورسوله وصدقوا بالحسنى وأنفقوا مما رزقهم الله لهم أجر كبير، فالآية وعد من الله بالحسنى لأهل السخاء والكرم من المؤمنين، وفيها بيان من الله أن الذين يؤجرون على الإنفاق هم المؤمنون بالله ورسوله، أما الكافرون فلا يؤجرون على أعمالهم بل تذهب هباء منثورا، وفيها أن الإيمان إنما يتم بالعمل الصالح، ﴿فَالذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ أي حققوا إيمانهم بالمسارعة إلى العمل الصالح لهم أجر كبير جزاء على إيمانهم وإنفاقهم الأموال التي هي لله بأيديهم على مستهلكيها في الحق والإنفاق يشمل النفقة على الوالدين والعيال والفقراء والمساكين وذوي القربى واليتامى، وفي سبيل الله، والإنفاق يشمل إخراج الحقوق الواجبة في الأموال من الزكوات وغيرها وجميع أنواع الإنفاق في أبواب البر، وقد جاء هذا المعنى مبسوطا مفصلا في غير موضع من كتاب الله.

﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُومِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدَ اَخَذَ مِيثَاقَكُمْ، إِن كُنتُم مُّومِنِينَ﴾.

الاستفهام أريد به التحضيض على الإيمان والتعجب من امتناع استجابة القوم لداعي الإيمان بالله واليوم الآخر، ورسول الله يدعوهم دعوة صريحة بينة إلى الإيمان، وما لكم أيها القوم لا تؤمنون والرسول يدعوكم إلى الإيمان وأنتم تعرفون صدق رسولنا ونزاهته، وهو من أنفسكم، وفي الذؤابة من بيوت قريش، وفي غاية العظمة من الأخلاق الحسنة، وقد أخذ الله ميثاقكم لتؤمنوا بربكم إن كنتم مؤمنين، أي مصدقين لأخبار الله، وإن أمرا أخبرنا الله به لهو واقع حقا وإن لم تمسكه الذاكرة لبعد العهد، وقد جاء الخبر مفصلا في سورة الأعراف حيث يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَ اَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمُ، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ...﴾ (الأعراف: ١٧٢)، فالخبر يقين، ومن أصدق من الله قيلا، آمناً وصدّقنا، بخبر ربنا وأيقناً، ونحن على عهدنا ووعدنا ما استطعنا، ومن وفّى وفّى الله له.

﴿هُوَ الذي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

يقيم الله حجته علينا فيخبرنا أن هذا القرآن الذي فيه الهدى والفرقان، وفيه الآيات البيّنات، هو الذي ينزله على عبده ورسوله فما هو إلا مبلّغ صادق أمين، الله تبارك وتعالى هو الذي ينزل على عبده آيات بيّنات ليخرجنا من ظلمات الشرك والجهل إلى نور الإيمان والعلم، ويقول جل جلاله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ إن الله حقا بعباده عظيم الرأفة واسع الرحمة، وما إنزاله هذه الآيات البينات على عبده إلا رحمة للعالمين حتى يسعدوا في الدنيا والآخرة إذا هم آمنوا بآياته وعملوا بها وإنها لميسرة للذكر فهل من مدّكر، لا يصدف عنها إلا ضال شقي يؤثر العمى على الهدى.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وما يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله، والمال مال الله، وما أنتم إلا مستخلفون فيه، وسيرجع إلى الله.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

عبر بالميراث كما نفهم من لفظ الميراث، وذلك أن الله هو الباقي بعد فناء السموات والأرض وما فيهما كما كان هو الأول فهو الواهب بأوليته، وهو الوارث بآخريته، فكل شيء موجود، فالله هو الذي وهب له وجوده ووهب له ما في يده، ثم ترجع الموجودات والموهوبات كلها إلى الله وهو خير الوارثين، فإذا كان الميراث الأخير لله الواهب فالبخل لماذا، فأنفقوا أيها المستخلفون من مال الله، واغتنموا الإنفاق قبل أن ينتزع من أيديكم واعلموا أن لكم في الإنفاق أجرا عظيما، وإن هذا الأجر على درجات.

﴿لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنَ انفقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الذِينَ أَنفقُوا مِنۢ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَــا تَعْمَلُــونَ خَبِيرٌ﴾.

لا يستوي منكم من أنفق في سبيل الله قبل الفتح، أي فتح مكة أو فتح صلح الحديبية، به سميت سورة الفتح، لا يستوي من أنفق من المسلمين وقاتل قبل الفتح، والذين أنفقوا من بعد وقاتلوا بعد أن صار المسلمون كثرة أعزّة فإن من أنفق قبل الفتح وقاتل أعظم درجة عند الله من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله لا يضيع أجر المحسنين، هذا وقد ذكر الله في سورة الواقعة فضل السابقين، وهذه المفاضلة لا تختص بزمن الرسول ﷺ وصحابته بل هو مثل مضروب لكل زمان تكون فيه الدعوة إلى الإصلاح الديني ضعيفة مقهورة تعترضها العراقيل والإذايات، ثم تقوى بعد ذلك وتتمكن فلا يستوي الذين أيدوها وعزروها في حال ضعفها وقلة أصحابها والذين ساندوها بعد قوتها وتمكنها وكثرة أنصارها وغلبتهم، وبذلك تكون الآية طويلة الإفادة، مستمرة على طول الدهر، ومختلف الأمكنة والأحوال، فهي تثبيت لأنصار دعوة الحق في كل زمان، وتحريض لهم على الثبات، ووعد لهم بأعلى الدرجات، ووعد حسن لجميع من انضم إلى دعوة الحق ولو بعد ظهورها وغلبتها، ولا تكون الغلبة أخيرا إلا لدعوة الحق إن صبر أصحابها وصابروا وثبتوا، والعاقبة للمتقين، ثم يأتي التعقيب بقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

جاء التذييل بهذه الآية مناسبا ليُعلم الله المؤمنين أن الله خبير بأحوال الجهاد والمجاهدين والمنفقين ودرجاتهم، وخبير بنواياهم، فهو يجازي كلاًّ بما يستحق ويزيد المحسنين من فضله، وقد جاء في الحديث الشريف: «سبق درهم مائة ألف».

﴿مَن ذَا الذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

هذه صيغة أخرى من صيغ التعبير القرآني البديع المعجز، وهي الصيغة الثالثة في هذه السورة في الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله، وكذلك يصرّف الله آياته للناس، وفي تصريفها تأثير على النفوس المختلفة الأمزجة كما تختلف الأذواق في أنواع الأطعمة والأشربة والطيب، وكذلك تختلف في التأثر بأنواع الأساليب، وربما تلين هذه النفس بصيغة من القول ما لا تلين به الأخرى، وتؤثر فيها صيغة أخرى، وتلك هي فائدة تصريف الآيات والله خالق النفوس عليم بأذواقها وميولها وأمزجتها، وما يصلحها، فقد جاءت الدعوة إلى الإنفاق أول مرة بذكر الاستخلاف بعد الدعوة إلى الإنفاق، فكان قبيحا بمن استخلف على مال أن يبخل بالذي استخلف فيه، ورب المال يأمره بإنفاقه، فكيف تبخل بمال غيرك وهو يأمرك بإنفاقه.

وجاءت الدعوة الثانية بتذكيرنا أن ميراث هذا المال هو لله وحده، فلست مخلدا فيه بل أنت ذاهب وتاركه، فاغتنم منه الإنفاق قبل أن تذهب وتتركه لورثتك أيها العاقل اعلم أن الميراث الأخير هو لله واهب هذا المال، فهو منه وإليه.

وجاءت الدعوة الثالثة بالتحريض إلى إقراض الله قرضا حسنا، وبيان جزاء هذا القرض ووصفه بالحسن يدل على بركة الإخلاف والنمو في الدنيا، والأجر الجزيل المضاعف الكريم في الآخرة، وليس بعد هذه البيانات الثلاثة وجه من وجوه الدعوة إلى الخير إلا وهو مبيّن، ولا باب من أبواب البر إلا وهو مفتوح ميسّر، فبداراً أيها المؤمنون إلى إقراض الرب الغني الكريم لتنالوا الأجر الكريم، وفي التعبير بالكريم كل معاني الخير والجودة والفضل والبقاء ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (النحل: ٩٦).

وفي التعبير بالاستفهام المراد به التحريض تأثير واستنهاض للهمم، وقد جيء باسم الإشارة بعده لتأكيد المعنى وتقويته، والقرض الحسن هو الإنفاق بطيب نفس واحتساب الأجر عند الله لا رياء ولا سمعة ولا مناً ولا أذى، وأن يكون ذلك من جيد المال لا من رديئه، ومن طيب الكسب لا من الحرام لأن الإنفاق من الخبيث لا يقبل فإنه تبارك

وتعالى طيب لا يقبل إلا طيبا، إن الله غني عنا ويطلب منا القرض الحسن ليضاعفه لنا أضعافا كثيرة، والله يقبض ويبسط، وهو الغني الحميد.

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم
بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا
انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا
فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ
الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ
فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ
أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ
فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ
الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ * أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ
اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن
قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ
﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

يعرض الله تبارك وتعالى في هذه الآيات مشهدا من مشاهد يوم القيامة فيه موعظة للذين آمنوا بالله واليوم الآخر لتخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق في القرآن

الكريم، ولتزول قساوة القلوب والغفلة عن يوم القيامة، وتلك هي حياة القلوب التي يضرب بها الله مثلا بحياة الأرض بعد موتها، ويخاطب الله تعالى بهذه الآيات البينات أهل النهى والعقول فيقول أخيرا لعلكم تعقلون.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

يعرض الله تبارك وتعالى في هذه الآيات مشهدا مؤثرا من مشاهد يوم القيامة الهائلة، وهو مشهد سعي المؤمنين والمؤمنات إلى الجنة واحتباس المنافقين والمنافقات في الظلام والعذاب، ويعرض المشهد في قالب الرؤية والمشاهدة ليكون أشد تعبيرا وأعمق تأثيرا، ويتعلق هذا الظرف الزماني "يومَ" إما بما سبق من الكلام وهو الأجر الكريم الذي هو جزاء من يقرض الله قرضا حسنا، وهذا الأجر تجزون به يوم القيامة، يوم ترى المؤمنين والمؤمنات...الآية، هذا وجه، وقد يتعلق بمقدم محذوف تقديره: اذكر يوم ترى المؤمنين والمؤمنات الآية، والكل مناسب وصحيح.

يوم ترى المؤمنين الذين صدّقوا إيمانهم بالعمل الصالح يسعى نورهم وهم ذاهبون إلى الجنة يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فهو نور يتحول معهم ولا يحتبس في مكان واحد فيجتازونه بل يصحبهم في سعيهم، فهو إمامهم بين أيديهم وعن أيمانهم، والأيمان رمز للسعادة واليمن، كما أن الشمال رمز للشقاوة والنحس، تلك الأيمان التي تقدم الخير لها اليوم كانت تتصدق وتقرض الله قرضا حسنا، وكان سعيهم إلى المساجد في ظلمات العتمات والسحر سببا لسعي النور يوم القيامة بين أيديهم، ولذلك ينسب إليهم فقيل نورهم لأنهم هم الذين اكتسبوه وصنعوه في الدنيا بأعمالهم الصالحة وقدّموه لهذا اليوم، فهو نور حقا ولهم خاصة لا يطمع المنافقون في الاقتباس منه فهو حرام

عليهم وعلى الكفار، ثم إن الملائكة الذين يسوقونهم إلى الرحمن وفداً يبشرونهم وهم في الطريق قبل وصولهم إلى الجنة التي أزلفت لهم.

﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

يبشرهم الملائكة بما يستقبلهم من النعيم المقيم في الجنات، وبالخلود فيها أبدا، وإن هذه الجنات تجري من تحتها الأنهار، فهي لا تيبس أنهارها ولا تنقطع ثمارها، ذلك هو الفوز العظيم حقا، فاعملوا يا أولي الألباب لهذا الفوز العظيم، وقدّموا لهذا النعيم المقيم.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ يُنَادُونَهُمْ، أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ، أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

هكذا على طريقة الأسلوب القرآني البديع يأتي مشهد الوعيد بعد مشهد الوعد يعرض موقف المنافقين الذين كانوا في الدنيا مختلطين مع المؤمنين في مساجدهم وأسواقهم ومجامعهم، تجمعهم كلمة التوحيد التي أعلنوا بها وعصموا دماءهم وأموالهم، غير أن هذه الكلمة لا تنفعهم يوم القيامة؛ لأن اعتقادهم كان مخالفا وأعمالهم أعمال المنافقين، وفي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»، رواه

البخاري، فالنفاق على ضربين: نفاق إضمار الكفر مع إظهار الإيمان، ونفاق خيانة وهو ارتكاب خصال المنافقين وهم الذين عناهم هذا الحديث الشريف، وكلاهما هالك يشمله وعيد هذه الآية، والناجي من وعيد المنافقين هم المؤمنون الصادقون في أقوالهم وأفعالهم ووعودهم، الموفون بعهودهم وعقودهم، المتقون في سرّهم وعلانيتهم.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾.

جاءت كلمة "يوم" هنا بدلا من أختها في الآية السابقة، والمراد به يوم القيامة دائما، والرؤية منسوبة إلى كل من يقرأ هذا القرآن ويتعظ به، فهي رؤية العين حين يرى الناس المنافقين والمنافقات يمتازون عن المؤمنين في ظلامهم بعدما ذهب المؤمنون بنورهم، قال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (يس: ٥٩)، يبقى رجال أهل النفاق ونساؤهم في الظلام فينادون المؤمنين ﴿انظُرُونَا﴾ أي أمهلونا نقتبس من نوركم ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾، لم يجبهم المؤمنون على هذا السؤال لهوانهم عليهم ولاشتغال المؤمنين بنعيمهم وتبشير الملائكة إياهم بالجنات والكرامات، لكن جاء الجواب هكذا مبنيا للمفعول، ولا عبرة هنا بالقائل بل العبرة بالمقول، ولعل القائل هم الملائكة.

﴿ارْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾.

ارجعوا إلى الدنيا لو كان يمكنكم الرجوع فالتمسوا نورا وأنى لكم النور، أما أهل النور يوم القيامة فقد تزودوا بهذا النور وقدموه لأنفسهم من الدنيا بإيمانهم وأعمالهم الصالحة، وكفّهم عن المحرمات.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾.

ضرب بين المؤمنين والمنافقين بسور حاجز في طرفة عين، ضرب بكن فيكون، فانقطعت أطماع أهل النفاق وأبلست قلوبهم، وأيقنوا بملاقاة العذاب والهوان، فلم يملكوا من أمرهم حينئذ إلا النداء من خلف السور، والسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، فلا يقربه أحد منهم طمعا في الدخول وهيهات، والله يعلم نوع هذه الرحمة التي من جهة المؤمنين الأبرار، ونوع ذلك العذاب الذي يلي الكفار.

﴿يُنَادُونَهُمْ، أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ، أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الاَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ اَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾.

هؤلاء المنافون ينادون المؤمنين بعدما ضرب بينهم بسور، ينادونهم ألم نكن معكم في الدنيا؟ ذلك لأن المنافقين كانوا مخالطين للمؤمنين في النسب والصهر والجوار في المساجد والأسواق والجامع، ولكنهم كانوا يخالفونهم في إضمار الشرك أو الإصرار على كبائر النفاق، فزايلوهم يوم القيامة، وضرب بينهم بسور، وبعد هذا النداء يجيبهم المؤمنون يقولون لهم: بلى لقد كنتم معنا ولكنكم فتنتم أنفسكم بالإعراض عن الحق وإضمار الشك والارتياب في أمر الله، والسخرية والاستهزاء بآيات الله ورسوله، والإصرار على كبائر الذنوب، وتضييع فرائض الله، وتربصتم، والتربص هو الانتظار، أي كنتم تتربصون الدوائر بالرسول والمؤمنين لأنكم كنتم للكفر يومئذ أقرب منكم للإيمان، وكنتم تتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، والله يعلم سرّكم ونجواكم، وارتبتم، أي شككتم في أمر الله ووعده ووعيده، وارتبتم في وعد الله نبيه بنصره للمؤمنين، وغرتكم تلك الأماني حتى جاء أمر الله، وهو الموت، وغركم بالله الغرور وهو الشيطان، يخدع أولياءه ويعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا.

﴿فَالْيَوْمَ لاَ يُوخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِيسَ الْمَصِيرُ﴾.

فاليوم تجزون بما كنتم تضمرون من النفاق وتعملون من الكبائر ولا يؤخذ منكم فداء ولو بملء الأرض ذهبا، يقال لهم هذا الكلام يومئذ توبيخا لهم وتيئيسا من الرحمة ويجمعون في الوعيد مع الكفار الذين شرحوا بالكفر صدرا، إشعارا لهم أن مصيرهم واحد، ولا ينفعهم ما كانوا يظهرون في الدنيا من الإيمان تقية للمؤمنين، فاليوم لا يقبل منهم فدية ولا من الذين كفروا فهم جميعا في جهنم وبئس المصير، قال تعالى:

﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِيسَ الْمَصِيرُ﴾.

مأواكم، أي مقركم الأخير الذي تأوون إليه، هي مولاكم، أي سندكم وناصركم وصاحبكم الذي تلتجئون إليه، يقال لهم هذا الكلام تهكما بهم وسخرية كما كانوا في الدنيا يسخرون بالمؤمنين ويضحكون منهم، فنار جهنم تنتظرهم انتظار المشتاق إلى مواليه ليجدوا فيها جزاءهم الذي يستحقونه على نفاقهم وكفرهم.

﴿وَبِيسَ الْمَصِيرُ﴾.

كلمة تعجب جاءت هنا للعظة والاعتبار، بئس النار مصيرا لأهل الكفر والنفاق فليقارن العاقل بين هذا التذييل في وعيد أهل النفاق والكفر وتذييل وعد أهل الإيمان بقوله تعالى: ذلك هو الفوز العظيم، وشتان ما بين المصيرين، فليعتبر المعتبرون، وليتعظ المتعظون.

﴿أَلَمْ يَانِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الاَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

بعد ذكر الوعد والوعيد في مشهدين هائلين من مشاهد يوم القيامة تأتي هذه الآية موعظة للمؤمنين وذكرى لهم ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، فهي موعظة للمؤمنين الأوائل والأواخر الذين يأتون من بعدهم وربما تصدأ القلوب بطول الأمد على وجود آيات القرآن بين أيديهم فيكون فيها شيء من الغفلة عن دلالتها لطول اعتيادهم لها كما يعتاد

الناس آيات الله في الأرض والسماء وما بينهما وفي أنفسهم، فلا يتدبرونها كما ينبغي فنبهنا الله تعالى بهذه الآية المفتتحة بحرف التعجب.

﴿أَلَمْ يَانِ﴾.

أما حان الوقت الذي تخشع فيه قلوب الذين آمنوا لذكر الله وما نزل من الحق في هذا الكتاب العزيز والذكر الحكيم، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبلهم فطال عليهم الأمد بوجود التوراة والإنجيل بين أيديهم فقست قلوبهم، وراحوا يبدلوها ويغيرونها وأعرضوا عن الحق الذي فيها، وكثير منهم فاسقون عن أمر الله، وبمفهوم المخالفة نعلم أن بعضا منهم ليسوا فاسقين، وهذا حكم الله العادل لا يعمم بالحكم بل يستثني عباده الذين علم منهم التقوى والصلاح والاستقامة، وفي ذلك إرشاد لنا حتى لا نعمم الحكم على الطائفة أو الأمة كلها فنهلك بذلك التعميم بل نستثني كما استثنى ربنا تبارك وتعالى في غير موضع من كتابه الكريم، ولما نزلت هذه الآية نظر المسلمون بعضهم إلى بعض مشفقين من تأنيب هذه الآية وتحذيرها، وكذلك ينبغي لمن يقرأ آيات الله قراءة تدبر أن يتهم نفسه الأمارة بالسوء عند قراءة مثل هذه الآيات الكريمة من كتاب ربنا، وما يذكر إلا أولوا الألباب.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ثم أخيرا بعد هذه الموعظة البليغة يوجه الله الخطاب إلينا معشر المؤمنين التالين لآيات الله المبينات لنعلم ونفقه ما نزل من الحق في كتاب ربنا عز وجل.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

أما إحياء الأرض بعد موتها بإنزال المطر عليها فهو أمر مشاهد متكرر ومعلوم في كل بقاع الأرض نجودها ووهادها، سهولها وتلالها، أوديتها وشعابها، فما المقصود بقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا﴾ ذلك لنعلم أن الذي يحي الأرض بمطر السماء كذلك يحي

القلوب والنفوس بوحي السماء، فبينما تكون القلوب غافلة ميتة إذا بها تنتعش وتحيا حين تعي وتعقل ما نزل من آيات الله البينات.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ما أعظم التذييل بهذه الآية الكريمة في هذا المقطع البليغ البديع! إنه معجز حقا بالمغزى المقصود في ضرب المثل بحياة الأرض بعد موتها، لقد بيّن الله تبارك وتعالى لنا الآيات وفصلها تفصيلا يعيه الذين يعقلون وتحيا به قلوبهم، وهذه نعمة من الله عظمى على عباده المؤمنين الذين يتلون كتاب الله وتزيدهم آياته إيمانا مع إيمانهم، ومثلهم في الناس كمثل الأرض الطيبة تمتص الماء فتخرج نباتها بإذن ربها، وهم الذين نفعهم الله بما أنزل عليهم من الهدى والحكمة، وهداهم إلى الصراط المستقيم، ونفعوا الناس بما أنعم الله عليهم، فهم الهداة المهتدون الصالحون المصلحون.

إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟
ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ
عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا
لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ
وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ
مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ
مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟

﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِن
مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن
قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا
عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

يأتي التحريض على الإنفاق في سبيل الله والتصدق مما جعلنا الله مستخلفين فيه، وأن نقرض الله قرضا حسنا، وكل ذلك دعوة إلى البذل والسخاء، وإن ذاك من أفضل القربات وأجل الأعمال التي يشكرها الله ويباركها ويجزل الثواب لأصحابها، يأتي كل ذلك متكررا في أساليب متنوعة لها تأثير عجيب في النفوس وتليين للقلوب الواعية، فإذا بها تستجيب لنداء ربها فتنفق بسخاء، وهي موقنة بثواب التصدق والإنفاق في سبيل الله راغبة إليه، واثقة بصدق وعده وحسن وفائه للمقرضين بالأضعاف المضاعفة، قال تعالى:

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

يؤكد الله الخبر تأكيدا ليستيقن الذين آمنوا بوفاء قضاء الله للذين أقرضوه قرضا حسنا بنية خالصة يبتغون وجه ربهم الأعلى ولسوف يرضى، هؤلاء بحسن الثواب، فما تقدمه اليوم فكأنما تقرضه لله تعالى قرضا حسنا وسيوفيك إياه يوم القيامة أضعافا كثيرة، والله غني كريم، وسيكون لك عنده أجر كريم، والكريم من كل شيء أجوده وأحسنه

وأدومه، ووصف في صدر السورة بأنه أجر كبير، فهو كبير حقا في جنة عرضها كعرض السماء والأرض، فأعمالك أيها الإنسان صغيرة وحقيرة والأجر عند الله عظيم وكبير للمخلصين، ولا تصح نسبة ما بين علمنا وثواب الله، فهو منه تفضل وتكرم وامتنان، وجزاء على الإحسان بإحسان أعظم منه، وكذلك يجزي الله المحسنين والمحسنات من عباده.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِئَايَاتِنَآ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

تبين لنا هذه الآية الكريمة حقيقة المؤمنين والمؤمنات الذين سبق ذكرهم من قبل، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، ولكل قول حقيقة فليست دعوى الإيمان وحدها تكفي في نيل هذا المصير السعيد العظيم، ولكن الإيمان عقيدة راسخة في القلب تصدقها الأقوال والأفعال والأخلاق، فما هو البيان في هذه الآية بكل إيجاز ووضوح:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾.

تأتي هذه الآية معطوفة على الآية التي سبقتها عطف بيان فقد بين لنا في هذه الآية أن المصدّقين والمصدّقات هم الذين آمنوا بالله ورسله، وصدقوا بالحسنى، ولذلك تصدّقوا بأموالهم في سبيل الله، وأقرضوا الله قرضا حسنا يرجون ثوابه يوم الجزاء، أولئك الذين آمنوا إيمانا حقيقيا بالله ورسله ولم يرتابوا كما ارتاب المنافقون، ويأتي الخبر مؤكدا بمؤكدين على صدق إيمانهم وهما ضمير الفصل وتعريف الخبر بالألف واللام فقال تعالى:

﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

الإشارة إليهم بالبعد لقصد تعظيم شأنهم وعلو درجتهم ومزيد الاعتناء والحفاوة بهم، فهم الصديقون حقا؛ لأن أفعالهم صدقت أقوالهم فلا يزالون يصدقون ويتحرون الصدق حتى كتبوا عند الله صديقين، والصديقين صفة وصف بها أنبياء الله تعالى في القرآن، وتليهم درجة الشهداء الذين وهبوا أرواحهم في سبيل الله تعالى، فهم طبقة عليا من المؤمنين، والشهادة بنت الصديقية ولذا قرن الشهداء بالصديقين وأضافهم إليه بعندية التشريف والتكريم والخصوصية، فهم أحياء عند ربهم يرزقون، وهم بعض الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا فأولئك وعدهم الله بالحسنى فقال تعالى:

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾.

الأجر من الله والنور من الله، وإنما نسبه إليهم تكرما وتفضلا منه عليهم نسبة المسبب إلى سببه لأنهم المتسببون لنيل الأجر والنور بصدق إيمانهم واحتسابهم في أعمالهم وإخلاصهم فيها لربهم فاستحقوا الأجر والنور بفضل الله والله ذو الفضل العظيم، ثم على طريقة الأسلوب القرآني البديع المزدوج يثني بذكر الصنف الآخر من الناس وهم الكفار المكذبون، فيقول تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

والذين كفروا وكذبوا بآيات الله وأنكروا الحق وهو الكفر الصراح وهو كفر الشرك أو قالوا آمنا ولكنهم نافقوا وارتابوا في أمر الله أو عملوا أعمال المكذبين، ارتكبوا الكبائر وأصروا عليها إلى الممات أولئك أصحاب الجحيم الذين أعد الله لهم عذابا أليما، هكذا يحذرنا الله تبارك وتعالى من مصير الكافرين المكذّبين ويخرجنا بآياته البينات من الظلمات إلى النور.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ

يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

هكذا تبدأ الآية بالأمر بالعلم لأن الأمر مهم، وما يذكّر إلاّ أولوا الألباب، اعلموا أيها العقلاء أن حقيقة هذه الحياة الدنيا ومتاعها ما هو إلا لعب كلعب الصبيان ولهو يلتهي به الكبار كما يلتهي الصبيان بلعبهم ثم ينفد ويتلاشى ولا بقاء له فما مثله إلا كمثل ماء نزل من السماء فأنبتت الأرض به زرعا وعشبا ثم يهيج ثم يصير حطاما تذروه الرياح، وفي الحياة الدنيا زينة في الأموال والأولاد والبساتين والقصور، ويتفاخر أبناء الدنيا بالأنساب والأحساب والأموال ويتكاثرون بها وبالأولاد، وهذه الأشياء كلها تذهب وتفنى ولا بقاء لها، أما نعيم الآخرة فهو النعيم حقا لأنه يدوم، وكذلك عذاب الآخرة فهو شديد ودائم.

وذكر المغفرة هنا يرمز إلى أن رحمة الله ونعيمه لا ينال إلا بمغفرة الله ومع المغفرة رضوان الله لمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها ولم يغتر بالحياة الدنيا، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور، وكثيرا ما اغتر الناس بمتاع الدنيا الفاني فآثروه على الباقي فخسروا أنفسهم وأهليهم وذلك هو الخسران المبين، وما أشد وقع هذه الآية في قلوب ذوي الألباب، فنظروا إلى حقيقة الحياة الدنيا فلم يغتروا بها، فما مثلهم إلا كمثل غيث نزل من السماء فنبت به زرع أعجب الكفار، أي الزراع نباته، وجاء التعبير هنا بالكفار وليسوا كفار الملة بل هم الزراع لأنهم يبذرون الحب في الأرض ويكفرونه أي يغطونه، والكفر هو التغطية ثم يهيج الزرع، أي يدرك فتراه يميل إلى الاصفرار فيكون حطاما، وتلك نهاية كل حي من إنسان أو حيوان أو نبات، وفي ذلك عبرة للمعتبرين وذكرى للذاكرين.

﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَّشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: سابقوا أي بادروا أو سارعوا إلى نيل مغفرة من ربكم وجنة واسعة عرضها كعرض السماء والأرض، والمسابقة من صيغة المفاعلة عمل يشترك فيه اثنان فصاعدا، وشأن المؤمنين الأبرار أنهم يتسابقون في فعل الخيرات لينالوا مغفرة من ربهم لذنوبهم ولينالوا رضا ربهم في جنة عالية عرضها السموات والأرض، وهذه الجنة التي أعدت للذين آمنوا بالله ورسله إيمانا راسخا صادقا تمتلئ به قلوبهم وتلهج به ألسنتهم وتعمل به جوارحهم، فهم لا يزالون يسارعون في فعل الخيرات ويبتعدون عن المنكرات، ويرغبون في الباقيات الصالحات، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وقد أعدّ الله جنّته لعباده المؤمنين العاملين، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، والله ذو الفضل العظيم.

ومن فضله العظيم هداية المؤمنين وتوفيقهم إلى ما فيه سعادتهم، فهم في هذه الدنيا يغتنمون ساعات أعمارهم فيعمرونها بذكر الله وتلاوة كتابه، والأعمال الصالحات، ولا يتركونها تمر فارغة ذلك لأنهم لما علموا إنما خلقوا لعبادة ربهم عملوا بما علموا فغنموا وفازوا وسعدوا، ولعل أحدا يفهم خطأ أن العبادة هي التبتل والرهبنة والجلوس تحت سواري المساجد بياض النهار وسواد الليل، هذا خطأ فادح وهو ما يطعن به الملحدون في الإسلام، ويرمون أهله بالكسل والسلبية، كلا بل الإسلام دين العمل والكفاح والكدح لعبادة الله بما شرع واكتساب الرزق الحلال بالطرق المشروعة، وكل ذلك عبادة، وقد خلق الإنسان وجعله خليفة في الأرض، وجعله صالحا لعمارتها، وأمرنا بذلك أمراً فقال جل من قائل: ﴿هُوَ الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك: ١٥)، وقال: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي

الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (المزمل: ٢٠)، فقرن الضرب في الأرض وطلب الرزق في مناكبها مع القتال في سبيل الله في نسق واحد، وما ذلك إلا لمكانة الكدّ في طلب الرزق الحلال عند الله، ولو شئنا لاستشهدنا بنصوص كثيرة في الموضوع، وفيما عرضنا كفاية لمن فقهه الله في الدين وألهمه رشده.

﴿مَآ أَصَابَ من مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ، إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِّكَيْلاَ تَاسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَاكُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ الذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَامُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَّتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

يقرر الله تبارك وتعالى في ذلك قاعدة من قواعد الإيمان، وهي مسألة القضاء والقدر، يبين الله لنا أن كل شيء يقع في هذا الكون الواسع إنما هو بقضاء من الله وقدره، وبخلق الله إياه وعلمه به قبل أن يخلقه، وهو مكتوب في اللوح المحفوظ.

﴿مَآ أَصَابَ من مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ، إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

ما أصاب من مصيبة من قحط أو زلزال أو غرق أو غيره في الأرض ولا في أنفسكم من آفات أو مرض أو موت إلا في كتاب، وهو مكتوب بعلم الله في اللوح المحفوظ من قبل أن تقع ويبرأها الله إن ذلك الخلق والعلم والقضاء والقدر يسير على الله، هين وليس بعسير، يقول لنا هذا ليزيل ما يلقيه الشيطان من الريب في قلوب بعض الناس ابتغاء تأويله، واستبعادا لدقيقه وجليله فيزيل هذا الوهم من القلوب الضعيفة، ولن يؤمن أحد ولن يبلغ حقيقة الإيمان حتى يؤمن بالقدر خيره وشره من الله، وقد جاء هذا المعنى في حديث صحيح عن النبي ﷺ، ثم يبين الله تعالى لنا حكمة هذا البيان في طمأنة قلوبنا فيقول:

﴿لِكَيْلاَ تَاسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَاكُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

هذا لكيلا تأسوا على ما فاتكم، والأسى هو الحزن الشديد الذي جاوز حده على ما فاتكم من إدراك ما تحبونه أو فاتكم بذهابه بعد أن كان تحت أيديكم فلا تجزعوا لهذا المصاب وتعلمون أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، ولا تفرحوا فرح طغيان وأشر بما آتاكم من النعم فتتلقونه بقلوب مطمئنة صبورة راضية بقضاء الله، شكورة لأنعم الله، عالمة أن كل نعمة هي من الله.

﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

والله يمقت المختالين الفخورين على الناس الذين تبطرهم النعم وتطغيهم، والمختال هو الذي يُعجب بحاله ويتعاظم على الناس بالافتخار، والفخور هو الذي ينظر إلى الناس بعين الاحتقار، وكلا الخصلتين مذموم، ومن كانت فيه هاتان الخصلتان لا يحبه الله، فلا يزال مذموما مخذولا، ولا يحالفه التوفيق حتى يرعوي وينزع عن هذين الخلقين الذميمين.

﴿الذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَامُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَّتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

الأخلاق المذمومة بعضها من بعض، والبخل الذي هو منع الصدقة والمعروف يقارنه كراهية البذل والسخاء حتى ولو من غير البخيل، فهو يبخل ويأمر الناس بالبخل، ويعرض عن البر والمعروف، ولا يسمع الداعي إلى فعل الخير حتى ولو كان الله يدعوه في القرآن، ذلك لأن شح النفس مستحوذ عليه فيداه مغلولتان إلى عنقه، وحب الفخر والخيلاء تركه أنانيا لا يفكر إلا في نفسه، ولا يبالي بالفقراء واليتامى والمحاويج، بل حظ الفقراء منه الاحتقار وحظ اليتامى منه القهر والدع، وحظ المحاويج

منه البخل والمنع، والعياذ بالله، ومن يتول عن داعي الخير والسخاء فإن الله الغني الحميد.

وما أعظم التذييل هنا بهذه الآية التي تحمل هذين الاسمين الكريمين لله تبارك وتعالى، وما ذلك إلا لتفهم أن الله لما دعانا إلى الإنفاق والقرض الحسن ما ذاك لحاجته إلينا بل هو الغني الحميد، إنما يدعونا لما فيه خيرنا وسعادتنا وغنانا، وفيه نيلنا من الحمد فهو الحميد يدعونا إلى المحامد وأن نتخلق بأخلاقه العليا، ومن يتول ويعرض فهو الخاسر المذموم النادم، إن الله إذا أنعم على عبد أحب أن يظهر أثر نعمته عليه، ومن ذلك أن يتمتع بزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق في غير إسراف ومخيلة، وينفق مما رزقه الله في سبيل الله، فهو الغني يُخلف على عباده ما أنفقوا وهو خير الرازقين، وهو الجواد يأمر بالجود وينهى عن البخل.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ
وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ
شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ
إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ
وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا
وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا
فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا
مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا
حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ
مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا
بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا
تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ
أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ
الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

يقيم الله الحجة على عباده بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فهو يخبرنا في أواخر هذه السورة الكريمة ويؤكد الخبر بلام القسم وقد وبنون العظمة.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

لقد أرسلنا رسلنا بالحجج والبراهين البينات والدلائل البينات الواضحات التي لا ريب فيها ولا لبس، وأنزلنا مع الرسل الكتب التي فيها الهدى والنور والفرقان، فلا يضل بعدها إلا شقي، وجاء التعبير بالكتاب على صيغة الإفراد ليدل على الجنس ولأنها كلها تنزيل من رب العالمين، فهي تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم، وأنزل الله في هذه الكتب الميزان ليقوم الناس بالقسط، فإذا حكموا بما في كتاب الله فقد أقاموا موازين القسط، وحكموا بالعدل، ولا شيء أحب إلى الله من العدل، ولا شيء أبغض إليه من الجور والظلم، فقد حرّم الظلم على نفسه وحرمه على عباده، ونهاهم عن الظلم وأمرهم بالعدل والإحسان، ومدح الذين يهدون بالحق وبه يعدلون.

إن الله تبارك وتعالى بعث في كل أمة رسولا يبلغهم رسالة الله ويبين لهم ما أنزل إليهم بأقواله وأفعاله وهديه، وجعل العلماء خلفاء الرسل، يبلغون رسالات الله من بعدهم، وأمر الناس أن يرجعوا إليهم عند التباس الأمور فقال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾، فكتب الله وشرائعه هي الموازين القسط التي تنظم للناس علاقاتهم بربهم، وتبين لهم الحلال والحرام، ومكارم الأخلاق، وتنظم علاقاتهم ومعاملاتهم بين بعضهم البعض في جميع شؤونهم الدنيوية والأخروية، والسلمية والحربية، وتنظم حياة الأسرة من زواج وطلاق وعدد وحضانة، وتحدد المسؤوليات كلها من خلية الأسرة التي هي اللبنة الأولى في المجتمع إلى مسؤولية الإمام الأكبر في رعيته، وما بين ذلك درجات.

وتلك الموازين هي التي تحدد الوسطية في الإسلام، فلا تضخم جانب الروح على جانب الجسد ولا العكس، ولا تضخم جانب الفرد على حساب جانب المجتمع ولا العكس، وهي التي تحدد الحدود في البيع والشراء والإجارات والأكرية، وتحرم الغشّ والربا والخيانة والرشوة والاحتكار، وهي التي تنظم العلاقة بين الأغنياء والفقراء، وبين أرباب الأعمال ومستخدميهم، وتجعلها علاقة طيبة مبنية على التعاون والتكافل

والتوادد والتراحم، فلا بغض ولا حقد ولا حسد من جانب العمال، ولا غبن ولا حيف ولا احتكار ولا استغلال من جانب أرباب الأعمال، هي موازين الرحمن الرحيم، العليم الحكيم، من قام بها بالقسط من فرد أو أمة سعد وفاز ونجح، ومن تولّى وأعرض عنها ضلّ وخاب وخسر، فما أعدلها من موازين وما أعظمها من شرائع شرعها رب العالمين، رحمة للعالمين، وبيّنات وهدى للسالكين، ثم قال تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

جاء التعبير بالإنزال في شأن الحديد، ولا غرابة في ذلك، وإن كان الحديد من معادن الأرض لأن كل شيء مخلوق في هذه الأرض إنما هو بتكوين وتقدير من الخالق، وأمر الخالق من السماء، فهو العلي الكبير، وكل شيء منه إنزال، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ (الزمر: ٦)، فالحديد من أعظم نعم الله تعالى علينا وأكثرها نفعا في السلم والحرب، لذا يمتن الله علينا بهذه النعمة ويلفتنا إلى خطرها، والمقصود من إنزاله فهي القوة الكبرى للانتصار لدعوة الله وحمايتها في هذه الأرض، وهي العون القوي لولي الأمر للقيام بالقسط في رعيته، ويزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: وأنزلنا الحديث فيه بأس شديد ومنافع للناس، في الحديد قوة شديدة في الحرب ومنافع للناس في السلم، فمنه تصنع الأسلحة الخفيفة والثقيلة والطائرات المحاربة، والدبابات والمصفحات والمدرعات والصواريخ، ومنه تصنع الآلات والسيارات والطائرات حاملات المسافرين وأدوات الفلاحة والصناعة وسائر الأجهزة التي ينتفع بها الناس.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

بعد ذكر الحديد وبأسه الشديد تأتي هذه الآية المناسبة لأن الجهاد الذي شرع لنصر دين الله وإقامة الحدود إنما هو بالحديد، فامتن الله علينا بالحديد الذي نستعين به على نصر دين الله ليعلم الله الذين ينصرون الله وينصرون رسله بالغيب، ذلك لأن الله هو الظاهر والباطن، فهو الظاهر بآياته في مخلوقاته، والباطن في ذاته فلا يدرك بالحواس، ولذا جاء مدح المؤمنين بالغيب في أوائل سورة البقرة، وجاء في سورة الملك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الملك: ١٢)، وكذلك الذين يأتون بعد الرسل، فإيمانهم بالرسل إيمان بالغيب، فقد جاء في الحديث: «وإنما إخواني الذين يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني»، ونصر الله هو نصر دينه والجهاد دونه، والله قوي قاهر عزيز لا يغالب فهو منتصر بنفسه، لا يحتاج إلى نصر أحد من عباده، بل هم المحتاجون إلى نصره، والله ينصر من ينصره.

وعِلْم الله بالذين ينصرونه ثابت قبل وجودهم إنما يثبت هنا العلم الذي يترتب عليه الجزاء، والجزاء لا يثبت إلا بعد وقوع النصر فعلا، والتذييل بهذين الوصفين "قوي عزيز"، مناسب حتى لا يظن أحد أن الله محتاج إلى نصر عباده، تعالى الله عن ذلك فهو القوي العزيز.

﴿وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوءَةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الاِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمُ، إِلاَّ ابْتِغَآءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَئَاتَيْنَا الذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمُ، أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

بعد ذكر الرسل عامة والكتب يخصص الله تبارك وتعالى ذكر البعض منهم من أولي العزم لعلو درجتهم وفضلهم، وهو الذي قال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ

بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، وهؤلاء المخصصون هنا بذكر أسمائهم بعد التعميم هم نوح وإبراهيم ثم عيسى عليهم السلام، وقبل أن نتكلم عن هؤلاء الثلاثة نذكر الحكمة من ذكر إرسال الرسل وإنزال الكتب قبل رسولنا خاتمهم صلى الله عليه وعليهم أجمعين وسلم تسليما كثيرا.

الحكمة من ذكر إرسال الرسل قبل رسولنا، وأن من أممهم مهتد بهم وكثير منهم فاسقون، فيه تسلية لقلب النبي ﷺ والمؤمنين معه حتى يصبروا ويتأسوا بمن قبلهم من المؤمنين الصابرين، وفي غير هذه الآية التصريح بذلك، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، وفيه تثبيت للإيمان في قلوبهم أن الرسالة طريقة ثابتة من أول عهد الإنسان في هذه الأرض لأنها هداية للبشر، فليس رسولنا بدعا من الرسل، فما هو إلا واحد من تلك القافلة المباركة، وهو آخرهم، فكم مضى قبله من الأنبياء والمرسلين، ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾ (المؤمنون: ٤٤).

وفي ذكرهم تقوية لنا على تحمل تكاليف الأمانة العظمى، فقد كلف الذين من قبلنا بمثل ما كلفنا بالقيام به، والانتهاء عنه، فنجد ذكر قواعد الإسلام الكبرى من التوحيد وأمهات الأخلاق والصلاة والزكاة والصوم في شرائع من قبلنا، وكذلك الحج من لدن سيدنا إبراهيم عليه السلام، فالدين واحد وأمهات الأخلاق وشرائع الإسلام الكبرى واحدة، وربما تختلف كيفية الأداء من شريعة لأخرى على أن الله وضع عنا الإصر الذي حمله من قبلنا، فشريعتنا ميسّرة سمحة محفوفة بالتيسير والرخص، فلنتحملها صابرين اقتداء بالذين من قبلنا.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

يخبرنا ربنا تبارك وتعالى خبرا مؤكدا بمؤكدين قاطعين للشك أنه أرسل نوحا وإبراهيم برسالة السماء، وأنه جعل في ذريتهما النبوءة والكتاب، فمن ذريتهما من اهتدى بهدي الله، وكثير منهم فاسقون، فمن ذريتهما محسن وظالم لنفسه، ولا ينفع الظالمين والفاسقين الانتساب إلى الأنبياء والرسل ولا يغض من شرف رسل الله كثرة الفاسقين من ذريته إذ كل نفس بما كسبت رهينة، وكل هذا ليعلم أهل الكتاب أن الرسالة رحمة من الله يجعلها حيث يشاء، ويختار لها من يشاء من عباده، وليست مقصورة على بني إسرائيل ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالاَتِهِ﴾ (الأنعام: ١٢٤). ثم يخبرنا ربنا بشيء من التفصيل عن الرسول الذي هو قبل نبينا محمد ﷺ وهو المسيح ابن مريم فيقول تعالى:

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الانجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمُ، إِلاَّ ابْتِغَآءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَئَاتَيْنَا الذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمُ، أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

ثم قفينا على آثارهم أي أرسلنا بعضهم تبعا لبعض في فترات من الأزمان، والعرب تعبر لمن يأتي بعد شخص تقول يقفوه، يتبعه، والقرآن نزل بلسان عربي مبين، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الإسراء: ٣٦)، فهي رسل متتابعة بعضهم يقفو بعضا حتى ختموا بأكرمهم على الله سيدنا محمد ﷺ فما هو بدع من الرسل، ثم قفى الله تبارك وتعالى بإرسال عيسى بن مريم آخرهم قبل خاتم الأنبياء والمرسلين، وليس بينهم نبي وقد بشر به فقال: ﴿وَمُبَشِّراًۢ بِرَسُولٍ يَاتِي مِنۢ بَعْدِي اسْمُهُ، أَحْمَدُ﴾ (الصف: ٦)، وأنزل الله على عيسى بن مريم كتابه الإنجيل فيه الهدى والنور، ومدح الله الذين آمنوا به واتبعوه فقال فيهم:

﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً...﴾ الآية.

يخبرنا الله تعالى أنه جعل في قلوب الذين آمنوا بالمسيح واتبعوه رأفة، وهي رقة تدرك القلب هي فيه أعمق من الرحمة وأبلغ أثرا ورحمة، أي عطفا وشفقة على الضعفاء، والراحمون يرحمهم الرحمن، ورهبانيّة، وهي مشتقة من الرهب وهو الخوف الشديد، ومعناها هنا الترهّب، وهي حالة خاصة تتمثل في الانقطاع والتبتّل لعبادة الله والهروب من الناس، وحبس أنفسهم في صوامع وأديرة تكون على رؤوس الجبال بعيدة عن المدن ومجتمعات البشر، وهي حالة مبتدعة ما فرضها الله عليهم ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله، وليس الابتداع هنا في الدين؛ لأنهم لم يبتدعوا عبادة غير التي شرع الله، لكن ابتدعوا الانقطاع لها بعيدا عن الناس، فارين من أقوامهم إلى رؤوس الجبال للتفرغ لذكر الله، بعيدين عن فتن الدنيا، وقد كان رسول الله ﷺ يتحنث في غار حراء على رأس جبل من جبال مكة فارا من جاهلية قريش.

وهذا يفتح لنا بابا من الفقه وهو أن البدعة قد تكون لغوية ولا تكون بمعناها الشرعي حتى تخالف الهيئة التي شرعها الله لعباده، فلو اتخذ الإنسان وردا من أوراد العبادة في زمان معيّن من ليل أو نهار ما افترضه الله عليه ولكنه ألزم به نفسه فذلك غير محظور بل هو مستحب مرغوب فيه، إنما ينبغي أن يواظب عليه ولا يتخلف عن أدائه ويفشل بعد النشاط، فذلك هو المكروه الذي لا ينبغي، فليس بدعة مكروهة في الدين ما كان من العبادة بما شرعه الله وموافقا لروح الشريعة، وذلك كتجميع الناس في قيام رمضان وراء قارئ واحد، فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال: نعمت البدعة هذه، فإن الله تبارك وتعالى لم ينكر عليهم هذه الرهبانية التي ابتدعوها ابتغاء رضوان الله لكن أنكر على الذين لم يرعوها حق رعايتها، والذين فسقوا أما الذين رعوها فقال فيهم:

﴿فَئَاتَيْنَا الذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ، أَجْرَهُمْ﴾.

ونحن معشر أمة محمد لا نقلدهم في هذه الرهبانية لأن نبينا محمدا ﷺ قال: «لا رهبانية في الإسلام، ولكن جهاد ونية»، ذلك لأن شرع من قبلنا شرع لنا إذا قصه الله أو نبيه علينا على وجه التشريع من غير إنكار، أما ما كان غير ذلك فليس شرعا لنا، هذا هو القول الراجح عندنا، ثم إن الله تبارك وتعالى أخبرنا في هذه الآية الكريمة أن الله جعل في قلوب الذين اتبعوا المسيح بن مريم رأفة ورحمة، وذلك لأن شريعة المسيح جاءت بالرأفة والرحمة، والأمر بالعفو والتسامح، وكذلك جاء في سورة المائدة: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلذِينَ ءَامَنُواْ الذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (الآيات: ٨٢-٨٣)، وكذلك يروي لنا التاريخ عن طوائف نصارى الحبشة ونصارى نجران فقد قدموا على رسول الله ﷺ مسلمين، وكان منهم الذي ذكر الله في حقهم.

هذا في الذين اتبعوا المسيح حقا وآمنوا بالنبي محمد ﷺ ممن أدركوا زمانه وبعدهم؛ لأن المسيح عليه السلام بشر به، فالذين كفروا بمحمد لم يتبعوا المسيح بل خالفوه وكفروا بما جاء به، ومن كفر برسول واحد فقد كفر بجميعهم.

﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِه يُؤتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِه وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِه وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤتِيهِ مَنْ يَّشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

يختم الله السورة بهذه الخاتمة الرائعة المناسبة لجو السورة؛ لأن السورة كلها دعوة إلى الإيمان وتقوية لعقيدة الإيمان في قلوب المؤمنين وترسيخ للإيمان باليوم الآخر، وعرض لبعض مشاهده المؤثرة، وفيها ذكر إرسال الله الأنبياء والرسل بالكتب

والشرائع، وأخيرا يدعونا الله تبارك وتعالى لتقوى الله والإيمان برسوله، ويذكر لنا ما أعدّ من الجزاء الأوفى على ذلك.

﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُوتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

يوجه الله النداء إلى الذين آمنوا يأمرهم أن يؤمنوا بالله ورسله ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، وليحققوا إيمانهم بالعمل الصالح والاقتداء برسوله، واتباع هديه وسنته، فكأنه يقول لنا إن كنتم مؤمنين حقا فاعملوا بمقتضى إيمانكم عملا صالحا يصدقهُ، واتّبعوا الرسول الذي آمنتم به وصدقتموه تستوجبوا الجزاء الحسن، ونفهم من الآية الكريمة أن الإيمان بمجرد الادعاء لا ينفع ولا يستحق مدّعيه الجزاء الحسن حتى يرفق دعواه بالحقيقة التي تؤيده وهو العمل الصالح، والاقتداء برسول الله، والائتساء به فتلك هي ثمرة الإيمان بالله وبرسول الله.

﴿يُوتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: إن تؤمنوا بالله ورسوله حق الإيمان يؤتكم ربكم كفلين، أي نصيبين من رحمته، وليس المقصود بالكفلين مضاعفة الحسنات بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، بل يؤتكم قسمين ثم تضاعف كل قسمة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ولنذكر سبب نزول هذه الآية حتى يتضح المقصود من معنى الآية، ذلك أنه لما نزل قوله تبارك وتعالى: ﴿الذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُومِنُونَ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُوْلَٰئِكَ يُوتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (القصص: ٥٢- ٥٤)، جعل يهود المدينة يفخرون على المؤمنين يقولون لهم: من آمن منا برسولكم فهو خير منكم له الأجر مرتين ومن لم يؤمن به فله الأجر مرة، فنحن كلنا

إلى الجنة، فأنزل الله هذه الآية ردا على زعمهم وتطمينا لقلوب المؤمنين أن لهم الأجر مرتين أما من لم يؤمن منهم بمحمد ﷺ فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾.

ومن ثمرات التقوى والإيمان بالله ورسوله النور الذي يقذفه الله في قلوب المتقين فيفتح به بصائرهم، فهم يمشون في الناس الحيارى بنورهم لا يضلون كما يضل كثير من الناس الذين يفقدون هذا النور، وكذلك يمشون يوم القيامة نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، فهم قد أخذوا نورهم من الدنيا بتقواهم وإيمانهم واتباعهم لرسول، بينما يكون المنافقون ضيعوه بمخالفتهم وارتيابهم فهم يلتمسونه يومئذ فلا يجدونه، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومن ثمرات الإيمان والتقوى والاتباع مغفرة الذنوب، فإن الله تبارك وتعالى يتوب على المؤمنين المتقين المنيبين إلى ربهم، ويغفر جميع ذنوبهم التي تابوا منها ولم يصروا عليها، وليست المغفرة إلا للتائبين، ولا يوفق للتوبة النصوح إلا المتقون، فلا يطمعن أحد في المغفرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار.

﴿لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

جرى التعليل هنا موصولا بلا التي يسميها النحاة في مثل هذا المقام زائدة، أي ليعلم أهل الكتاب... الآية، ولكن المفسرين يسمونها صلة تأدبا مع الله؛ لأنه ليس في كتاب الله حرف زائد فما من حرف وإن سمي في اصطلاح النحاة زائدا ولكنه جيء به في القرآن ليفيد معنى أو معاني، وهذا نظير اللاءات التي تجيء قبل القسم: ﴿لا أُقْسِمُ﴾ ونظير قول الله موبخا إبليس على عدم السجود: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ﴾ أي ما منعك أن تسجد.

وهنا يكون معناها ليعلم أهل الكتاب ألاّ يقدرون على شيء من فضل الله، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فليس فضل الله ورحمته بيد أحد من عباده، ولا يقدر أهل الكتاب ولا غيرهم على منع شيء من فضل الله إذا أتاه أحدا أو أمة من الناس كما لا يقدرون على إيتائه إياه إذا منعه الله، فالفضل كله بيد الله، فهو ملكه يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، فمن فضله أنه يؤجرنا على الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ والعمل بشريعته ويؤجرنا أيضا على الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله، والشهادة على تبليغ رُسل الله الرسالات كما جاء التصريح بهذا الإيمان في خواتم سورة البقرة، فنحن نؤمن بهم جميعا ولا نفرق بين أحد من رسله، فنحن الآخرون الأولون، السابقون يوم القيامة، ويؤتينا الله الأجر المضاعف على إيماننا وأعمالنا القليلة في أعمارنا القصيرة.

وقد جاء حديث في صحيح البخاري بهذا المعنى: عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مثلكم ومثل أهل الكتابين كمثل رجل استأجر أجراء فقال: من يعمل لي من غدوة إلى نصف النهار على قيراط، فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل لي من العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين فأنتم هم، فغضبت اليهود والنصارى، فقالوا: ما لنا أكثر عملا وأقل عطاء؟ قال: هل نقصتكم من حقكم؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء»، بهذا الحديث الصحيح نختم تفسيرنا لهذه السورة المباركة بما فتح الله لنا، ومنه العون وله الفضل والمنة والثناء الحسن، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المجادلة مدنية

وآياتها ٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ
يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ
مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي
وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ
اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ
ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ
تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ
شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ
سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

هذه السورة نزلت بالمدينة، وتسمى سورة المجادَلة بفتح الدال على المشهور لنزولها لمناسبة المجادلة الواقعة بين خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها ورسول الله ﷺ، ومن العلماء

من يسميها سورة المجادِلة بكسر الدال نسبة إلى المرأة المجادلة ؛ لأنها هي التي كانت تجادل رسول الله ﷺ في زوجها أوس بن الصامت الذي كان ظاهر منها أي شبهها بظهر أمه حين قال لها في حالة تأثر وقلق: أنت عليّ كظهر أمي، وكان هذا صيغة من صيغ طلاق الجاهلية حين يغضب الرجل على امرأته فيلفظ لها بهذه الصيغة البليغة في الطلاق حتى تحرم عليه في زعمهم فلا تطمع في الرجوع.

وهو أول ظهار يقع في الإسلام، وقع شيء من الحديث فيه حدة بين أوس بن الصامت الخزرجي الأنصاري رضي الله عنه وبين زوجه خولة بنت مالك بن ثعلبة، فأخذه نوع من اللمم فظاهر منها فجاءت إلى رسول الله تستفتيه في أمرها فقال لها رسول الله ﷺ: «ما أراك إلا حرمت عليه فراجعته القول وجعلت تجادله وتقول له: التمس لي مخرجا، وقد نسخ الله أمورا من الجاهلية ولعل هذا يكون من أمور الجاهلية التي يبطلها الله، وهو يقول: ما يكون لي أن أنسخ شيئا إلا بإذن ربي، وهي تقول له: بيني وبينه صبية إن تركتهم معه ضاعوا، وإن أخذتهم وضممتهم إليّ جاعوا»، فهي تجادله وتشتكي إلى الله تسأله أن يجعل لها من أمرها فرجا ومخرجا، فسمع الله قولها سماع قبول واستجابة، وفي هذه الإضافة تشريف وعناية بهذه المرأة المؤمنة رضي الله عنها، ولذا جاءت نسبة السماع هنا إلى قولها، ثم بعده قال الله:

﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾.

فهذا سماع علم، والله يعلم السر وأخفى، وجاء التذييل بقوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾.

بصيغة المبالغة من السميع والبصير، روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت في البيت وكانت تخفى عليّ بعض محاورتهما فنزل الوحي على رسول الله ﷺ ولم يتحول من مكانه، فسبحان الذي يعلم السر وأخفى، وهو السميع البصير، وهو عليم بذات الصدور، وهو القائل: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٦)، تلك هي

مناسبة نزول هذه الآيات التي تقرر حكم الظهار وتجعل لمن يعود لما قال مخرجا منه بالتكفير بأحد الأشياء الثلاثة، وتحد له مدة محدودة، قال تعالى:

﴿الذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ، إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ، إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

إن الله تبارك وتعالى يبين لنا حكم الظهار وأنه معصية ومنكر من القول وزور، وأن العمل مسخط لله، فلابد من التخلص من هذه الكبيرة بالتكفير منها لمحو الخطيئة، ولرجوع العلاقة الزوجية المقدّسة، فليس من حق الزوج أن يحرم زوجه التي أحلها الله له بهذه الطريقة الشنيعة المنكرة التي لا يرضاها الله، كما أنه ليس له أن يربط علاقة نسب بغير هذه العلاقة المقدسة فينسب إلى نفسه وليدا لم تلده امرأته، فقد قرن هاتين الفعلتين في نسق واحد وحرمهما في آية واحدة من سورة الأحزاب فقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تَظَّهَّرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ، أَبْنَاءَكُمْ ذَالِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ (الأحزاب: ٤)، فجعْلُ الأزواج أمهات زور من القول، كما أن جعل الأدعياء أبناء زور من القول، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل الأرشد، إن الله ينفي نفيا باتا كون المظاهَر منها أماً ويثبت الأمومة الحق للتي ولدتك، فيقول:

﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ، إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ، إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ﴾.

إن الله تبارك وتعال يقول الحق ويؤكد القول، ويؤكد الحكم بعده بمؤكدات، فبعد نفي الأمومة من المظاهَر منها يحصر الأمومة حصرا في التي ولدتك لا غير، ويأتي في التوكيد بلام القسم أن هؤلاء المظاهرين من أزواجهم ليقولون منكرا من القول وزورا، وينكر لفظ المنكر ولفظ الزور ليدل التنكير على عظمة هذا القول وشناعته وفظاعته، وما يترتب عليه من فكّ رباط الأسرة وتشتيت العيال لأجل غضبة يغضبها الزوج على

زوجته، وقد تكون الغضبة على غير حق أو لأمر تافه لا معنى له، ثم يديل الحكم بقوله:

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

والعفو والغفران لا يكونان إلا على الذنب، فالعمل إذن ذنب كبير تجب المسارعة بعده إلى الاستغفار والتكفير والرجوع إلى الصواب، ثم يبين الله لنا سبيل الرجوع إلى ربط العلاقة الزوجية التي تعرضت بهذا القول الزور إلى الانفكاك والضياع فيقول:

﴿وَالذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَّتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَنْ يَّتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُومِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾.

يأتي بيان المخرج من هذه الأزمة التي تشتكي منها خولة التي كانت تجادل رسول الله ﷺ وتشتكي إلى الله فاستجاب الله لها وأنزل الحكم لها ولكل من يقع فيها من الرجال والنساء بعد أن بيّن شناعتها وحذر منها، ففي هاتين الآيتين الكريمتين يأتي بيان أنواع الكفارات الثلاثة مرتبة حسب الإمكان والاستطاعة، والناس في جدتهم واستطاعتهم مختلفون فهم فيها على رتب شتى، فجاء الحكم الذي يشملهم جميعا كلٌّ على حسب استطاعته وإمكانياته والله رحيم بالمؤمنين لا يحرجهم ولا يكلفهم إلا ما يسعهم.

ونريد قبل الدخول في الكلام على أنواع الكفارات أن نبين ما بينه العلماء ما شرع الله في الموضوع أن الظهار لا يكون فقط من الأمهات بل يكون أيضا من البنات والأخوات والعمّات والخالات وسائر ذوات المحارم، كل ذلك له حكم الظهار وشناعته، وتجب فيه كفارة الظهار وترتيب أنواع الكفارات كما جاء في هاتين الآيتين:

﴿وَالذين يَظَّهَّرُونَ من نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَّتَمَآسَّا ذَ ٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَنْ يَّتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَ ٰلِكَ لِتُومِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾.

والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا بالندم ويرجعون إلى الصواب وهو إبقاء العلاقة الزوجية، فكفارتهم تحرير رقبة، أي عتق عبد أو أمة ذلكم حكم الله توعظون به وتنتهون عن غيكم والله بما تعملون خبير، لا يخفى عليه شيء من أمركم، سرّه وعلانيته، فمن كان منكم صدرت منه كلمة الظهار فالله عليم بأمره، خبير بسره وعلانيته، فليسارع إلى التوبة والتكفير بما شرعه الله، ولا يغني عنه الكتمان والإنكار، فالأمر جد وخطير.

فمن لم يجد رقبة أو لم يجد ثمنها فصيام شهرين متتابعين، هذا كله قبل أن يتماساً، أي قبل أن يباشر زوجته التي ظاهر منها، فهي لا تحل له حتى يكفر وينتهي من صيامه وعتقه وإطعامه، واشترط في هذا الصيام التتابع فلا يفصلها إلا بفاصل ضروري كشهر رمضان أو يومي العيدين، أو ضرورة تنجية نفسه إن خاف الهلاك بالاستمرار في الإمساك، أما فصله بغير هذه الأمور فإنه يفسده ويستأنف صيام الشهرين من جديد.

فمن لم يستطع - والله يعلم حد الاستطاعة وعدمها- فإطعام ستين مسكينا، يطعم ستين من المساكين أكلتين مأدومتين غداء وعشاء، أو مسكينا واحدا ستين يوما، وإن كان إشباع ستين مسكينا وإدخال الفرح عليهم خير من إشباع مسكين واحد ستين يوما.

وروي أن أوس بن الصامت المظاهر رضي الله عنه لم يجد ثمن الرقبة ولم يستطع الصيام، روي أنه لم يتوفر لديه حتى مقدار الإطعام فأعانه الرسول ﷺ ببعض الأصوع وأعانته زوجته خولة رضي الله عنها بشيء فكفّر بإطعام المساكين، ويأتي في أثناء الكلام

على أنواع الكفارات آياتان في الوعظ والتحذير والإنذار، ذلك لأن القرآن كتاب ذكر وموعظة وإنذار لا مجرد بيان لأحكام الشرع، كما نجد في كتب فروع مسائل الفقه، فبعد بيان النوع الأول من الكفارات يأتي قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وقد تقدم الكلام على معناها والمقصود منها، وبعد بيان النوعين الباقيين يأتي قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

لله ما أعجب هذا الكلام وما أروع هذا الإنذار في مثل هذا المقام إنه الذكر الحكيم، كلام رب العالمين ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ذلك أي ما تقدم من أحكام كتاب الله التي جعلت لكم مخرجا من مأزق الظهار لتؤمنوا بالله ورسوله، وتعلموا أن حكم الله حق وشريعته سمحة وأن رسول الله ما هو إلا مبلغ عن ربه ما أوحى إليه، فهو قبل أن يوحى إليه لم يجد حلا لهذه المرأة المجادلة، ولم يملك من الأمر إلا أن قال لها: ما أراك إلا حرمت عليه، فلما أوحي إليه حدثها بالوحي فكان حكم الله رحمة لها ولأمثالها من المسلمات والمسلمين رحمة إلى يوم القيامة.

وتلك حدود الله التي يجب احترامها والوقوف عندها فلا يتعداها إلا ظالم لنفسه، ومن يكفر بها فللكافرين عذاب أليم أعده الله لهم يوم يرجعون إليه يوم القيامة، وربما يصيبهم ببعض ذنوبهم في الدنيا، فمن تاب منهم فذلك حظه من عذاب الله، ومن لم يتب فعذاب الآخرة أشدّ وأبقى ﴿فَلْيَحْذَرِ الذِينَ يُخَالِفُونَ عَنَ اَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ اَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ (النور: ٦٣)، وفي الآية دليل على تسمية مرتكب الكبيرة كافرا وإنما هو كفر دون كفر إن ارتكبها تعديا لشهوة غلبت عليه من غير إنكار ولا جحود، أما إن جحد وأنكر ما أنزل الله من الحق فهو حينئذ كافر كفر شرك، والله أعلم.

ولا يكون المؤمن مؤمنا حقا حتى يكون حافظا لحدود الله، فقد جاء في وصف المؤمنين في سورة التوبة: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤمِنِينَ﴾ (الآية: ١١٢)، وجاء في سورة ق: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ (الآية: ٣١- ٣٢)، تلك أحكام الظهار في هذه الآيات الكريمة، وفي الظهار تفاريع من أراد معرفتها فليرجع إلى المطولات من كتب الفقه حيث يجدها مبسوطة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم
بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن
نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ
مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا
عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

تأتي هذه الآيات البينات بعد ذكر أحكام الظهار وبعد ذكر حدود الله، وأن من يتعداها أو يكفر بها فله عذاب أليم، تأتي هذه الآيات تبين أن من يكفر بالله ويتعدى حدوده فهو محاد لله ولرسوله، والمحادّة مفاعلة مصوغة من مادة الحد، وهي تعدي الحدود، والوقف في حد مقابل معاكس، فهو محارب مشاقق لله ولرسوله، وقد جاءت هذه الصيغة المحادّة أو المشاقة أو المحاربة في غير موضع من كتاب الله للتحذير من تعدي حدود الله، وللتغليظ من أمر التعدي والمخالفة، لا سيما من ذهب يضع قوانين مخالفة

لقانون الله كما يصنع بعض المتسلّطين على طائفة من الناس، فيحملونهم على قوانين من وضع البشر مخالفة لكتاب الله وسنة رسوله، وهذا كفر وظلم، وقد قال الله في كتابه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤)، وقال: ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة: ٤٥)، وقال أيضا: ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ (المائدة: ٤٧)، وحكم على هؤلاء وأمثالهم ممن يتعدى حدود الله ويحاد الله بالمعاصي والكفر بالكبت، والكبت هو الإهانة والدحر والخزي، وجاءت الصيغة بالماضي فقال:

﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

لتحقق الوقوع، فكأن قد وقع، وسيسلك الله بهم سبيل المحادّين من قبلهم ممن ذكر الله عقوباتهم وعواقبهم في القرآن، فمآل هؤلاء وهؤلاء واحد ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

كل الذين يحادون الله ورسوله بعد أن أنزل الله آياته البينات فجحدوا بها ونبذوها وراءهم ظهريا واتخذوا القرآن مهجورا، فهم إما كافرون كفر شرك، وإما كافرون كفر نعمة، وللكافرين عذاب مهين يوم القيامة حين يلقون الهوان والعذاب الأليم في دار الهوان جهنم وبئس المصير.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

يوم، هذا الظرف إما أن يتعلق بما قبله وهو أن يكون اليوم ظرفا للعذاب المهين الذي يصيب الكافرين أو يكون متعلقا بمحذوف مقدر، ويكون الكلام مستأنفا، أي ذكرهم يوم يبعثهم الله جميعا، والبعث هو رجوع الأرواح إلى أجسادهم ليوم الحشر، وهو يوم آت لا ريب فيه، وقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون، ولتسألنّ عما تعملون»، الحديث، وقد جاء التوكيد

بعد ذكر البعث ﴿جَمِيعاً﴾ حتى لا يظن أحد أنه يفلت أو يضل في الأرض أو في البحر بعد أن أكله حوت البحر أو سباع البر.

إن الله تبارك وتعالى يبعثهم جميعا وهو الذي قال: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ (الأنبياء: ١٠٤)، وقال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا(مريم: ٩٣- ٩٥) في أمثالها من الآيات الدالة على بعث الأولين والآخرين، وجمعهم لميقات يوم معلوم.

ثم إن في كلمة ﴿جَمِيعاً﴾ هنا دلالة على بعث التابعين والمتبوعين، الرؤساء والمرؤوسين، ذلك لأن كثيرا من المتبوعين من الأحبار والرهبان يحللون لتابعيهم ويحرمون عليهم فيتبعونهم، وتلك هي عبادتهم التي صرح بها القرآن وفسرها الحديث، وكذلك كثير من الرؤساء والملوك يقنّون لرعاياهم قوانين ليست في كتاب الله، وهؤلاء وهؤلاء من التابعين والمتبوعين محادون لله ورسوله، كفار يتبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة، يوم يرون العذاب المهين الذي أعده الله لهم، فأمر الله نبيه وكل واعظ بالقرآن أن يذكرهم بيوم البعث.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ينبئهم الله بما عملوا يوم البعث ليجزيهم على أعمالهم التي أحصاها الله ونسوها، والإحصاء هو الجمع والإتيان على نهاية العدد، فأعمالهم التي عملوها وغفلوا عنها ونسوها كلها محصية عليهم، سوف يرونها يوم القيامة ﴿وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٩)، أما المؤمن فإنه لا ينسى ذنوبه بل لا يزال يذكرها ويجدد التوبة والاستغفار منها، وربما ينسى حسناته، وكذلك ينبغي حتى لا يغتر الإنسان بأعماله القليلة، فيزداد من فعل الخير ويتقرب إلى الله بفعل النوافل بعد أداء الفرائض.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

هكذا بصيغة العموم وبدون تخصيص، فإن الله على كل شيء رقيب وحفيظ وعليم، وسيجزي كلا بعمله، ويزيد المحسنين من فضله العظيم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ، أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

هذه الآيات وما بعدها نزلت في المنافقين الذين يتناجون فيما بينهم وفيما بينهم وبين إخوانهم من أهل الكتاب، يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، تلك هي أسباب النزول وإن كان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهي أعم من حالهم وحال أمثالهم، وهي تركيز لعقيدة الإيمان في قلب كل مؤمن، الإيمان بعلم الله المحيط بكل ما يجري من أمور الغيب والشهادة، فهو العالم بأحاديث السر والعلانية، لا تخفى عنه خافية، ألم تر، أي ألم تعلم وكثيرا ما تأتي الرؤية بمعنى العلم، أما تعلم أيها العاقل اللبيب أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض، فعلمه جل جلاله محيط بما في السموات من مخلوقات وأحداث، وما في الأرضين من مخلوقات وأحداث، وإحياء وإماتة، محيط بما يجري من جليل الأمور ودقيقها، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك، محيط بمناجاة عباده بعضهم لبعض.

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ، أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

النجوى هي الكلام السري الخفي، الذي يدور بين اثنين أو أكثر، ويتخافتون ولا يحبون أن يظهر، ويكون غالبا في انتقاد السلطة القوية، إما الزمنية وإما الروحية، وقد يكون حتى بين الطلبة ضد معلميهم أو المسؤولين، وكثيرا ما يكون بالإثم والعدوان، وقلّما تكون النجوى في الخير، قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ، إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوِ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ...﴾ (النساء: ١١٤).

والله تبارك وتعالى يخبرنا في هذه الآية أنه ما يكون من نجوى ثلاثة إلا والله رابعهم، ولا خمسة إلا والله سادسهم، أي سامعهم ومبصرهم، وعليم بما في نفوسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم معية شهود وإحاطة علم ورؤية وسماع، أينما كانوا في وضح النهار وأماكن ظاهرة أو في سواد الليل وأماكن خفية ومغارات وأجواف البيوت، وأدنى من ثلاثة اثنان، وقد يكون الشخص الواحد يناجي نفسه فلا تخفى مناجاته على الله، وأكثر من خمسة، وقد تخفى المناجاة على بعضهم كما خفيت بعض محاورة خولة مع الرسول ﷺ عن عائشة، وهي معهما في البيت، ولكنها لا تخفى على الله.

ثم إن الله ينبئهم بما عملوا يوم القيامة، والمناجاة من جملة الأعمال، ينبئهم أي يجازيهم بها بعد العرض ليطلعهم على أعمالهم وأقوالهم التي يجازيهم عليها جزاء عادلا، إن الله بكل شيء عليم، لا تخفى عنه خافية، وهذا من الله إنذار لهؤلاء الذين يتناجون بالإثم والعدوان، ويبيتون ما لا يرضى الله من الأقوال، إن الله عليم بنجواهم وهو بكل شيء عليم، وسيجازيهم بالعدل على أعمالهم، فليتقوا الله وليحذروه وليستغفروه وليتركوا النجوى بالإثم والعدوان، لعل الله يغفر لهم.

ثم إن الله تبارك وتعالى يعرّض بهؤلاء المنافقين الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهو عنه فيقول:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ
بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ
جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا
تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا
بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ
مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

صدّرت هذه الجملة بالاستفهام الذي يراد به التعجب ؛ لأن حال هؤلاء المنافقين يدعو حقا إلى العجب لقساوة قلوبهم وإمعانهم في الضلال ، ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ولا ينتهون ، والحال أنهم يتناجون بالإثم والعدوان ، يتناجون بما هو إثم وعدوان وظلم ، ظلم لأنفسهم بفعل الإثم ، وظلم لغيرهم بالمكر والعدوان ومعصية الرسول ، ومن يعص الرسول فقد عصى الله ، فهم بنجواهم تلك يؤذون النبي ويؤذون المؤمنين.

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾.

وإذا جاءوك يا محمد فهم يحيونك بما لم يحيك به الله ، إن تحية الله هي السلام ، فالله يحيي رسوله وأولياءه بالسلام ، وتحية الملائكة للمؤمنين هي السلام ، وتحية المؤمنين لرسول الله هي السلام ، ولبعضهم بعضا هي السلام ، وردها كذلك هو السلام ، ولكن هؤلاء المنافقين وإخوانهم اليهود يغشون في تحيتهم فهم يدعون بالسوء ودعاؤهم على رسول الله وعلى المؤمنين بالسوء لا يقبل فهو مردود عليهم ، فهم يقولون : السام

عليكم، أي الموت، أو السِلام عليكم، وهي قطع الحجارة الحادة القاطعة، ولذلك فإن النبي ﷺ يرد عليهم «وعليكم» فدعاؤه عليهم مستجاب، ودعاؤهم عليه مردود عليهم، فلهم الويل مرتين، ويظنون أن ذلك لا يخفى على الله وعلى رسوله، ويقولون لو كان محمد نبيا حقا كما يزعم لعذبنا الله بما نقول، فرد الله عليهم فقال:

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِيسَ الْمَصِيرُ﴾.

إن الله أعدّ لهؤلاء الظالمين جهنم يصلونها، فهي حسبهم وكفى بعذابها وهوانها وخزيها عذابا وهوانا وخزيا، وبئس مثوى الظالمين جاء هذا جوابا لقولهم وقطعا لشبهتهم حتى لا يفتنوا بها بعضهم، وربما ضعفاء المؤمنين، وإلا فإن الله سيعذبهم بنفاقهم وكيدهم في الدنيا قبل الآخرة إن لم يتوبوا ثم يردون إلى جهنم وبئس المصير، وقد توعدهم الله في القرآن بأنواع العذاب في الدنيا والآخرة فقال: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنَ اَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (التوبة: ١٠١)، فوعيد الله نافذ فيهم وفي أمثالهم في كل زمان ومكان، والله لا يخلف الميعاد.

ولمناسبة نزول هذه الآية في المنافقين الذين يبدلون كلمة السلام نرشد المؤمنين إلى إفشاء السلام ورد السلام بهذا اللفظ الذي هو اسم من أسماء الله تعالى، ولا يبغوا به بدلا، فإن كثيرا من شباب عصرنا يستبدلون بالسلام ألفاظا أخرى يحيي بها بعضهم بعضا، وربما ألفاظ فرنسية أو أمريكية، وهذا إلحاد في التحية التي أمر الله أن تكون هي السلام، ولا بأس بعد تحية السلام أن يقول المحيي صباح الخير أو مساء الخير، أو كيف أصبحت أو كيف أمسيت، وكيف حالك، أما أن نترك السلام ونذهب نلتمس ألفاظا أخرى من هنا وهناك فهذا ما لا ينبغي للمسلم ولا للمسلمة فتشبثوا بتحية أهل الجنة المباركة الطيبة، فهي السلامة من الآفات والبلايا والحروب، وهي المباركة في البيوت

التي تقال فيها، قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ (النور: ٦١).

وكان مشايخنا رحمهم الله يوصوننا بإلقاء السلام في بيوتنا على أهالينا ويحاسبوننا على ذلك، والآية تدل على هذا المعنى، وقد جاء في الأثر أن المؤمن إذا دخل بيته فلم يجد أحدا أو بيتا آخر غير مسكون أن يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فتكون سلمت على نفسك وعلى الملائكة الحافظين البررة الكاتبين.

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا بِالاِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

بعد أن ذكر الله حال المنافقين أنهم يُنهون عن النجوى ثم يعودون لما نهو عنه، ربما يظن المؤمنون أن النجوى منهي عنها مطلقا، وأن الله سينهانا عنها، جاءت هذه الآية الكريمة تبين لنا أن النجوى ليست شرا لذاتها إنما الشر ما كان منها في الإثم والعدوان ومعصية الرسول، أما ما كان منها في البر والتقوى فلا بأس بها حينئذ بل هي خير، لهذا الغرض يأتي هذا النداء من الله لعباده المؤمنين.

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا بِالاِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

لا ينهانا الله عن النجوى كما نهى المنافقين عن نجواهم بل يأمرنا إذا تناجينا ألا نتناجى بالإثم والكيد والعدوان، وأن نتناجى بالبر الذي هو الإحسان وفعل الخير والتقوى، أي بالأفعال التي توحي بها تقوى القلوب مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحظ على الصدقة وإطعام اليتامى والمساكين، والإصلاح بين الناس، فكثيرا ما تأتي النجوى في خصال البر والتقوى، وفعل المعروف والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والإصلاح بين المتدابرين والمتخاصمين، وتلك هي نجوى المؤمنين المتقين، وفي التعقيب على هذا النداء يأتي الأمر بتقوى الله لأنها جماع كل خير.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الذي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

وفي الأمر بتقوى الله يذكرنا الله بيوم الحشر، وأن الحشر يكون إلى الله وإليه وحده، فلنعدّ لهذا الحشر التقوى، فتلك هي وسليتنا إلى الله، وتلك التي ننال بها رضى الله، وننعم بيسر الحساب وحسن المآب.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيُحْزِنَ الذينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْئًا الاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُومِنُونَ﴾.

كانت النجوى التي يتناجى بها المنافقون كما علمنا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإيذائه، وكان الغرض منها تغييظ المؤمنين وإلقاء الحزن في قلوبهم وإدخال الغم والهمّ في نفوسهم لقوة عداوتهم لهم فنسبها الله للشيطان وقصرها عليه قصرا لأنه هو الذي استحوذ على قلوبهم واستولى على نفوسهم، فهو يسوّل لها بذلك.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيُحْزِنَ الذينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْئًا الاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

فليست النجوى إلا من الشيطان ليحزن الذين آمنوا ويتعب مشاعرهم وأعصابهم، ولكن قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْئًا الاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي ليس الشيطان الحريص على مضرّة المؤمنين ليس بضارهم شيئاً، جاء النفي المؤكد أنه لا يضرهم شيئا إلا إن أذن الله فإنهم لا ينالهم منه إلا شيء من الأذى بإذن الله يكون تمحيصا لحسن إيمانهم وصبرهم وتوكلهم على الله، وهو حسبهم.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُومِنُونَ﴾.

وعلى الله وحده لا على غيره فليتوكل المؤمنون، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، ما أبرد هذه العبارة على قلب المؤمن تُقوّي إيمانه، وتشد من أزره، وتشعره بأنه يأوي إلى ركن متين، فهي إرشاد من الله للمؤمنين في كل عصر أن يتوكلوا على ربهم ويفوضوا أمرهم إليه، فإنهم إن فعلوا ذلك لن يضرهم كيد أعدائهم إلا أذى وبإذن

الله، وهي في نفس الوقت تحذير للمؤمنين من النجوى التي تدخل الحزن على إخوانهم المؤمنين، فإن هذا النوع من النجوى من الشيطان لإلقاء الجفوة والشكوك والظنون السيئة في قلوب المؤمنين نحو بعضهم البعض، وقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يتناجى اثنان ودونهما ثالث»، وقد تكلم العلماء في حكم هذا النهي فاتفقوا أن النهي يدل على الحرمة لا سيما في السفر أو بعض المواضع الخالية بحيث لو تناجى اثنان ودونهما ثالث لحدثته نفسه بالشر، فربما يظن أنهم يتناجون بضربه أو قتله أو السطو عليه لأخذ ماله، ولذلك منعوها منعا باتا، وكذلك التحدث بلغة لا يفهمها الثالث، أما إذا كانوا أربعة أو أكثر فتنقلب الحرمة إلى الكراهية، لا سيما إن استأذنوهم فأذنوا لهم بذلك بطيبة القلوب وبعد الريبة عنها فتباح حينئذ ولا حرج، والحديث من أدب الإسلام العالي الذي يجب أن نتحلى به ولا نغفل عنه، ويؤدبنا رسول الله الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ
ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ
صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ
﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ
وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾

كانت المجالس تعقد عند رسول الله ﷺ وكانت ربما تزدحم حوله لحرص الصحابة رضي الله عنهم على الاستفادة من علمه وحكمه ومواعظه، والأنس بحضرته، وفي أثناء جلوسهم يأتي إخوان لهم فلا يجدون فسحة فربما يبقون واقفين، فجاء الأمر من الله تعالى بالتفسح لإخوانهم، وربما يأمرهم بذلك رسول الله ﷺ فأمرهم الله بطاعته حين يأمرهم بالتفسح لإخوانهم، ووعدهم خيرا إن فعلوا ذلك أن يفسح لهم من رحمته، ولم يعين هذا النوع من الفسح حتى تذهب الأفهام مذاهب في فسح الله لهم في أرزاقهم وأعمارهم ومنازلهم وقبورهم ومحشرهم وفي الجنة.

وجاء القول مبنيا للمفعول حتى يعم كل زمان ومكان إذا أمر أهل الحل والعقد وأولوا الفضل إذا أمروا أهل المجالس التي تعقد لهم أن يفسحوا لإخوانهم الوافدين أن يطيعوا الأمر فيتفسحوا لإخوانهم ولا تضيق صدورهم بمن يأمرهم بذلك.

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

ثم إنه ربما يضيق المكان فيأتي الأمر من ولي الأمر بالنشوز، والنشوز هو البروز ونتوء الناشز من مكانه والمقصود القيام، ربما يأمرهم رسول الله أو من يأتي بعده من أولي الأمر بالقيام من أمكنتهم لمن يأتي من أهل العلم وأولي الفضل والأسبقية فأمرهم الله تبارك وتعالى بالطاعة والامتثال.

﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.

جعل الله جزاء هذا الأمر رفع أهل العلم والمؤمنين درجات إيذانا بأن الله تبارك وتعالى يرفع المؤمنين الذين يطيعون الأمر الصادر من رسول الله ﷺ والذين يطيعون أمر خلفائه من بعده بالتفسح، فيفسحون لإخوانهم أو يقومون من أمكنتهم ليؤثروا بها أهل العلم وأهل الأسبقية والفضل، إنه يرفعهم بإيمانهم واحتفائهم وإيثارهم لإخوانهم

درجات كما يرفع الله الذين أوتوا العلم درجات بعلمهم وإيمانهم، فواو العطف لتغاير الصفات وتفاوتها في الدرجات لا لتغاير الأشخاص، فالإيمان والعلم يشمل الذين يعلمون شيئا من العلم ويعملون به، وإن كان فضل أولي العلم أعظم وأرفع وفوق كل ذي علم عليم، والعالم من يعمل بعلمه ومن تواضع لأخيه رفعه الله.

وهناك حالة أخرى تستدعي النشوز والقيام للوافد وذلك أنه يجلس أحد من الصحابة أو طائفة منهم مع النبي ﷺ ليسأله أو ليستفيد منه مشورة أو نصيحة ويطيب به المقام فيطيل الجلوس بعد نيل مطلبه فيأتي غيره ممن يرغب في الجلوس مع النبي ﷺ ليسأله هو الآخر أو يستشيره أو يستنصحه فيفهم منه النبي ذلك فيأمر الجالس الأول بالقيام ليجلس الثاني؛ لأن النبي أو العالم حق للجميع، فأمر الله بطاعة هذا الأمر ووعد عليه خيرا حتى لا تضيق القلوب بهذا الأمر، ولذا يأتي التعقيب بقوله تبارك وتعالى:

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

والله خبير بأعمالكم ومقاصدكم وبطيب قلوبهم حين تسارعون بامتثال أوامر نبيكم وأُولي الأمر منكم من دون تردد ولا تثاقل ولا سأم فيجازيكم عليها جزاء حسنا إن أحسنتم الطاعة والامتثال، وهكذا ترى الإسلام يعلمنا تنظيم المجالس وتقديم أهل العلم وأولي الفضل والأسبقية، ولم يترك مجالسنا وجلوسنا فوضى، وليست الفوضى من الدين، ويعلمنا الله تبارك وتعالى حسن الامتثال والطاعة لأولي الأمر، ويعدنا على ذلك رفع الدرجات، هذا إذا كان الأمر صادرا من أولي الأمر أما أن يترفع أحد على الناس فيأتي متأخرا أو يقول لأحد الجالسين قم لأقعد فهذا ما لا يقبل في أي مكان، في المساجد ولا غير المساجد، وليس للداخل حينئذ إلا أن يجلس حيث ينتهي به المجلس إلا إذا رفعه الناس وأبوا عليه إلا أن يتقدم إلى الموضع الذي يستحقه، فليمتثل الأمر

وليتقدم متاضعا منحني الرأس، ونعوذ بالله من فتنة حب الرفعة والعلو فلا يخطئ أحد الفهم وعاش من عرف قدره.

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

كان أصحاب النبي ﷺ شديدي الرغبة في الدنو منه ومجالسته والاستفادة منه، وكانت أسعد الساعات عندهم بعد مناجاة ربهم مناجاة رسول الله ﷺ وكان الواحد منهم إذا ظفر بوقت يناجيه فيه يطيل المناجاة، ويود ألا تنقطع، وربما يتأذى بذلك رسول الله ﷺ وتضيع عليه بعض حاجاته الخاصة، ويستحي أن يقطع المناجاة، فأمر الله أصحاب النبي أن يقدموا بين يدي نجواهم له صدقة، وليست الصدقة للنبي لأنه حرمت عليه الصدقة بل الصدقة للفقراء، وهذا تأديب من الله لطيف ليفهموا المقصود منه وليظفروا بأجر الصدقة، وأرفق الأمر بالمغفرة والرحمة، فقال تعالى:

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثم نسخت هذه الآية وشيكا بالآية التي بعدها وقد فهم الصحابة رضي الله عنهم المقصود من هذا الأمر فكانوا بعد ذلك يقلّلون من المناجاة إلا ما لابد منه، ولا يطيلونها، وما بين إيجاب هذه الصدقة ونسخها إلا فترة قصيرة حتى قيل إنه لم يفز بالامتثال بالأمر فيها إلا سيدنا علي كرم الله وجهه، وقد غبطه سائر الصحابة على ذلك لفوزه بفضل هذه الصدقة المأمور بها، وقد جاءت الإشارة بعد الأمر بها بالخيرية والطهر.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾.

أي تقديمكم الصدقة بين يدي نجواكم خيرا لكم ثوبا عند الله وأطهر لقلوبكم ونفوسكم، تطهرها من الشح وتنقيها من الخطايا.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

فإن اضطرتكم الحاجة إلى المناجاة ولم تجدوا ما تقدمون من الصدقة فإن الله يعفو عنكم والله غفور رحيم، هكذا لا يمنع الفقراء من مناجاة رسول الله ﷺ متى لزمت المناجاة، ولا تحدد هذه الصدقة فتقبل وتجزي ولو كانت قليلة، وكل ما سد فقر فهو محمود، ثم تأتي الآية التالية تحمل نسخا لهذا الحكم.

﴿آشْفَقْتُمْ، أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

بعد أيام قليلة من نزول الآية السابقة التي أوجبت صدقة المناجاة نزلت هذه الآية التي نسخت الوجوب، وروي أنه لم يعمل بها إلا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال لعلي: "أعطيت ثلاث خصال، تمنيت لو كانت إحداهن عندي وواحدة منهن خير من حمر النعم: تزوجك بفاطمة بنت رسول الله ﷺ، والثانية إعطاء النبي إياك الراية يوم خيبر بعد أن قال: لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبانه، والثالثة عملك بصدقة المناجاة قبل أن تنسخ"، وقد فاز وحده بالعمل بهذه الآية ثم نسخت:

﴿آشْفَقْتُمْ، أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾.

أي أخفتم وشق عليكم أن تقدموا الصدقات عند مناجاتكم لرسول الله، وهذا عتاب لطيف من الله تبارك وتعالى للمؤمنين.

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ما أعظم وقع هذه التوبة بعد العتاب في قلوب المؤمنين، يقول الله لهم: فحين لم تفعلوا وشق عليكم ذلك وتاب الله عليكم فأقيموا الصلوات المفروضات، وحافظوا عليها، وتقربوا إلى الله بالنوافل، وآتوا الزكاة المفروضة عليكم، وأطيعوا الله ورسوله

بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، والله خبير بما تعملون، ومجازيكم على أعمالكم ونياتكم، فاستقيموا كما أمرتكم ولا تضيعوا الواجبات من الصلوات والزكوات، واجتهدوا في الطاعات وفعل الخيرات، فإن الله لن يتركم أعمالكم، والله خبير بها والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا
غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ
شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ
اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ
فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ
هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ
﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

يذكر الله تبارك وتعالى في هذه الآيات شأنا من شؤون المنافقين الذين أشار إليهم قبل أنهم يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، ويتناجون ليحزنوا الذين آمنوا مكرا منهم وكيدا، وفي هذه الآيات يقول إنهم يتولون اليهود ويحلفون على الكذب وهم يعلمون.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

تبدأ الآية بالاستفهام التعجبي، فكلمة "ألمْ ترَ" تستثير المستمع للتعجب من الفعل الذي يأتي بعدها، فأمر هؤلاء المنافقين عجب، فهم يستبدلون بولاية الله ورسوله والمؤمنين ولاية اليهود أعداء الله؛ لأن طبعهم الخبيث جذبهم إليهم، فهم يتولون قوما غضب الله عليهم، والولاية هي المحبة والنصرة والاستنصار، والقوم الذين غضب الله عليهم المرادون هنا هم اليهود الذين صرح القرآن بلعن الكافرين منهم وغضب الله عليهم، وقد قال كثير من المفسرين: إن المقصود بقوله تعالى: ﴿غَيرِ المغْضُوبِ عَلَيهِمْ﴾ في سورة الفاتحة أن المغضوب عليهم هم اليهود لأنهم ضلوا على علم، وحسدوا رسول الله والمؤمنين، وحملوا عليهم الحقد والعداوة والبغضاء، وارتكبوا ما يوجب غضب الله ولعنته عليهم، هؤلاء المنافقون يتولونهم وهم مذبذبون ليسوا من المؤمنين الصادقين وليسوا من اليهود جنسا ولا دينا ولكنهم يتولونهم لعداوتهم لمحمد ﷺ وللمؤمنين، فهم مذبذبون بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وشر الطباع التذبذب والنفاق، وإن دل على شيء فإنما يدل على خبث متأصل في النفس، وضعف ونذالة، واليهود أنفسهم يحتقرونهم ولا يطمئنون إلى ولايتهم التي يعلمون أنها غير صامدة في الظروف العصيبة، فهم إذا لقوا المؤمنين يقولون آمنا، وإذا لقوا اليهود والذين كفروا يقولون: إنّا معكم إنما نحن مستهزئون.

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

إنهم يعلمون أن المؤمنين مرتابون في أقوالهم الكاذبة لذا فإنهم يحلفون، ويحلفون ولا يتورعون عن الحلف الكاذب؛ لأن قلوبهم خالية من الإيمان، إنما يحلفون للمؤمنين ليخدعوهم ويوهموهم أنهم منهم وأنهم بريئون من الأقوال الآثمة التي تنسب إليهم وقد صدرت منهم، فهم يحلفون للمؤمنين ليرضوهم، وإن يرضوا عنهم فإن الله لا

يرضى عن القوم الفاسقين، وقد أطال الله الكلام عليهم وفضحهم في سورة التوبة وفي سورة المنافقون، وهنا يذكر طرفا من أخبارهم ويقول:

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

إن من شعار هؤلاء المنافقين الحلف على الكذب وهم يعلمون أنه كذب خلاف الواقع وخلاف ما في قلوبهم، وما أبلغ كلمة "يعلَمُونَ" فهي عميقة الدلالة على خبثهم وكفرهم لأن هناك فرقا بين حالف على الكذب وهو يعلم أنه كذب وحالف على الكذب وهو لا يعلم إذ ربما يحلف الحالف على شيء يظنه في ضميره حقا فإذا به خلاف ما يعتقد ويظن، فهذا أقل إثما وأيسر مخرجا من الأول حتى أن العلماء تكلموا في لزوم الإثم والكفارة على هذا الحالف وعدمها، ولم يعذروا الحالف على الكذب وهو يعلم أنه كذب وغلّظوا عليه الأمر، وقد جاء التغليظ من الله عليهم فقال:

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

هذه الآية والآيات التي بعدها تغليظ من الله عليهم ووعيد شديد لهم إن لم يتوبوا، إن الله أعد لهم عذابا شديدا، ويكفي في العذاب أن يكون عذابا فكيف إذا وصف بالشديد، إن العقول تذهب مذاهب في تصور هذا العذاب الشديد الذي ينتظر هؤلاء المنافقين.

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

جاء وصف عملهم بالسوء مؤكداً مبالغاً فيه أي ما أسوأ ما كانوا يعملون، والنفاق شر الخصال، ولذا يسحب الله عليهم في هذه الآيات المتتابعة ثماني عشرة خصلة في الذم وفي الوعيد بالعذاب الشديد، وفي ذلك تحذير للمؤمنين من الاقتراب من خطر النفاق والاتصاف بأوصافهم الخبيثة مثل الكذب والخلف في الوعد والغدر والفجور والكيد والمكر والسخرية واللمز والهمز وغيرها من الصفات الخبيثة التي تفضي بصاحبها إلى سخط الله والعذاب الشديد.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

أما في قراءتنا قراءة نافع فهي أيْمان بالسكون الحي وهي الحلف، وقد جاءت في قراءة أخرى "إيمانهم" بالسكون الميت بعد كسر الهمزة، ولا تعارض بين القراءتين بل بينهما تناسق وتوافق، يعني باتخاذ الأيمان أنهم جعلوا إيمانهم الظاهر الذي في باطنه الكفر جعلوه جنّة ووقاية وأكدوه بالأيْمان الكاذبة ليخدعوا بذلك رسول الله والمؤمنين، وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون، لأن تلك الأيمان مفضوحة بما ينزل به القرآن الكريم، فهي وإن وقت دماءهم وأموالهم في الدنيا، فليست بمانعتهم من عذاب الله الشديد يوم القيامة، ولو آمنوا إيمانا صادقا لكان خيرا لهم، لكنهم آثروا النفاق وصدوا به غيرهم عن سبيل الله القويم فاجتالوهم إلى السبل المعوجة فلهم عذاب مهين، وجاء هذا الوصف هنا ليكون الهوان جزاء لهم وفاقا لأن عزتهم في الحياة الدنيا منعتهم عن الإيمان والسمع والطاعة والانقياد للأوامر الصادرة من النبي ﷺ فهم يتعززون بالإثم ويخفون كفرهم ونفاقهم والله عليم بما تخفيه قلوبهم وضمائرهم، ومجازيهم بالعذاب المهين الذي يذوقون فيه من الخزي والذلة والهوان ألواناً.

﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

إنهم جمعوا أموالا فهم يعتزون بها وبأولادهم وأنصارهم ويظنون أنها مانعتهم من المكاره ولكن لا أموالهم ولا أولادهم تغني عنهم شيئا يوم يبعثهم الله ويجمعهم ليوم الجمع، إنها لا تدفع عنهم من الله شيئا ولا تفديهم من عذابه الشديد، وفي هذا النوع من التعميم ما فيه من البلاغة فإن النكرة في سياق النفي تدل على العموم المطلق، فلا مطمع في شيء من الغناء من تلك الأموال والأولاد ولو كثرت، ثم تأتي الإشارة بالبعد لحقارتهم وبعدهم عن حضيرة القدس:

﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

فهم أصحاب النار خلقت لهم وخلقوا لها، وهم فيها خالدون مخلّدون أبد الآبدين، لا يفتر عنهم عذابها وهم فيها ماكثون، والذين صدوهم عن الله، فلنحذر النفاق وأوصافه ولنتق أساليبهم في تضليل الناس بما يحاولون به من أنواع الخدع التي يلقون بها إلى الناس زخرف القول غرورا، يحاولون بها اجتذاب الضعفاء من الناس إلى حزبهم الضال الخاسر، ونعوذ بالله من النفاق بكل أنواعه.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

لا يزال وابل الذم والوعيد منصبا على أعداء الله المنافقين، يأتي ذكر يوم البعث هنا متمكنا لأنه ظرف لما سبق من الوعيد وما يردفه، يوم يبعثهم الله جميعا لا يفلت منهم أحد فيظنون أن أيمانهم تنفعهم كما كانوا يجتنون بها في الدنيا فيحلفون لربهم كما كانوا يحلفون لكم لترضوا عنهم ويحسبون أنهم بتأكيد الحلف على شيء من دفع المكروه واتقاء العذاب، وما شئت فقل في هذا التعميم الذي يشبه نظيره السابق فقطع الله عذرهم ودحض أيمانهم وحكم عليهم حكما صارما فقال:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

جاء الحكم مصدرا بحرف التنبيه، ألا فانتبهوا واعلموا أنهم هم الكاذبون ولا تشكوا في كذبهم وضلال سبلهم الشيطانية، ويتأكد الحكم على كذبهم بمؤكدات مشددة آخرها ضمير الفصل وتعريف لفظ الخبر ليدل أن الكذب الحقيقي محصور فيهم، فالكذب والنفاق توأمان لا ينفك أحدهما عن الآخر وهما جميعا في النار.

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

استحوذ، أي استولى عليهم وسيطر على قلوبهم فأنساهم ذكر الله فقلوبهم خالية من ذكر الله وإن ذكروه بألسنتهم خداعا للمؤمنين وسخرية ونفاقا فهم لا يذكرون هذا

النوع من الذكر إلا قليلا ومراءاة للناس، أما قلوبهم فهي مساكن للشياطين لا يلمع فيها نور الحق إلا ومضات وسرعان ما ينطفئ كما ينطفئ القنديل في هبوب الرياح فيظلم الجو، تلك رياح الشهوات وحب الدنيا والافتتان بحب العلو فيها والفساد في الأرض وكراهية الحق وأهله بغيا وحسدا، تلك هي الطباع التي أنساهم الشيطان بها ذكر الله فعميت قلوبهم فهي مساكن للشهوات وقلوب المؤمنين منائر لذكر الله، فهي على نور من ربها وهي مصابيح الدجى وقلب المؤمن أجرد أزهر كما جاء وصفه في الحديث الشريف وجاء وصفه في القرآن كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري، فشتان بين قلوب المؤمنين المبصرة وقلوب المنافقين المظلمة.

﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلآَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

أولئك، الإشارة بالبعيد كسابقتها لنفس الغرض، أولئك المنافقون حزب الشيطان فهم عابدون له ومطيعون لأمره، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون، وهكذا حكم قاطع مؤكد لا ريب فيه، نهايتهم الخسار وعاقبتهم البوار، ومآلهم إلى النار وبئس القرار، وهي مآل كل من اتخذ الشيطان وليا من دون الله وسلك نفسه في حزبه الخاسر.

﴿إِنَّ الذين يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

المحادة هي المشاقة والمحاربة، إن الله تبارك وتعالى يذكر في هذه الآية الكريمة شأنا من شؤون الكفرة والمنافقين ويحكم عليهم بحكمه الصارم ويجعلهم في الأذلين، ويعلن أن العزة والغلبة لله ولحزب الله فهم وحدهم الغالبون؛ لأن الله القوي العزيز معهم وهو ناصرهم، ومن ينصره الله فلا غالب له.

﴿إِنَّ الذين يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾.

إن الذين يحادون الله، يبارزونه بالشرك والنفاق وكبائر الذنوب، يشاقون الله ورسوله بالكفر والكيد والعداوة، فمن الناس من يحاد الله ورسوله بجحود الخالق

وتكذيب رسله وكتبه، ومنهم من يحاد الله بأن يجعل له شريكا فيعدل به غيره في العبادة فيعبد غيره ويجعله لله ندا ويطلب منه ما لا يطلب إلا من الله ﴿وَمَا يُومِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (يوسف: ١٠٦).

ومن الناس من يحاد الله ورسوله فينكر بعض ما أنزل الله فيجنح إلى قوانين وضعية مخالفة أو فيها ما يخالف ما أنزل الله أو حكم به رسوله، قوانين وضعها أفراد أو هيئات، وجعلتها الدول شرائع يحتكم إليها الناس وهي مما لم يأذن بها الله ولا رسوله، ويقولون هي موافقة لعصرنا هذا عصر العلم والحضارة، وأي علم وأية حضارة هذه التي تطغى فيها ويشيع فيها الظلم، وهل يوثق بعقول البشر القاصرة التي تتحكم فيها الأهواء ويسيرها حب المال وحب العلو والفساد في الأرض، وهل يزكي هذه النفوس إلا خالقها، وهل يعلم ما يصلح بدنيا الناس ودينهم وآخرتهم إلا عالم الغيب والشهادة، مالك أمر الدنيا والآخرة، ولو اتبع الناس شرائع الله لصلح أمر معاشهم ومعادهم ولكنهم اتبعوا أهواءهم وأطاعوا كبراءهم فأضلوهم السبيل إلا من عصم الله ﴿وَإِن تُطِعَ اَكْثَرَ مَن فِي الاَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَّتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمُ، إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام: ١١٦).

لقد حكم الله على كل هذه الأصناف المحادة لله ورسوله بالشقاء والتعاسة والذلة فقال:

﴿أُوْلَئِكَ فِي الاَذَلِّينَ﴾.

الإشارة بالبعد دائما لحقارتهم على الله وبعدهم عن الحق والرشاد، وجعلهم في الأذلين، والأذلون جمع أذل على صيغة وصف التفضيل، فهم في الدرك الأسفل من الذلة والحقارة والهوان، تلك هي عاقبتهم في الدّنيا وهم في الآخرة أذل وأخزى، ثم يقول تعالى:

﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

كتب الله، أي قضى وحكم، وقضاء الله لابد واقع وحكمه نافذ، لا معقب له، ثم إنه أكد الحكم المكتوب بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة ﴿لأَغْلِبَنَّ﴾ وزاد ضمير الفصل فقال: ﴿أَنَا وَرُسُلِي﴾ وهذا نظير قوله تبارك وتعالى في سورة الصافات: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصافات: ١٧١- ١٧٣)، فالغلبة والعزّة لله ولرسوله وللمؤمنين، والنصر أخيرا لجند الله، وإنما لكل أجل كتاب، ونحن نقلق ونقدر الأمور بحسب عقولنا الضعيفة وأعمارنا القصيرة، وأعمار الأمم ليست كأعمار الأشخاص وما النصر إلا من عند الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

لا شك أن القوة بيد الله فهو القوي الفعال لما يريد، العزيز الذي ذلت لعزته الأقوياء من خلقه، وما أبدع هذه المناظرة بين حالة أوليائه الذين لهم الغلبة والعزة، وأعدائه الذين قال فيهم: ﴿أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾ فهم المغلوبون الأذلون عاقبتهم الخسران ولو ذاقوا بعض العز في الدنيا القصيرة الفانية ولكن عاقبتهم إلى ذل وهوان، فليطمئن المؤمنون إلى وعد الله الصادق وليصبروا فإن العاقبة لهم والعاقبة للمتقين.

لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

بعد أن تقدم البيان في الآيات السابقة أن الناس في هذه الدنيا على حزبين: حزب الله وحزب الشيطان تأتي هذه الآيات التالية لبيان الفرق الكبير والبون الشاسع بين الحزبين، وأنه لا موادة بينهما، وليس من المعقول أن توجد علاقة المودّة بين حزب الله وحزب الشيطان، وإن الذين يوالون ويوادّون المحادّين لله ورسوله هم منهم، فالمنافقون الذين تولوا قوما غضب الله عليهم هم من حزب الشيطان، وحزب الشيطان هم الخاسرون.

﴿لاَّ تَجِدُ قَوْمًا يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَآءَهُمُ، أَوَ اَبْنَآءَهُمُ، أَوِ اِخْوَانَهُمُ، أَوْ عَشِيرَتَهُمُ، أُوْلَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الاِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.

نفي الوجود أبلغ من نفي الفعل أو النهي عنه أو الأمر بضده، إذ نفي الوجود هنا كنفي الشأن، فكأنه قال: ليس من شأن من آمن بالله واليوم الآخر، وليس من طبعه أن يبادل المودّة من حادّ الله ورسوله بالكفر والجحود، والإصرار على كبائر الاثم والفواحش، لا توجد بينهما إلا العداوة لأنهما حزبان مفترقان؛ شتان بين حزب الله وبين حزب الشيطان، فلا موادّة مطلقا ولا ولاية ولا تناصر بين قوم يؤمنون بالله واليوم الآخر وبين قوم كافرين أو منافقين، يحادّون الله بالكفر وارتكاب كبائر الذنوب ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أي ولو كانت بينهما وشيجة الرحم وقرابة النسب، وقد ذكر الآباء والأبناء والإخوان أولاً لأنهم أقرب دوائر النسب إلى الإنسان، ثم ذكرت العشيرة وهم أقارب الإنسان إلى جد العشيرة، وهم على رتبهم في القرب والبعد درجات، وبالطبع يجد الإنسان ميلا إلى رباط العشيرة ولكن رباط الإيمان أمتن وأقدس، وحب الله ورسوله في قلوب المؤمنين أقوى وأعظم، ولذا فلا يمكن أن يجد حب هؤلاء الأقربين موضعا في قلب المؤمن إذا كانوا محادّين لله ورسوله، كفارا

معاندين أو منافقين معلوم نفاقهم، بل حظهم منه العداوة والبغضاء، والبعد والجفاء، هذا شأن المؤمنين الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.

جاءت الإشارة بأولئك لعلوّ شأنهم عند الله ولبعدهم عن الكفار المحادّين لله ورسوله، ولو كانوا أقرباءهم وعشيرتهم، وجاء التعبير بالكتابة ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ أي نقشه نقشا في قلوبهم فهي قلوب مطبوعة بطابع الإيمان، وكتابة الله لا تمّحي أبدا، فهم يحيون ويموتون بإيمانهم الذي كتب في قلوبهم، ويلقون ربهم ويحشرون في زمرة المؤمنين ويدخلون الجنة مع المؤمنين، وزاد فوصفهم بوصف آخر عظيم فقال:

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.

أيدهم وقوّاهم بروح منه، وأي روح هذه! والروح تكون بها حياة قلوبهم وتربطهم بالحضرة القدسية، وما أدراك ما الروح؟ قل الروح من أمر ربي، غير أن المؤمن من يشعر بحرارة هذه الروح تملأ قلبه وتجذبه إلى البر والصلاح ومعالي الأمور، وتنفّره من الكفر والفسوق والعصيان، فينجذب إلى أهل التقوى والاستقامة، وينفر من أهل الكفر والضلال، وتلك هي الولاية التي يضمرها المؤمن لأهل الاستقامة والصلاح، ويضمر البراءة من أهل المعاصي والفسوق والنفاق، ومن كان كذلك فجزاؤه الخلود في حضيرة القدس، قال الله تعالى:

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

في هذه الآية الكريمة يبيّن الله جزاء هؤلاء الأبرار الذين نقش الله الإيمان في قلوبهم وأيّدهم بروح منه، وتلك هي قضية الحب في الله والبغض في الله، وهي مسألة الولاية والبراءة التي تمسكنا بها معشر الإباضية وجعلناها من أسس عقيدة الإسلام، ومن مقوماتها التي لا تتم إلا بها، وهي التي تقوّم المجتمع المسلم وتهيئ البيئة الصالحة

لاستقامة أهله وتقويم جميع معاملاتهم على منهج الشرع القويم، الحب في الله والبغض في الله برهان على عمق العقيدة الإسلامية في القلوب، وصدق إيمانها، واستكمال خصال الإيمان الحق.

يذكر الله تعالى في هذه الآية أن الله أعد لهؤلاء الذين ينابذون أقرباءهم العداء في الله ولا يوادون إلا أهل الإيمان ولو كانوا أباعد، أن الله أعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار يدخلونها ويخلدون فيها منعّمين، وأنه رضي عنهم ورضي أعمالهم وأقوالهم، ونياتهم وأخلاقهم، ورضوا عنه، ورضاهم عنه في الدنيا بانشراح صدورهم بكل ما يأتيهم من قضاء الله وقدره ولو كان مراً، فهم برزقهم قانعون وفي الشدّة صابرون، وعند النعمة شاكرون، يحسنون الظن بربهم ويحتسبون صبرهم وشكرهم عند ربهم، قلوبهم مطمئنة بالله، يحمدونه على كل حال ولا تضيق صدورهم بشرعه وقضائه وقدره، أولئك الذين يرضى عنهم ربهم فيقبل ما يقدّمونه من صالح الأعمال ويكفّر ما صدر منهم من سيئها ويرضيهم يوم العرض بحسن الثواب الذي يرضيهم، فهم يفرحون يوم القيامة بالبشارات ويرضون بالكرامات وعلو المنازل والمقامات في الجنات، كيف لا يرضون وقد رضي الله عنهم، ورضوان الله أكبر، وقد أباح لهم جنة عرضها السموات والأرض، وأعدّ لهم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من أنواع النعيم المقيم، كل ذلك وشعورهم برضوان الله عليهم أعظم من ذلك النعيم، قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ٧٢).

ثم وصفهم الله تبارك وتعالى بوصف آخر عظيم، فيه تشريف لهم وتكريم لمقامهم وتمتين للعلاقات بين أفرادهم فقال:

﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

أولئك، جاءت الإشارة بالبعيد لعلوّ مقامهم وارتفاع درجاتهم، ووصفوا بأنهم حزب الله، وكلمة حزب تشعر أن هناك عقيدة ومبادئ يؤمنون بها ويموتون من أجلها،

وأضيف الحزب إلى الله لأن الله هو مولاهم وهاديهم ومؤيدهم وناصرهم، ومن كان كذلك فهو الغالب الفائز المفلح.

﴿أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ألا حرف استفتاح وتنبيه إلى عظم شأن ما بعدها، ألا فاعلموا وتيقّنوا وثقوا بأن حزب الله هم الفائزون المفلحون، ولا تكون العاقبة الحسنى إلا لهم؛ لأن الله ناصر حزبه وجاعلهم هم الأعلون، وقد روي أن الآية نزلت في حق أبي عبيدة بن الجراح وأبي بكر ومصعب بن عمير رضي الله عنهم، فقد قاتل أبو عبيدة أباه يوم أحد وقتله، وكان يحيد عنه ولكنّ أباه كان يتعرض له فوقع في قلبه من قتله أباه شيء فطمأنه الله وأمثاله بهذه الآية، وكذلك أبو بكر كان ابنه عبد الله يتعرض له وهو يريد أن يقاتله فنهاه رسول الله ﷺ خوفا عليه منه، وقال له: «أمتعنا ببقائك، ألا تعلم أنك مني بمنزلة السمع والبصر»، وهذه منقبة عظيمة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، أما الإخوة ففي حق مصعب بن عمير، فقد كان قاتل أخاه عبيد بن عمير حتى قتله، أما العشيرة فقد كان جل هؤلاء المهاجرين يقاتلون أهل عشيرتهم، ومن أبرز ذلك مبارزة حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم لأبناء عمومتهم من بني أمية بن عبد شمس يوم بدر.

فرضي الله عن هؤلاء الذين تحملوا عداوة الأقارب وقتالهم في ذات الله، ورضي الله عن كل من سار على نهجهم، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإنما أولئك السابقون فهم أئمتنا وقدوتنا، ونسأل الله أن يثبتنا على نهجهم، ويلحقنا بهم، ويحشرنا في زمرتهم، وقد أمرنا الله بحبهم والدعاء لهم، فنقول: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الذِينَ سَبَقُونَا بِالايمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، هذا وقد تم ما منّ الله به علينا من تفسير هذه السورة المباركة، وبالله التوفيق وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.